بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء الرابع والعشرون

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

في آخر الكتاب فهرسة ألفبائية شاملة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

الأنفال ٨/٢٤

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق

الجزء الرابع والعشرون

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

وعيد المكذبين ووعد المصدقين

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ (٣٧)﴾

الإعراب :

﴿وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ : ﴿الَّذِي﴾ : مبتدأ ، وخبره : ﴿أُولئِكَ﴾. وإنما جاز أن يقع ﴿أُولئِكَ﴾ خبرا للذي ، و ﴿أُولئِكَ﴾ جمع ، و ﴿الَّذِي﴾ واحد ، لأن ﴿الَّذِي﴾ يراد به الجنس ، فلهذا جاز أن يقع خبره جمعا.

البلاغة :

﴿مَثْوىً لِلْكافِرِينَ﴾ فيه إقامة الظاهر مقام المضمر ، أي مثوى لهم.

﴿يُضْلِلِ﴾ و ﴿هادٍ﴾ و ﴿يَهْدِ﴾ و ﴿مُضِلٍّ﴾ بينهما طباق.

﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ﴾؟ استفهام إنكار للنفي ، مبالغة في الإثبات ، والعبد : رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويحتمل إرادة الجنس ، وفسر بالأنبياء. وهكذا كل استفهام إنكاري مثل : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ [الشرح ٩٤ / ١] ، ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ﴾ [يس ٣٦ / ٦٠] دخل على نفي ، يفيد معنى التقرير والتثبيت بالدليل ، إذ نفي النفي إثبات.

المفردات اللغوية :

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ ..﴾ أي لا أحد أظلم ﴿مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ﴾ بنسبة الشريك والولد إليه ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ وهو القرآن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿مَثْوىً﴾ مقاما ومأوى ﴿لِلْكافِرِينَ﴾ اللام تحتمل العهد (أي كفار قريش) والجنس : جميع الكفار ، وذلك يكفيهم جزاء لأعمالهم.

﴿وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ هم أتباعه المؤمنون ، كأبي بكر الصديق ، فالذي : بمعنى الذين ، لذا قال : ﴿أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ الشرك ﴿جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم ﴿أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ..﴾ أسوأ وأحسن بمعنى السيء والحسن ، كقولهم : الناقص والأشج أعدلا بني مروان. ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ : ويعطيهم ثوابهم على الطاعات في الدنيا. و ﴿الَّذِي عَمِلُوا﴾ : ما عملوه من المعاصي. وخص الأسوأ للمبالغة ، فإنه إذا كفّر كان غيره أولى بذلك. ويقابلهم بالأحسن في زيادة الأجر وعظمه لفرط إخلاصهم في أعمالهم.

﴿بِكافٍ عَبْدَهُ﴾ أي يكفي عبده النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعيد المشركين وكيدهم ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والتخويف من قريش ﴿بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي الأصنام ، بأن تقتله أو تخبله ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ﴾ تركه في الضلال والاعتقاد بما لا ينفع ولا يضر ﴿فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾ يهديهم إلى الرشاد ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ﴾ يوفقه للإيمان ﴿بِعَزِيزٍ﴾ غالب منيع قوي قاهر ﴿ذِي انْتِقامٍ﴾ أي ينتقم ممن عاداه وعادى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

ويقال : «بلى» بعد كل من الاستفهامات الثلاثة في الآيات : ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ﴾؟

سبب النزول : نزول الآية (٣٦):

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ : أخرج عبد الرزاق عن معمر : قال لي رجل : قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : لتكفّنّ عن شتم آلهتنا أو لنأمرنها فلتخبّلنّك ، فنزلت : ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾.

المناسبة :

بعد أن بالغ واستقصى الله تعالى في بيان وعيد الكفار ، وأردفه بذكر مثل يدل على فساد مذهبهم وقبح طريقتهم في قوله : ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ..﴾ أتى هنا بأسوأ اعتقادهم وهو تكذيب الله بإثبات ولد له أو شريك ، وتكذيب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد إثبات صدقه بالأدلة القاطعة ، وختمه بوعيدهم في جهنم.

ثم أتبعه بوعد الصادق المصدوق ووعد أتباعه المصدقين المؤمنين من تكفير السيئات ومنحهم أفضل الثواب ، ليكون الوعد مقرونا بالوعيد.

التفسير والبيان :

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ﴾ هذا نوع آخر من قبائح أفعال الكفار المشركين ، وهو أنهم يكذبون الله ، ويكذبون القائل المحق وهو رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى : لا أحد أظلم ممن كذب على الله ، فزعم أن له ولدا أو شريكا أو صاحبة وحرّم وحلل من غير أمر الله ، وكذب بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من دعوة الناس إلى التوحيد ، وأمرهم بالقيام بفرائض الشرع ، ونهيهم عن محرّماته ، وإخبارهم بالبعث والنشور.

فهم جمعوا بين طرفي الباطل : كذب على الله تعالى ، وتكذيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد قيام الأدلة القاطعة على كونه صادقا في ادعاء النبوة.

وقوله : ﴿إِذْ جاءَهُ﴾ أي وقت مجيئه فاجأه بالتكذيب من غير فكر ولا ترو ولا نظر ، بل وقت مجيئه كذب به.

ثم أردفه بوعيدهم فقال :

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ﴾؟ بلى ، أي أليس في نار جهنم الواسعة

العريضة مقام ومأوى وسكنى لهؤلاء الكافرين. وفيه تنبيه على علة كذبهم وتكذيبهم ، وهو الكفر. والمراد : ألا يكفيهم العذاب في جهنم جزاء على أعمالهم؟ وهو استفهام تقرير وإثبات ، لا نفي.

ثم أتبع الوعيد السابق بوعد الصادقين المصدقين ، فقال :

﴿وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ، أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي أما الذي جاء بالصدق والقول الحق وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخاتم الأنبياء وإمام الرسل ، والذين صدقوا به وآمنوا بأنه رسول من عند الله وهم أتباعه المؤمنون ، وأيقنوا أن القرآن كلام الله تبيان كل شيء وخير وسعادة للبشرية جمعاء ، فأولئك هم الذين اتقوا الله ، وتجنبوا الشرك ، وتبرؤوا من الأصنام والأوثان.

وثواب هؤلاء ما قال تعالى :

﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي لهم ما يطلبون عند ربهم في الجنان ، من رفع الدرجات ، ودفع المضرّات ، وتكفير السيئات ، فضلا عن أن في الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وذلك جزاء الذين أحسنوا في أعمالهم. والإحسان كما ثبت في الصحيح لدى الشيخين عن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : «الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك».

وعلة هذا الجزاء :

﴿لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وعدهم الله بما سبق ليكفر عنهم سيء ما عملوا ، ويجزيهم أجرهم كاملا بالمحاسن من أعمالهم ، ولا يجزيهم بالمساوئ. وإذا غفر لهم ما هو الأسوأ من أعمالهم ، غفر لهم ما دونه بطريق أولى. والحسن الذي يعملونه هو الأحسن عند الله تعالى.

وقوله : ﴿لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ يدل على سقوط العقاب عنهم على أكمل الوجوه.

ثم ذكر تعالى أنه يكفي المؤمنين في الدنيا ما أهمهم ويمنع عنهم ما يخوفونهم به ، فقال: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ﴾ أي أن الله سبحانه يكفي من عبده وتوكّل عليه ، فيدفع عنه الويلات والمصائب ، ويعطيه جميع المرغوبات ، كقوله : ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ﴾ [البقرة ٢ / ١٣٧].

وعبر بلفظ الاستفهام لإنكار النفي ، مبالغة في الإثبات ، والمراد تقرير ذلك في النفوس ، والإشارة إلى كفايته تعالى على أبلغ وجه وأظهره بحيث لا ينكره أحد ، لأنه ثبت أنه تعالى عالم بجميع المعلومات ، قادر على كل الممكنات ، غني عن كل الحاجات ، فهو تعالى عالم بحاجات العباد ، وقادر على توفيرها ، وهو ليس بخيلا ولا محتاجا حتى يمنعه بخله وحاجته عن إعطاء عبده ما يريد.

والمراد بعبده : النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجميع عباد الله ، بدليل قراءة «عباده». روى الترمذي والنسائي وابن أبي حاتم عن فضالة بن عبيد الأنصاري ﷺ أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «أفلح من هدي إلى الإسلام ، وكان عيشه كفافا وقنع به».

وبعد أن ذكر الله تعالى المقدمة وهي كفاية العباد ، رتب عليها النتيجة المطلوبة فقال: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي ويخوفك أيها الرسول المشركون ويتوعدونك بأصنامهم وآلهتهم التي يدعونها من دون الله جهلا منهم وضلالا ، فلا تخف مما يخوفونك به من آلهتهم وجنودهم ، فإن الله يحميك مما يضرك ، وليس عند آلهتهم نفع ولا ضرر. وقد عرفنا في سبب النزول أن المشركين خوفوا

النبي صلى الله عليه وآله وسلم مضرّة الأوثان ، فقالوا : أتسبّ آلهتنا؟ لئن لم تكفّ عن ذكرها لتخبلنّك أو تصيبنك بسوء. ولما بعث النبي خالدا إلى كسر العزّى قال له سادنها : إني أخاف عليك منها ، فلها قوة لا يقدم لها شيء ، فأخذ خالد الفأس ، فهشم به وجهها ثم انصرف.

والآية دليل على أن الله يحمي نبيه صلى الله عليه وآله وسلم من السوء ، ويكفيه وأتباعه الدين والدنيا ، إذ لما كان تعالى كافي عبده ، كان التخويف بغيره عبثا باطلا.

ثم أبان الله تعالى مدى قدرته وسلطانه ليبطل توعد المشركين ويبين جهلهم ، فقال :

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ ، وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍ﴾ أي من حق عليه القضاء بضلالة ، لسوئه وفسقه وعصيانه ، فما له من هاد يهديه إلى الرشد ويخرجه من الضلالة ، ومن يوفقه الله إلى السعادة والإيمان لاستعداده لهما. فلا مضل له أبدا.

والمراد أن خلق المهتدين والضالين بيد الله ، فهو الفاعل ، وليس لمن عداه أي تأثير في ذلك ، فلا راد لفضله ، ولا مانع لمراده ، لذا هدد كفار قريش قائلا :

﴿أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ﴾؟ أي أليس الله بغالب لكل شيء قاهر له ، ينتقم من عصاته بعذاب شديد؟ فهو منيع الجناب ، لا يضام من استند إلى جنابه ، ولجأ إلى بابه ، فإنه القوي الذي لا أقوى منه ، ولا أشد انتقاما منه ، ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

والخلاصة : إن الآية وعد للمؤمنين ، وعيد لكفار قريش وأمثالهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يلي :

١ ـ لا أحد عند الله أظلم ممن كذب عليه ، فزعم أن له ولدا وشريكا ، وكذّب بالقرآن الذي جاء به النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ ـ يكفي هؤلاء الجاحدين مقرا ومقاما جهنم ، وساءت مصيرا.

٣ ـ إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي جاء بالصدق والحق ، وأتباعه الذين صدقوا به كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، هم المتقون الله حق التقوى ، الذي وحّدوه فلم يشركوا به شيئا ، وتجنبوا عذابه وعقابه ومعاصيه.

٤ ـ قد أثبت الله تعالى للذي جاء بالصدق وصدق به أربعة أحكام :

الأول ـ أنهم هم المتقون ، كما تقدم.

الثاني ـ أن لهم ما يشاءون عند ربهم من الكرامة والنعيم في الجنة ، ذلك جزاء المحسنين وهو الثناء في الدنيا ، والثواب في الآخرة. وهذا الوعد يدخل فيه كل ما يرغب الإنسان فيه ، ويدل على حصول الثواب على أكمل الوجوه.

الثالث ـ أن الله يكرمهم ولا يؤاخذهم بسيئاتهم ، ويثيبهم على الطاعات في الدنيا بأحسن أعمالهم وهي الجنة. وهذا يدل على سقوط العقاب عنهم على أكمل الوجوه.

الرابع ـ بدد الله كل تخويفات المبطلين التي يرددونها ويشيعونها كثيرا ، بإثبات كفايته عباده وحمايته لهم من كل سوء أو شر ، سواء أكان مصدر الجن أو الإنس الأشرار ، أو الأصنام في زعم عبدتها مع أنها لا تضر ولا تنفع. قال إبراهيم عليه السلام فيما حكى القرآن عنه : ﴿**وَكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ ، وَلا تَخافُونَ أَنَّكُمْ**

﴿أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً﴾ [الأنعام : ٦ / ٨١].

٥ ـ قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ وَمَنْ يَهْدِ اللهُ﴾ دليل على خلق الأعمال وإرادة الكائنات من الله الذي ينتقم ممن عاداه أو عادى رسله. ودليل أيضا على أن من يضله الله بتركه في غيه وضلالته ، فما له من هاد يهديه إلى الخير أبدا ، ومن يهديه الله إلى الحق والصواب ، فما له من مضل أبدا.

تزييف طريقة عبدة الأصنام وتهديدهم

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (٤٠)﴾

الإعراب :

﴿أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ .. ما تَدْعُونَ﴾ هو المفعول الأول ، وجاء المفعول الثاني جملة استفهامية. وفيها العائد على ﴿ما﴾ وهو لفظ «هن».

﴿كاشِفاتُ﴾ .. ﴿مُمْسِكاتُ﴾ كل منهما خبر المبتدأ ، ويقرأ كل منهما بالتنوين وترك التنوين ، فمن نوّن نصب «ضرّه» و «رحمته» باسم الفاعل ، ومن ترك التنوين جرهما بالإضافة ، وهي لا تفيد هنا تعريفا ، لأنها في نية الانفصال ، لأن اسم الفاعل ليس بمعنى الماضي ، والأصل هو التنوين ، وإنما يحذف للتخفيف.

البلاغة :

﴿ضُرِّهِ﴾ و ﴿رَحْمَتِهِ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿وَلَئِنْ﴾ اللام لام القسم. ﴿لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ لوضوح البرهان على تفرده بالخالقية. ﴿قُلْ : أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ ..﴾ أي أرأيتم بعد ما تحققتم أن خالق العالم هو الله وليست آلهتكم ، إن أراد الله أن يصيبني بضر هل يكشفنه ، أو أرادني بنفع هل يمسكنه عني؟ لا ، و ﴿تَدْعُونَ﴾ تعبدون ، و ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الأصنام. والضر : الشدة والبلاء ، والرحمة : النعمة والرخاء. وقال : ﴿كاشِفاتُ﴾ و ﴿مُمْسِكاتُ﴾ : لما يصفونها به من الأنوثة ، تنبيها على ضعفها.

﴿حَسْبِيَ اللهُ﴾ كافيا في إصابة الخير ودفع الضر ، وتقرر بهذا أن الله هو القادر الذي لا مانع لما يريده من خير أو شر ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يثق الواثقون لعلمهم بأن الكل منه تعالى. ﴿عَلى مَكانَتِكُمْ﴾ على حالكم ، وهو اسم للمكان أستعير للحال. ﴿إِنِّي عامِلٌ﴾ على مكانتي أي على حالتي ، فحذف للاختصار والمبالغة في الوعيد. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ﴾ فإن خزي أعدائه دليل غلبته ، وقد أخزاهم الله يوم بدر ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ﴾ عذاب دائم ، وهو عذاب النار.

سبب النزول :

نزول الآية (٣٨):

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ : روي عن مقاتل أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سألهم ، فسكتوا ، فنزل ذلك. وقال غيره : قالوا : لا تدفع شيئا قدّره الله ، ولكنها تشفع ، فنزلت.

المناسبة :

بعد أن أوضح الله تعالى وعيد المشركين ووعد الموحدين ، عاد إلى إقامة الدليل على تزييف طريقة عبدة الأصنام ، معتمدا على أصلين :

الأول ـ أن هؤلاء المشركين مقرّون بوجود الإله الخالق القادر العالم.

والثاني ـ أن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر.

التفسير والبيان :

أقام الله تعالى الدليل على وحدانيته بإقرار المشركين أنفسهم بذلك ، فقال :

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، لَيَقُولُنَّ : اللهُ﴾ أي إذا سألت المشركين عن خالق السموات والأرض ، اعترفوا بأنه هو الله سبحانه ، مع عبادتهم للأوثان. وإذا اعترفوا ، فكيف قبلت عقولهم عبادة غير الخالق ، وتشريك مخلوق مع خالقه في العبادة؟ مع أن هذه المعبودات لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا ، كما قال موبخا لهم :

﴿قُلْ : أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ ، هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ ، أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ ، هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ﴾؟ أي إذا أقررتم بأن الله تعالى خلق الأشياء كلها ، فأخبروني عن آلهتكم هذه ، هل تقدر على كشف ما أراده الله بي من الشدة والضرر ، أو هل تستطيع أن تمنع عني ما أراده الله لي من الخير والنعمة والرخاء؟ وإذا كانت في الواقع لا تملك شيئا ولا قدرة لها على شيء ، فكيف تجوز عبادتها؟! وأنث قوله : ﴿هُنَّ كاشِفاتُ﴾ و ﴿هُنَّ مُمْسِكاتُ﴾ وهي الأصنام للتنبيه على كمال ضعفها وتحقيرها وتعجيزها ، فإن الأنوثة مظنة الضعف ، ولأنهم كانوا يصفونها بالتأنيث ويسمونها : اللات والعزى ومناة.

﴿قُلْ : حَسْبِيَ اللهُ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ قل أيها النبي : الله كافيني أو كافيّ في جميع أموري من جلب النفع ودفع الضر ، فلا أخاف تلك الأصنام التي تخوفونني بها ، وإنما أخاف الله الذي عليه لا على غيره يتوكل المؤمنون ، ويعتمد المعتمدون.

وذلك كما قال هود عليه السلام : ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ ، قالَ : إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ، ثُمَ

لا تُنْظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها ، إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود ١١ / ٥٤ ـ ٥٦].

أخرج الإمام أحمد والترمذي والحاكم وابن أبي حاتم عن عبد الله بن عباس قال : كنت خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : «يا غلام ، إني أعلّمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفّت الصحف.

واعمل لله بالشكر في اليقين. واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا».

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أيضا ، رفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «من أحبّ أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى ، ومن أحبّ أن يكون أغنى الناس ، فليكن بما في يد الله عَزَّوَجَلَّ أوثق منه بما في يديه ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله عَزَّوَجَلَّ ».

ثم هدد الله المشركين وأوعدهم بقوله :

﴿قُلْ : يا قَوْمِ ، اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ ، إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ، مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ ، وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ﴾ أي قل أيها النبي : يا قومي ، اعملوا ما شئتم ، اعملوا على حالتكم وطريقتكم التي أنتم عليها من عداوة رسالتي ، واعتداد بالقوة والشدة ، واجتهدوا في أنواع المكر ، فإني على حالتي ومنهجي وطريقتي التي أنا عليها في الدعوة إلى توحيد الله ونشر دينه بين الناس ، فسوف تعلمون وبال ذلك ، ومن سيأتيه عذاب يهينه ويذله في الدنيا بعد افتخاره واستكباره ، فيظهر

عندئذ أنه المبطل وخصمه المحقّ ، ويحل عليه عذاب دائم مستمر لا محيد له عنه يوم القيامة ، وهو عذاب النار.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآيات تدرجت في الإثبات من وجوب الاعتقاد بوحدانية الله إلى ضرورة عبادته وحده ، إلى معرفة علمه وقدرته وتمكنه من إنفاذ تهديده ووعيده في الوقت المناسب.

ولكن ما أغبى المشركين وأجهلهم وأحمقهم وأسخفهم!! إنهم مع عبادتهم الأوثان مقرّون بأن الخالق هو الله ، وإذا كان الله هو الخالق القادر العالم الحكيم الرحيم ، فكيف يعبدون سواه؟ وكيف يخوفون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بآلهتهم الخرقاء العاجزة التي هي مخلوقة لله تعالى ، وهو رسول من عند الله الذي خلقها وخلق السموات والأرض؟!

وبعد اعترافهم بهذا ، ألا يدركون أن هذه الأصنام جمادات صماء ، لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر؟ فإن أراد الله عبده بشدة وبلاء ، فلا تستطيع هذه الأصنام دفعه ورفعه وإزالته ، وإذا أراد الله إمداد عبده بنعمة ورخاء ، فلا تتمكن من حجب رحمته وإمساكها ومنعها ، وترك الجواب لدلالة الكلام عليه ، يعني فسيقولون : لا تكشف ولا تمسك.

وأما المؤمن أو العاقل ، فإنه لا يلتفت إلى تخويف المشركين بالأصنام الصماء كما في الآية السابقة : ﴿**وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ**﴾ ، ويعلن أنه معتمد على الله ، متوكل عليه ، ويجب أن يعتمد عليه المعتمدون.

كذلك يصر المؤمن بالبقاء على منهجه وطريقته في عبادة الله وحده ويهزأ بكل من ضل عن هذا المنهج ، وسوف تنجلي الحقائق ، وتتبين ما تتمخض عنه

الأحداث والأيام ، ويدرك الكفار أنهم مهزومون ، واقعون في عذاب مهين مذل في الدنيا ، وعذاب شديد دائم في الآخرة.

والخلاصة : كما يقول المثل : «من فمك أدينك يا إسرائيل» : إنه تعالى انتزع منهم الإقرار بأن خالق العالم هو الله ، ثم سألهم أو استخبرهم عن أصنامهم : هل تدفع شرا وتجلب خيرا؟ لبيان عدم صلاحيتها للألوهية والربوبية ، وللتنبيه على الجواب عن قوله تعالى المتقدم: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ فهي معدومة الهيبة والإخافة.

مظاهر القدرة التامة والعلم الكامل لله عزوجل

﴿إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١) اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعاءَ قُلْ أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ اللهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي

الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٤٨)﴾

الإعراب :

﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها﴾ : ﴿الَّتِي﴾ معطوف بالنصب على ﴿الْأَنْفُسَ﴾ أي ويتوفى التي لم تمت في منامها. ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرى﴾ أي الأنفس الأخرى : وهي التي لم يقض عليها الموت ، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ، و ﴿إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ منصوب ب ﴿يُرْسِلُ﴾.

﴿.. الشَّفاعَةُ جَمِيعاً جَمِيعاً﴾ حال من ﴿الشَّفاعَةُ﴾. وإنما قال ﴿جَمِيعاً﴾ و ﴿الشَّفاعَةُ﴾ واحد في لفظه ، لأنه مصدر ، والمصدر يدل على الجمع ، كما يدل على الواحد ، فحمل جميع على المعنى ، والحمل على المعنى كثير في كلامهم.

﴿وَإِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ وَحْدَهُ﴾ إما منصوب على المصدر ، بحذف الزيادة ، لأن أصله «أوحد إيحادا» أو على الحال أو على الظرف ، والوجه الأول أوجه الوجوه. و ﴿إِذا﴾ الأولى والثانية شرطيتان ، والثانية فجائية كالفاء التي تربط الجواب بالشرط.

البلاغة :

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعاءَ﴾ استفهام إنكار.

﴿الْغَيْبِ﴾ و ﴿الشَّهادَةِ﴾ بينهما طباق ، وكذا بين ﴿اهْتَدى﴾ و ﴿ضَلَ وَإِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ ..﴾ فيها مقابلة بين الله تعالى والأصنام ، وبين الاستبشار والاشمئزاز. والمقابلة : أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب ، وهو من المحسنات البديعية.

المفردات اللغوية :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ﴾ نزلنا عليك القرآن لأجل الناس ، ليحقق مصالحهم الدنيوية والأخروية. ﴿بِالْحَقِ﴾ متعلق بانزلنا أي ملتبسا بالحق ملازما له.

﴿فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ﴾ أي فاهتداؤه نفع به نفسه. ﴿فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها﴾ على نفسه ، أي فإن وباله لا يتخطاها. ﴿وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي بموكّل عليهم لتجبرهم على الهدى ، بل عليك البلاغ فحسب.

﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ﴾ يقبضها عند انتهاء آجالها. ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها﴾ أي ويتوفى غير الميتة وقت النوم ، وهي التي لم يحضر أجلها ، يتوفاها في منامها. ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ ولا يردها إلى البدن الذي خرجت منه. ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرى﴾ أي النائمة. ﴿إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي إلى وقت موتها. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ المذكور من التوفي والإمساك والإرسال. ﴿لَآياتٍ﴾ دلالات على كمال قدرة الله وحكمته. ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في الحياة والموت ، فيعلمون أن القادر على ذلك قادر على البعث ، وقريش لم يتفكروا في ذلك.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ بل اتخذت قريش. ﴿مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعاءَ﴾ أي اتخذوا الأصنام آلهة عند الله بزعمهم ، تشفع لهم عند الله. ﴿قُلْ : أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً﴾ قل لهم : أيشفعون ، ولو لم يملكوا الشفاعة وغيرها؟ لا ﴿وَلا يَعْقِلُونَ﴾ أنكم تعبدونهم ، ولا يعقلون غير ذلك.

﴿قُلْ : لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً﴾ أي هو مختص بها ومالك الشفاعة كلها ، فلا يشفع أحد إلا بإذنه ، ولا يستقل بها أحد. ﴿لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ مالك الملك كله ، لا يملك أحد أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيكون الملك له أيضا حينئذ. ﴿وَإِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ﴾ أي دون آلهتهم. ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ نفرت وانقبضت ، والاشمئزاز : أن يمتلئ غما ، فيحدث انقباض في القلب ، وضيق في النفس ، يظهر أثره في الوجه ﴿وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي الأصنام. ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ الاستبشار : امتلاء القلب سرورا ، حتى تنبسط له بشرة الوجه. ويستبشرون هنا لفرط افتتانهم بالأصنام ونسيانهم حق الله تعالى.

﴿اللهُمَّ﴾ أي يا الله. ﴿فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعها. ﴿عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾ ما غاب وما شوهد. ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي فأنت وحدك تقدر أن تحكم بيني وبينهم ، في أمر الدين ، اهدني لما اختلفوا فيه من الحق. ﴿وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا﴾ سيئات أعمالهم أو كسبهم حين تعرض صحائفهم. ﴿وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ وأحاط بهم جزاؤه.

سبب النزول :

نزول الآية (٤٥):

﴿وَإِذا ذُكِرَ اللهُ﴾ : أخرج ابن المنذر عن مجاهد أنها نزلت في قراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم النجم عند الكعبة وفرحهم عند ذكره الآلهة. أي قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ، وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى ..﴾ الآيات من سورة النجم [١٩ ـ ٢٣].

المناسبة :

بعد بيان أدلة وحدانية الله وقدرته ، وتوضيح فساد مذاهب المشركين بالأدلة والبراهين ، وإتباعه بالوعد والوعيد ، سرّى الله عن قلب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ضيقه وانزعاجه لإصرارهم على الكفر ، وأزال عنه الخوف ، فأعلمه بإنزال القرآن العظيم عليه بالحق لنفع الناس واهتدائهم به ، وهذا أول مظاهر قدرته. ثم أتبعه بمظهرين آخرين للقدرة هما قبضه الأرواح بانتهاء آجالها ، وكونه مالك الشفاعة ، ثم ذكر بعدهما بعض قبائح المشركين وعيوبهم واشمئزازهم من ذكر الله.

ثم أردف كل ذلك بأمور ثلاثة :

الأول ـ ذكر الدعاء العظيم المتضمن وصف الله بالقدرة التامة في قوله : ﴿قُلِ اللهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم وصفه بالعلم الكامل في قوله ﴿عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾.

الثاني ـ ظهور أنواع من العقاب لم تكن في حسابهم في قوله : ﴿وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾.

الثالث ـ ظهور آثار تلك السيئات التي اكتسبوها في قوله : ﴿وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا﴾.

التفسير والبيان :

يخاطب الله رسوله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم بقوله :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِ﴾ أي إنا نحن رب العزة وإله الكون نزّلنا عليك يا محمد القرآن العظيم ، لأجل الناس ، أي والجن ، ولبيان ما كلّفوا به ، وإنذارهم به ، أنزله ربك مقرونا مصحوبا بالحق ملتبسا به ، وهو دين الإسلام. قال الزمخشري : ﴿لِلنَّاسِ﴾ لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه ، ليبشّروا وينذروا ، فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية ، ولا حاجة لي إلى ذلك فأنا الغني ، فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه ، ومن اختار الضلالة فقد ضرها [1] ، قال تعالى :

﴿فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها ، وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي فمن عرف طريق الحق وسلكها ، فاهتداؤه لنفسه ، ويعود نفع ذلك إلى نفسه ، ومن حاد عن طريق الحق ، فضلاله على نفسه ، ويرجع وبال ذلك على نفسه ، وما أنت أيها الرسول بموكل أن يهتدوا ، ولا بمكلف في حملهم على الهداية ، بل عليك البلاغ ، وقد فعلت ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود ١١ / ١٢] وقوله سبحانه : ﴿فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ﴾ [الرعد ١٣ / ٤٠] وقوله عزّوجلّ : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية ٨٨ / ٢١ ـ ٢٢].

ثم ذكر الله تعالى نوعا آخر من أنواع قدرته وتصرفه في الوجود ، بعد إنزال القرآن ، فقال :

﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها ، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها﴾ أي إن الله هو

---

(١) الكشاف : ٣ / ٣٣

الذي يقبض الأنفس أو الأرواح حين انقضاء آجالها بالموت ، الوفاة الكبرى ، بما يرسل من الملائكة الذين يقبضونها من الأبدان ، ويقطع تعلقها بالأجساد.

وكذلك يتوفى الأنفس التي لم يأت أجلها الوفاة الصغرى عند المنام ، تشبيها للنائمين بالموتى ، حيث يمنعهم من التمييز والتصرف كالموتى بالفعل ، مع بقاء الأرواح في أبدانهم.

﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي يمسك الأنفس والأرواح التي قضى عليها الموت الحقيقي ، أي لا يردها إلى الجسد الذي كانت فيه ، ويرسل النفس النائمة إلى الأجساد حين اليقظة ، بأن يعيد إليها إحساسها ، إلى أجل مسمى ، هو وقت الموت.

إن في ذلك المذكور من التوفي التام والإمساك لنفوس ، والإرسال لنفوس أخرى لعلامات عجيبة دالة على كمال قدرة الله الباهرة ، وحكمته البديعة.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ، وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ، ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ، ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ، حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا ، وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ٦٠ ـ ٦١] فذكر الوفاتين الصغرى ثم الكبرى ، وفي هذه الآية هنا ذكر الكبرى ثم الصغرى ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تصحون».

واختلف العلماء في النفس والروح

هل هما شيء واحد أو شيئان؟ قال ابن عباس : إن في ابن آدم نفسا وروحا ، بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس : التي بها العقل والتمييز ، والروح :

هي التي بها النفس والتحريك ، فيتوفيان عند الموت ، وتتوفى النفس وحدها حين النوم. والأظهر أنهما شيء واحد ، كما تدل الآثار الصحاح الآتية في استنباط الأحكام.

وقال الرازي : النفس الإنسانية : عبارة عن جوهر مشرق روحاني إذا تعلق بالبدن حصل ضوؤه في جميع الأعضاء ، وهو الحياة. ففي وقت الموت : ينقطع تعلقه عن ظاهر البدن وباطنه ، وذلك هو الموت. وأما في وقت النوم فإنه ينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن دون باطنه ، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد ، إلا أن الموت انقطاع تام كامل ، والنوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه [١].

ونظرا لشبه النوم بالموت في بعض الأوجه ، إذ النوم موت أصغر ، والموت نوم أكبر ، يسنّ عند النوم الدعاء التالي ، ورد في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إذا أوى أحدكم إلى فراشه ، فلينفضه بداخلة إزاره ، فإنه لا يدري ما خلفه عليه ، ثم ليقل : باسمك ربي وضعت جنبي ، وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين». وخرج البخاري عن حذيفة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ، ثم يقول : «اللهم باسمك أموت وأحيا» وإذا استيقظ قال : «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور».

ثم ذم الله تعالى اتخاذ المشركين شفعاء من دون الله ، وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان ، وهي لا تملك شيئا من الأمر ، إذ هي جمادات لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر ، فقال :

---

(١) تفسير الرازي : ٢٦ / ٢٨٦

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعاءَ﴾ أي بل هل اتخذوا من دون الله آلهة شفعاء تشفع لهم عند الله؟ أي لا ينبغي لهم ذلك ، وردّ الله عليهم بقوله :

﴿قُلْ : أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ﴾ أي قل لهم أيها النبي وأخبرهم : كيف تتخذون تلك الأصنام شفعاء لكم ، وهم لا يملكون شفاعة ولا غيرها ، ولا يعقلون شيئا من شفاعة أو غيرها ، ولا يدركون أنكم تعبدونهم؟

ثم أعلمهم الله تعالى بصفة جازمة عن ملكه بنفسه جميع أنواع الشفاعات قائلا : ﴿قُلْ : لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً ، لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي إن الله تعالى هو مالك جميع أنواع الشفاعة ، وليس لأحد منها شيء ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن ارتضاه وأذن له ، كما قال : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة ٢ / ٢٥٥] وقال : ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى﴾ [الأنبياء ٢١ / ٢٨].

والسبب أن الله تعالى هو مالك السموات والأرض ، وهو المتصرف في جميع شؤونها ، وإليه مصيركم بعد البعث. وعليه ، تجب العبادة لمالك النفع والضر في الدنيا ، ومالك الجزاء والحساب في الآخرة على جميع الأعمال. وفي هذا تهديد ووعيد بالاعتماد على من دون الله في أي شيء.

ثم ذكر الله تعالى بعض قبائح المشركين وغرائبهم ، فقال :

﴿وَإِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي إن من سيئات المشركين الكبرى أنه إذا قيل لهم : لا إله إلا الله ، انقبضوا ونفروا واغتاظوا ، لأنهم لا يؤمنون بالله ولا بالبعث بعد الموت ، وإذا ذكر الذين من دونه ، أي الأصنام والأنداد ، أو الآلهة المزعومة ، كاللات والعزّى ومناة ، كما ورد في سورة النجم ، إذا هم يفرحون ويسرّون. ومدار المعنى على قوله : ﴿وَحْدَهُ﴾ أي إذا أفرد الله بالذكر ، ولم

يذكر معه آلهتهم ، اشمأزوا ، أي نفروا وانقبضوا ، وإذا ذكرت آلهتهم مع الله سروا وفرحوا.

وذلك يدل على الجهل والحماقة ، لأن ذكر الله أساس السعادة وعنوان الخير ، وأما ذكر الأصنام وهي الجمادات ، فهو رأس الجهالة والحماقة.

قال الزمخشري : ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز ، إذ كل واحد منهما غاية في بابه ، لأن الاستبشار : أن يمتلئ قلبه سرورا حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل. والاشمئزاز : أن يمتلئ غما وغيظا حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه.

وبعد بيان مذمة المشركين وفساد عقولهم في حبهم للشرك ونفرتهم من التوحيد ، أمر الله نبيه بالالتجاء إليه والدعاء المنجي من لوثاتهم ، فقال :

﴿**قُلِ : اللهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ أي ادع الله قائلا : يا الله خالق السموات والأرض ، ويا عالم السر والعلانية ، أنت تفصل بين عبادك ، يوم المعاد ، فتجازي المحسن بإحسانه ، وتعاقب المسيء بإساءته ، حتى يظهر المحق من المبطل ، وترتفع خلافاتهم التي كانت بينهم في الدنيا. وفطر السموات والأرض : جعلها على غير مثال سابق.

وقوله : ﴿**فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**﴾ دليل على صفة الله بالقدرة التامة ، وقوله : ﴿**أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ**﴾ دليل على وصف الله بالعلم الكامل ، وإنما قدم ذكر القدرة على ذكر العلم ، لأن العلم بكونه تعالى قادرا متقدم على العلم بكونه عالما.

أخرج مسلم وأبو داود وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت : «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قام من الليل ، افتتح صلاته : اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين

عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

وأخرج الإمام أحمد الحديث المتقدم عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «من قال : اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، إني أعهد إليك في هذه الدنيا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأن محمدا عبدك ورسولك ، فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر ، وتباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لي عندك عهدا توفينيه يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد ، إلا قال الله ﷻ لملائكته يوم القيامة : إن عبدي قد عهد إلي عهدا ، فأوفوه إياه ، فيدخله الله الجنة».

وأخرج أحمد أيضا والترمذي عن مجاهد قال : قال أبو بكر الصديق : «أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضجعي من الليل : اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، لا إله إلا أنت ، ربّ كل شيء ومليكه ، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه ، أو أقترف على نفسي سوءا أو أجرّه على نفسي».

ثم ذكر الله تعالى ثلاثة أشياء في وعيد هؤلاء المشركين ، فقال :

١ . ﴿**وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ**﴾ أي ولو أن هؤلاء الكفار المشركين ملكوا كل ما في الأرض من الأموال والذخائر ، وملكوا مثله معه أي منضما إليه ، لجعلوا الكل فدية لأنفسهم من ذلك العذاب الشديد يوم القيامة ، جزاء ظلمهم. وهذا وعيد شديد وإقناط نهائي من الخلاصلى الله عليه وآله وسلم.

٢ . ﴿**وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾ أي وظهر لهم من أنواع العقاب والسخط والعذاب المعد لهم ، ما لم يكن في حسابهم ولا خطر في بالهم.

وهذا يقابل صفة الثواب في الجنة : «فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر». وهو مأخوذ من الآية : ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة ٣٢ / ١٧].

٣ . ﴿وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا ، وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ أي وظهر لهم جزاء وآثار تلك السيئات والمآثم التي اكتسبوها في الدنيا ، وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا ، من إنذار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان ينذرهم به.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ . سلّى الله نبيه عما كان يعظم عليه ويحربه من عدم إيمان قومه ، وأخبره أنه أنزل عليه النعمة العظمى ، وهو القرآن المجيد مصحوبا بالحق ، وهو دين الإسلام ، لينتفع به الناس ، ويحققوا حاجاتهم.

فمن اهتدى ، فثواب هدايته إنما هو له ، ومن ضل عن الحق ، فعقاب ضلاله إنما هو عليه.

وليس النبي صلى الله عليه وآله وسلم بموكل عليهم ولا ذا سلطان قاهر ، حتى يجبرهم على الإيمان.

٢ . من مظاهر قدرة الله تعالى العظيمة أنه يقبض الأنفس والأرواح عند انتهاء آجالها ، ويقبض الأنفس عن التصرف في الأجسام ، ويمسك أرواح الموتى في الملأ الأعلى ، ويرد الأنفس إلى الأجساد بعد النوم ، فيطلقها بالتصرف إلى أجل موتها. قال ابن عباس وغيره من المفسرين : إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي

في المنام ، فتتعارف ما شاء الله منها ، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى الأجساد ، أمسك الله أرواح الأموات عنده ، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها.

والأظهر أن النفس والروح شيء واحد كما تقدم ، لما دلت عليه الآثار الصحاح ، منها حديث مسلم عن أم سلمة قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أبي سلمة ، وقد شقّ بصره [١] فأغمضه ، ثم قال : «إن الروح إذا قبض تبعه البصر» وحديث مسلم أيضا عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «ألم تروا الإنسان إذا مات شخص بصره ، فذلك حين يتبع بصره نفسه».

وحديث ابن ماجه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «تحضر الملائكة ، فإذا كان الرجل صالحا ، قالوا : اخرجي أيتها النفس الطيبة ، كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة ، وابشري بروح وريحان وربّ راض غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء». وفي صحيح مسلم عند أبي هريرة قال : «إذا خرجت روح المؤمن تلقّاها ملكان يصعدان بها». وقال بلال في حديث الوادي : «أخذ بنفسي يا رسول الله الذي أخذ بنفسك».

والصحيح أن الروح : جسم لطيف مشابك للأجسام المحسوسة.

٣ ـ إن في قبض الله نفس الميت والنائم ، وإرساله نفس النائم وحبسه نفس الميت لدلالات على قدرة الله لقوم يتفكرون في خلق الله.

٤ ـ لم يتفكر الكفار بنحو صحيح ، بل اتخذوا الأصنام شفعاء ، مع أنها لا تملك شيئا من الشفاعة ولا تعقل ، لأنها جمادات.

٥ ـ الله تعالى هو مالك الشفاعة كلها ، ومالك السموات والأرض ، وإليه مصير الخلائق وحسابهم يوم البعث والمعاد.

---

(١) أي انفتح.

٦ ـ تميز المشركون بالجهل والحماقة ، فإذا ذكر الله وحده دون أصنامهم انقبضوا ونفروا ، وإذا ذكرت الأوثان ظهر في وجوههم البشر والسرور.

٧ ـ الله تعالى مبدع السموات والأرض على غير مثال سبق ، وعالم الغيب والشهادة ، أي السر والعلانية ، والحاكم الفصل بين العباد في خلافاتهم الدنيوية.

٨ ـ لو ملك المكذبون المشركون جميع ما في الأرض من أموال وثروات لقدموه فداء رخيصا لافتداء أنفسهم من سوء عذاب يوم القيامة.

٩ ـ يفاجأ الكفار بأنواع من العقاب لم تخطر ببالهم ، ولا جرى تقديرها في حسابهم.

١٠ ـ يظهر للكفار يوم القيامة آثار المحارم والآثار والكفر والمعاصي ، من ألوان العقاب ، ويحيط بهم وينزل جزاء ما كانوا به يستهزئون في الدنيا من الإنذارات والبعث والعذاب والحساب الشديد.

دعاء الإنسان عند الضر وجحوده عند النعمة

وإعلامه بأن الرزق بيد الله

﴿فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾

البلاغة :

﴿يَبْسُطُ وَيَقْدِرُ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ﴾ أي أصاب جنس الإنسان ، وهو معطوف على قوله : ﴿وَإِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ﴾ لبيان تناقضهم ، بمعنى أنهم يشمئزون عن ذكر الله وحده ، ويستبشرون بذكر الآلهة ، فإذا مسهم ضرّ ، دعوا من اشمأزوا من ذكره ، دون من استبشروا بذكره ، وما بينهما اعتراض مؤكد لإنكار ذلك عليهم.

﴿خَوَّلْناهُ﴾ أعطيناه وملكناه تفضلا ﴿نِعْمَةً﴾ إنعاما ﴿عَلى عِلْمٍ﴾ على علم مني بوجوه كسبه ، أو علم من الله بأني له أهل ومستحق ، وضمير ﴿أُوتِيتُهُ﴾ عائد على النعمة ، وذكّر الضمير ، لأن المراد شيء من النعمة ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي بل النعمة امتحان له ، أيشكر أم يكفر ، وتأنيث هي مراعاة للفظ النعمة ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أن تخويل النعمة استدراج وامتحان. وهو دليل على أن المراد بالإنسان الجنس.

﴿قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم كقارون وقومه الراضين بها ، وأنث ضمير ﴿قالَهَا﴾ لأن المراد هو الجملة أو الكلمة التي هي : ﴿إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ﴾. ﴿فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا ﴿فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا﴾ جزاء سيئات أعمالهم وجزاء أعمالهم ، وسماه سيئة ، لأنه في مقابلة أعمالهم السيئة ، رمزا إلى أن جميع أعمالهم كذلك ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالعتو ﴿مِنْ هؤُلاءِ﴾ المشركين ، و ﴿مِنْ﴾ للبيان ، أو للتبعيض ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا﴾ جزاء كسبهم كما أصاب أولئك ، وقد أصابهم ، فإنهم قحطوا سبع سنين ، وقتل صناديدهم في بدر ﴿وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين عذابنا.

﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ يوسعه ﴿لِمَنْ يَشاءُ﴾ امتحانا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيقه لمن يشاء ابتلاء ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بأن الحوادث كلها من الله ، سواء بالبسط أو بالتضييق.

المناسبة :

بعد أن حكى الله تعالى بعض قبائح المشركين ، أتبعه بحكاية نوع آخر من القبائح ، وهو أنهم عند الوقوع في الضر الذي هو الفقر والمرض يفزعون إلى الله تعالى ، وفي حال النعمة وهي السعة في المال أو العافية في النفس ، يزعمون أن

حصول ذلك بكسبهم وجهدهم وجدّهم ، وهذا تناقض قبيح صارخ. والحقيقة أن ما أوتوه من النعمة فتنة واختبار ليعرف شكرهم أو كفرهم ، وأما مقالتهم فهي قديمة قالها كثير قبلهم كقارون وغيره.

ثم أبان تعالى أن الله وحده مصدر الرزق ، يوسعه لمن يشاء ، ويضيقه على من يشاء ، بدليل اختلاف الناس في سعة الرزق وضيقه ، سواء من المؤمنين والكافرين ، وليس جمع الثروة أو ضعفها بعقل الرجل وجهله ، أو كياسته وخبرته وغباوته ، وإنما بتوفيق الله وتيسيره.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن سوء طبع الإنسان وحاله ، فيقول :

﴿**فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ، ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا ، قالَ : إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ ، بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ أي إذا أصاب الإنسان المشرك وغيره ضر من فقر أو مرض أو غيرهما ، تضرع إلى الله عَزَّوَجَلَّ ، واستعان به لكشف الضر عنه ، وإذا أعطاه الله نعمة من مال أو جاه أو غيرهما ، بغى وطغى ، وقال : إنما أعطيته على علم ومهارة مني بوجوه المكاسب ، أو لما يعلم الله تعالى من استحقاقي وتأهلي له. قيل : نزلت في حذيفة بن المغيرة.

والحقيقة : ليس الإعطاء لما ذكرت ، وليس الأمر كما زعمت ، بل هو محنة لك ، واختبار لحالك ، وقد أنعمنا عليك بهذه النعمة لنختبرك فيما أنعمنا عليك ، أتشكر أم تكفر؟ أتطيع أم تعصي؟ مع علمنا المتقدم بذلك ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن ذلك استدراج لهم من الله ، وامتحان لما عندهم من الشكر أو الكفر ، فلهذا يقولون ما يقولون ، ويدّعون ما يدّعون.

ويلاحظ أن لفظ النعمة مؤنث ، ومعناه مذكر ، لذا حينما قال : ﴿**بَلْ**

﴿هِيَ فِتْنَةٌ﴾ راعى التأنيث ، وحينما قال : ﴿إِنَّما أُوتِيتُهُ﴾ راعى التذكير ، وكلا الأمرين جائز.

ثم أوضح الله تعالى قدم مقالتهم وسبقهم بها ، فقال :

﴿قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي قد قال هذه المقالة أو الكلمة ، وهي قولهم : ﴿إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ﴾ وزعم هذا الزعم ، وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم ، كقارون وغيره ، فما صح قولهم ، ولم يغن عنهم ما كسبوا من متاع الدنيا شيئا ، ولا نفعهم جمعهم المال الكثير ، لذا قال تعالى :

﴿فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا﴾ أي فحلّ بهم جزاء سيئات ما كسبوا من الأعمال ، فعوقبوا في الدنيا كالخسف بقارون وبداره الأرض ، وسيعاقبون أشد العذاب في الآخرة. ونظير الآية قوله تعالى عن قارون : ﴿قالَ : إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي ، أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ، وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص ٢٨ / ٧٨].

وقوله سبحانه : ﴿وَقالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً ، وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ ٣٤ / ٣٥].

ثم هدد الله تعالى وأوعد مشركي مكة بعقاب مماثل ، فقال :

﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا ، وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي والذين ظلموا من هؤلاء الموجودين من الكفار ، ومنهم مشركو مكة ، سيصيبهم أيضا وبال كسبهم الأعمال المنكرة ، كما أصاب من قبلهم ، من القحط والقتل والأسر والقهر ، وما هم بفائتين على الله ، هربا يوم القيامة ، بل مرجعهم إليه ، يصنع بهم ما يشاء من العقوبة ، ودليل قدرته العظمى ما قال :

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي أو لم ير هؤلاء المشركون أن الله يوسع الرزق لمن يشاء توسعته له ، ويقبضه لمن يشاء قبضه وتضييقه عليه ، إن في ذلك لدلالات عظيمة وعلامات مؤثّرة لقوم يؤمنون بالله وحده وبسلطانه وبقدرته. وقد خص المؤمنين ، لأنهم المنتفعون بالآيات.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستفاد من الآيات ما يأتي :

١ ـ إن حال الإنسان قلق مضطرب ، لا وفاء عنده ، ولا ثبات لديه على المبدأ ، فتراه عند الشدة يستجير بالله ويستغيث به لينجو من محنته ، وعند النعمة يبغي ويطغى ويبطر ويزعم أن النعمة بجهده ومهارته واستحقاقه وأهليته لها.

٢ ـ الحق أن الثروة والغنى والفقر ليست ميزان قربى العبد من ربه ، فقد يمنح الله المؤمن ويمنع الكافر ، وقد يفعل العكس ، لحكمة بالغة له في ذلك ، والنعمة مع الكفر والمعصية استدراج وابتلاء واختبار ، ليعرف كون العبد شاكرا أم جاحدا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن إعطاءهم المال اختبار.

٣ ـ لقد زعم كثير من الناس قديما وحديثا أن إعطاءهم المال لعلم ومهارة لديهم ، وعلم من الله باستحقاقهم ، فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئا ، وأصابهم جزاء سيئات أعمالهم ، وسيصيب الذين أشركوا من أمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم كل الأمم جزاء كسبهم في الدنيا بالجوع والقتل مثلا ، وفي الآخرة بعذاب جهنم ، وما هم فائتين الله ولا سابقيه.

٤ ـ إن الله تعالى وحده هو مصدر الرزق ، يمنح منه ما يشاء ، ويمنعه عمن يشاء ، وفي ذلك عبرة للمؤمنين ، وخص المؤمن بالذكر ، لأنه هو الذي يتدبر

الآيات وينتفع بها ، ويعلم أن سعة الرزق قد تكون استدراجا ، وتقتيره رفعة وإعظاما.

مغفرة الذنوب بالتوبة وإخلاص العمل

﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (٥٩)﴾

الإعراب :

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ : يا حَسْرَتى﴾ : ﴿أَنَ﴾ وصلتها : في موضع نصب ، مفعول لأجله.

﴿بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي﴾ جواب قوله تعالى : ﴿لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ والجواب ببلى لأنها تأتي في جواب النفي ، لأن المعنى : ما هداني الله وما كنت من المتقين ، فقيل له : ﴿بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي ، فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ ، فلو لا أن معنى الكلام النفي ، وإلا لما وقعت ﴿بَلى﴾ في جوابه. ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَنْ﴾ : مخففة من الثقيلة.

البلاغة :

آية ﴿قُلْ : يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ..﴾ فيها : إقباله تعالى على خلقه ونداؤه لهم ، وإضافة عباد إليه للتشريف ، والتفات من التكلم إلى الغيبة ، إذ الأصل : تسرفوا ، ولا تقنطوا من رحمتي ، وإضافة الرحمة في قوله ﴿مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ إلى الله باعتبار لفظ الجلالة جامعا لجميع الأسماء والصفات ، وقوله : ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ جملة معرّفة الطرفين ، مؤكدة بإن وضمير الفصل ، وقوله : ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ﴾ وضع فيه الاسم الظاهر موضع الضمير ، لدلالته على أنه المستغني والمنعم على الإطلاق.

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ : يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾ قوله : ﴿جَنْبِ اللهِ﴾ : كناية عن حق الله وطاعته.

المفردات اللغوية :

﴿عِبادِيَ﴾ هذه الإضافة مخصوصة بالمؤمنين في عرف القرآن.

﴿أَسْرَفُوا﴾ أي تجاوزوا الحد في أفعالهم ، بالإسراف أو الإفراط في المعاصي ﴿لا تَقْنَطُوا﴾ لا تيأسوا من مغفرته وتفضله ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ عفوا منه ، ولو بعد تعذيب ، وتقييد المغفرة بالتوبة خلاف الظاهر ، كما قال البيضاوي ، ويدل على إطلاقها فيما عدا الشرك قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ [النساء ٤ / ٤٨] والتعليل بقوله هنا : ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ على المبالغة وإفادة الحصر ، والوعد بالرحمة بعد المغفرة. لكن هذا متروك لمشيئة الله وتفضله ، وليس هو القانون العام.

﴿وَأَنِيبُوا﴾ ارجعوا وتوبوا ﴿إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا﴾ أخلصوا العمل ﴿لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾ بمنعه ، إن لم تتوبوا ، وذكر الإنابة بعد المغفرة لئلا يطمع طامع في حصولها بغير توبة ، وللدلالة على أنها شرط فيها لازم ، لا تحصل بدونه ، كما قال الزمخشري ، أي إن المغفرة لا تحصل لكل أحد من غير توبة وإخلاص في العمل ، وهو القانون العام.

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو القرآن ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ بمجيئه ، فتتداركون التقصير في الأعمال ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾ كراهة أن تقول نفس ، وتنكير نفس لأن القائل بعض الأنفس ، أو للتكثير ﴿يا حَسْرَتى﴾ أي يا حسرتي وندامتي ﴿فَرَّطْتُ﴾ قصرت ﴿فِي جَنْبِ اللهِ﴾ جانبه أي طاعته وعبادته وطلب مرضاته ﴿وَإِنْ﴾ وإني ﴿السَّاخِرِينَ﴾ المستهزئين بدينه وكتابه وأهله.

﴿لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانِي﴾ بالطاعة والإرشاد إلى الحق فاهتديت ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ عذابه ، باتقاء الشرك والمعاصي ﴿كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ المؤمنين الذين أحسنوا العقيدة والعمل ﴿بَلى ، قَدْ جاءَتْكَ آياتِي﴾ القرآن ، وهو سبب الهداية ، وهو رد من الله على القائل : ﴿لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانِي﴾ الذي في قوله معنى النفي أي أن ﴿بَلى﴾ حرف لا يجاب به إلا بعد النفي. ﴿وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ تكبرت عن الإيمان بها. وتذكير الخطاب على المعنى ، وقرئ بالتأنيث عودا للنفس.

سبب النزول :

نزول الآية (٥٣):

﴿قُلْ : يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ : أخرج الشيخان : البخاري ومسلم ، وأبو داود والنسائي عن ابن عباس : أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن ، أو تخبرنا أن لنا توبة ـ أو أن لما عملنا كفارة ـ؟ فنزلت : ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ ..﴾ إلى قوله : ﴿وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٦٨ ـ ٧٠] ونزل : ﴿قُلْ : يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ الآية.

والمراد من آيات الفرقان : ﴿إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً﴾ الآية.

وأخرج الإمام أحمد عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية : ﴿قُلْ : يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية ، فقال رجل : يا رسول الله ، فمن أشرك؟ فسكت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم قال : «ألا ، ومن أشرك ـ ثلاث مرات».

وأخرج أحمد أيضا عن عمرو بن عنبسة ﷺ قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم شيخ كبير ، يدعم على عصا له ، فقال : يا رسول الله ، إن لي غدرات

وفجرات ، فهل يغفر لي؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : ألست تشهد أن لا إله إلا الله؟ قال : بلى ، وأشهد أنك رسول الله ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : قد غفر لك غدراتك وفجراتك.

وأخرج الحاكم والطبراني عن ابن عمر قال : كنا نقول : ما لمفتتن توبة ، إذا ترك دينه بعد إسلامه ومعرفته ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة ، أنزل فيهم : ﴿قُلْ : يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : إن أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان ، ودعا مع الله إلها آخر ، وقتل النفس التي حرم الله ، لم يغفر له ، فكيف نهاجر ونسلم ، وقد عبدنا الآلهة ، وقتلنا النفس ، ونحن أهل شرك؟ فأنزل الله : ﴿قُلْ : يا عِبادِيَ ..﴾ الآية.

المناسبة :

بعد أن أوعد الله تعالى الكافرين بشتى أنواع الوعيد ، أردفه ببيان كمال رحمته وفضله وإحسانه في حق عباده المؤمنين ، بغفران ذنوبهم إذا تابوا وأنابوا إليه وأخلصوا العمل له ، لترغيب الكفار في الإيمان بالله تعالى وترك الضلال ، وكثيرا ما تأتي آيات الرحمة مع آيات النقمة ليرجو العبد ويخاف. قال أبو حيان : وهذه الآية : ﴿قُلْ : يا عِبادِيَ﴾ عامة في كل كافر يتوب ومؤمن عاص يتوب ، تمحو الذنب توبته.

التفسير والبيان :

﴿قُلْ : يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ ، لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي قل أيها الرسول : يا عباد الله الذين أفرطوا في المعاصي واستكثروا منها ، لا تيأسوا من مغفرة الله تعالى ، فإن الله يغفر كل ذنب إلا الشرك الذي لم يتب منه صاحبه ، لقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ [النساء ٤ / ٤٨] إن الله كثير

المغفرة والرحمة ، فلا يعاقب بعد التوبة. قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ، ورجع عنها ، وإن كانت مهما كانت ، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر ، ولا يصح حمل هذه على غير توبة ، لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه [١].

وقال الشوكاني : وهذه الآية أرجى آية في كتاب الله ، لاشتمالها على أعظم بشارة ، فإنه أولا أضاف العباد إلى نفسه ، لقصد تشريفهم ومزيد تبشيرهم ، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي والاستكثار من الذنوب ، ثم عقّب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب ، فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى وبفحوى الخطاب ، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك : ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ ..﴾.

وتقييد المغفرة بالتوبة والإنابة وإخلاص العمل مأخوذ من الآية التالية : ﴿وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ ..﴾ الآية ومن الأحاديث المتقدمة في سبب النزول ، فباب الرحمة واسع ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ﴾ [التوبة ٩ / ١٠٤] وقال سبحانه : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ ، يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [النساء ٤ / ١١٠].

أخرج الطبراني عن سنيد بن شكل قال : سمعت ابن مسعود يقول : إن أعظم آية في كتاب الله : ﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة ٢ / ٢٥٥ وآل عمران ٣ / ٢]. وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ﴾ [النحل ١٦ / ٩٠]. وإن أكثر آية في القرآن فرجا في سورة الغرف (أي الزمر) : ﴿قُلْ : يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤ / ٥٨

اللهِ﴾. وإن أشد آية في كتاب الله تفويضا : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق ٦٥ / ٢ ـ ٣] فقال له مسروق : صدقت [١].

وروى ابن أبي حاتم عن أبي الكنود قال : مرّ عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ ﷺ على قاض ، وهو يذكّر الناس ، فقال : يا مذكّر ، لم تقنط الناس من رحمة الله؟ ثم قرأ : ﴿قُلْ : يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ ، لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾.

ثم ذكر الله تعالى تقييد المغفرة بشرطين ، فقال :

١ ـ الإنابة والتوبة : ﴿وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾ أي ارجعوا إلى الله بالتوبة والطاعة ، واجتناب المعاصي ، والاستسلام لأمره ، والخضوع لحكمه ، من قبل مجيء عذاب الدنيا بالموت ، ثم لا تجدوا نصيرا ولا معينا يمنع عذابه عنكم ، أي قبل حلول النقمة.

٢ ـ اتباع القرآن : ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ أي واتبعوا القرآن ، أحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، والتزموا طاعته واجتنبوا معاصيه ، أي اتبعوا أوامر الله واجتنبوا نواهيه ، والقرآن كله حسن.

وذلك من قبل مجيء العذاب فجأة ، وأنتم غافلون عنه ، لا تشعرون به. وهذا تهديد ووعيد شديد واضح.

ثم حذر الله تعالى من التعلل بالأماني والتحسر على الماضي في وقت لا ينفع فيه ذلك ، فقال :

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤ / ٥٩

١ . ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ : يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أي بادروا إلى التوبة والعمل الصالح ، واحذروا أن تقول نفس مجرمة مفرطة في التوبة والإنابة : يا ندامتي وحسرتي على تقصيري في الإيمان بالله ، وطاعته ، وبالقرآن والعمل به ، وإنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ بدين الله وكتابه وبرسوله وبالمؤمنين ، غير موقن ولا مصدّق بشيء من ذلك.

٢ . ﴿أَوْ تَقُولَ : لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي أو أن تقول : لو أن الله أرشدني إلى دينه ، لكنت ممن يتقي الله ، ويجتنب الشرك والمعاصي.

٣ . ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ : لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً ، فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي أو أن تقول حين معاينة العذاب : ليت لي رجعة أخرى إلى الدنيا ، فأكون من المؤمنين بالله ، الموحّدين له ، المحسنين في أعمالهم ، وبإيجاز : تود لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل.

فرد الله تعالى بقوله :

﴿بَلى ، قَدْ جاءَتْكَ آياتِي ، فَكَذَّبْتَ بِها ، وَاسْتَكْبَرْتَ ، وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾ أي نعم ، لقد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتي المنزلة في القرآن في الدار الدنيا ، وقامت حججي عليك ، فكذبت بها ، واستكبرت عن اتباعها ، وكنت من الجاحدين لها ، والمعنى : قد كنت متمكنا من التصديق والمتابعة ، فلما ذا تطلب الرجعة إلى الدنيا الآن؟! ولن تنفعك الرجعة ولا فائدة منها لقوله سبحانه : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٨].

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات الأحكام التالية :

١ ـ إن لله تعالى أن يغفر جميع الذنوب الصادرة من المؤمنين ، ويعفو عن الكبائر منها أيضا. وهذا متروك لمشيئة الله وفضله.

٢ ـ يغفر الله تعالى الذنوب بالتوبة من الشرك والكفر والمعاصي ، والإنابة والرجوع إلى الله بالإخلاص والعمل الصالح ، والخضوع له والطاعة لأوامره واجتناب نواهيه.

ومحل ذلك كله في الدنيا قبل مجيء العذاب بالموت ، وتعذر التخلص منه ، أو المنع منه بناصر أو معين.

٣ ـ العمل : هو اتباع القرآن العظيم ، بإحلال حلاله ، وتحريم حرامه ، والتزام أوامره وطاعته ، واجتناب نواهيه ومعصيته. ويلاحظ أنه تعالى لما وعد بالمغفرة أمر بعد هذا الوعد بشيئين:

الأول : الإنابة والتوبة.

الثاني : متابعة الأحسن ، وهو القرآن ، كما قال : ﴿**اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ**﴾ [الزمر ٣٩ / ٢٣] والقرآن كله حسن ، واتباعه : العمل بما أمر الله في كتابه ، واجتناب معصيته.

٤ ـ يأتي المقصر يوم القيامة بثلاثة أشياء :

أولها ـ الحسرة على التفريط في الطاعة ، وأنه ما كان إلا من المستهزئين بالقرآن وبالرسول وبأولياء الله المؤمنين في الدنيا.

ثانيها ـ التعلل بفقد الهداية ، وهذا قريب من احتجاج المشركين فيما أخبر الله عنه : ﴿**سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا : لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا ، وَلا آباؤُنا ، وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ**﴾ [الأنعام ٦ / ١٤٨] فهي كلمة حق أريد بها باطل.

ثالثها ـ تمني الرجعة إلى الدنيا ، كما قال : ﴿حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ : رَبِّ ارْجِعُونِ ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ ، كَلَّا ، إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها﴾ [المؤمنون ٢٣ / ٩٩ ـ ١٠٠].

٥ ـ أجاب الله تعالى عن كلامهم بأن قال : التعلل بفقد الهداية باطل ، لأن الهداية كانت حاضرة ، والأعذار زائلة ، ولكن العبد كذب بالقرآن ، وتكبر عن اتباع آياته ، وكان من الكافرين بها ، الجاحدين لها.

حال المشركين المكذبين وحال المتقين يوم القيامة

﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)﴾

الإعراب :

﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ الَّذِينَ﴾ : مفعول ﴿تَرَى﴾ و ﴿وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ : جملة اسمية في موضع نصب على الحال ، واستغني عن الواو لمكان الضمير في قوله : ﴿وُجُوهُهُمْ﴾. ولو نصب ﴿وُجُوهُهُمْ﴾ على البدل من ﴿الَّذِينَ﴾ لكان جائزا حسنا.

﴿لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ حال ، أو استئناف لبيان المفازة.

المفردات اللغوية :

﴿كَذَبُوا عَلَى اللهِ﴾ بنسبة الولد والشريك إليه ﴿وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ لما ينالهم من الشدة ، ويعتريهم من الذل والحسرة ﴿مَثْوىً﴾ مقام أو مأوى ﴿لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان والطاعة. والاستفهام : ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ تقرير وإثبات لأنهم يرون كذلك.

﴿وَيُنَجِّي اللهُ﴾ من جهنم ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك الذي هو الكذب على الله ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بفوزهم بالجنة وفلاحهم ، بأن يجعلوا في الجنة ، وتفسيرها بالسعادة والعمل الصالح إطلاق لها على السبب ، فإن سبب منجاتهم العمل الصالح ، ويجوز أن يسمى العمل الصالح بنفسه مفازة ، لأنه سببها.

المناسبة :

بعد وعيد المشركين بما سبق من أهوال القيامة ، ووعد المتقين بالعفو والمغفرة والنعيم ، ذكر الله تعالى نوعا آخر من الوعيد والوعد ، وهو حال الفريقين يوم القيامة ، حال المكذبين ، وحال المتقين ، فتسودّ وجوه الفريق الأول ، وتبيضّ وجوه الفريق الثاني.

التفسير والبيان :

﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي واذكر أيها الرسول خبرا مهما هو حين ترى يوم القيامة الذين كذبوا على الله في دعواهم له شريكا وصاحبة وولدا ، وجوههم مسودة بكذبهم وافترائهم ، لما أحدق بهم من شدة وحزن وكآبة ، ولما شاهدوه من العذاب وغضب الله ونقمته.

إن في جهنم مسكنا ومقاما للمتكبرين عن طاعة الله ، الذين أبوا الانقياد للحق. والكبر : هو بطر الحق وغمط الناس ، كما في الحديث الصحيح. وفي حديث آخر أخرجه أحمد والترمذي عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «يحشر المتكبرون يوم القيامة كأمثال الذّرّ في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سجن في جهنم ..».

﴿وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ ، لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا حال الفريق الآخر في مواجهة فريق المشركين المكذبين ، وهو أن الله ينجي الذين اتقوا الشرك ومعاصي الله من عذاب جهنم ، ينجيهم بفوزهم ، أي بنجاتهم

من النار ، وفوزهم بالجنة ، وينفي السوء والحزن عنهم يوم القيامة ، بل هم آمنون من كل فزع.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيتان على شيئين :

الأول ـ اسوداد وجوه الكفار المشركين الذين كذبوا على الله بنسبة الشريك والولد إليه ، مما أحاط بهم من غضب الله ونقمته ، والزج بهم في نار جهنم ، في أشد حالات الذل والمهانة والصغار.

الثاني ـ نجاة المتقين الشرك والمعاصي من النار ، وفوزهم بالجنة. والآية الثانية في شأنهم تدل على أن المؤمنين لا ينالهم الخوف والرعب يوم القيامة ، وتأكد هذا بقولهم : ﴿**لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ**﴾ [الأنبياء : ٢١ / ١٠٣].

وقد فسر النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية في حديث أبي هريرة ، قال : «يحشر الله مع كل امرئ عمله ، فيكون عمل المؤمن معه في أحسن صورة ، وأطيب ريح ، فكلما كان رعب أو خوف ، قال له : لا ترع ، فما أنت بالمراد به ، ولا أنت بالمعنيّ به ، فإذا كثر ذلك عليه قال : فما أحسنك! فمن أنت؟ فيقول : أما تعرفني؟ أنا عملك الصالح ، حملتني على ثقلي ، فو الله لأحملنك ، ولأدفعنّ عنك ، فهي التي قال الله : ﴿**وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ ، لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾.

دلائل الألوهية والتوحيد

﴿اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾

الإعراب :

﴿أَفَغَيْرَ اللهِ﴾؟ «غير» : إما منصوب ب ﴿أَعْبُدُ﴾ أي أعبد غير الله فيما تأمروني به ، وإمّا منصوب ب ﴿تَأْمُرُونِّي﴾ لأنه يقتضي مفعولين : الثاني منهما بحرف جر ، كقولك : أمرتك الخير ، أي بالخير. فالياء : هي المفعول الأول ، وغير : مفعول ثان. وأعبد : في موضع البدل من «غير» تقديره : أتأمروني بغير الله أن أعبد.

﴿بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ اللهَ﴾ : منصوب باعبد أو منصوب بتقدير فعل ، أي بل اعبد الله فاعبد. والفاء : زائدة عند الأخفش ، وغير زائدة عند غيره.

﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ .. الْأَرْضُ﴾ : مبتدأ ، و ﴿قَبْضَتُهُ﴾ : خبره ، و ﴿جَمِيعاً﴾: حال.

البلاغة :

﴿لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ استعارة ، شبه الخيرات والبركات والأرزاق بخزائن ، واستعار لها لفظ المقاليد أي المفاتيح ، والمعنى : خزائن رحمته وفضله بيده تعالى.

﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ استعارة تمثيلية ، مثّل لعظمته وكمال قدرته وحقارة السموات والأرض بالنسبة للقدرة بمن قبض شيئا عظيما بكفه ، وطوى السموات بيمينه بطريق الاستعارة التمثيلية.

المفردات اللغوية :

﴿اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من خير وشر وإيمان وكفر ﴿وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ قيّم يتولى التصرف فيه ﴿لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ مفاتيح خزائنها من المطر والنبات وغيرهما ، لا يملك أمرها ولا يتمكن من التصرف فيها غيره ، وهو كناية عن قدرته وحفظه لها ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ﴾ القرآن ودلائل قدرة الله ﴿أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ أنفسهم ، وهذا عائد على فريق المكذبين الذين نسبوا لله ولدا وشريكا ، وما قبله اعتراض للدلالة على أنه مهيمن على العباد ، مطلع على أفعالهم ، مجاز عليها.

﴿قُلْ : أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ﴾ أي أفغير الله أعبد بعد هذه الدلائل والمواعيد ، و ﴿تَأْمُرُونِّي﴾ اعتراض للدلالة على أنهم أمروه به عقيب ذلك. وقرئ ﴿تَأْمُرُونِّي﴾ بتخفيف النون ، مثل : ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي تبشرونني.

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾. كلام على سبيل الفرض ، والمراد به تهييج الرسل ، وإقناط الكفرة ، وتنبيه الأمة. وأفرد الخطاب : باعتبار كل واحد. واللام الأولى : موطئة للقسم ، والأخيرتان للجواب. وعطف الخسران على إحباط : الأعمال : من عطف المسبب على السبب. و ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ ليذهبن هباء منثورا. والإحباط : الإبطال.

﴿بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ ..﴾ رد لما أمروه به ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ إنعامه عليك ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ما عظّموه حق التعظيم اللائق به ، حيث جعلوا له شريكا ووصفوه بما لا يليق به ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً﴾ أي الأراضي السبع ﴿قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ مقبوضة له في ملكه وتصرفه ، والقبضة : المرة من القبض ﴿وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ مجموعات بقدرته. وهذه الآية تنبيه على عظمة الله وكمال قدرته وحقارة الأجرام العظام بالنسبة لقدرته ، وفيها دلالة على أن تخريب العالم أهون شيء عليه. والآية على طريقة التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولا مجازا ، كما ذكر الزمخشري والبيضاوي. ﴿سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه وتقدس وتعاظم الله عما يشركون معه ، فما أبعد ما ينسب إلى الله من الولد والشريك عن قدرته وعظمته. هذا واليمين تطلق على اليد ، وعلى القدرة والملك ، وعلى القوة : ﴿لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة ٦٩ / ٤٥] أي بالقوة والقدرة ، والمعنى لأخذنا قوته وقدرته. قال الشاعر :

إذا ما رايةٌ رفعت لمجدٍ تلقاها عرابةُ باليمينِ

سبب النزول :

نزول الآية (٦٤):

﴿قُلْ : أَفَغَيْرَ اللهِ ..﴾؟ : أخرج البيهقي في الدلائل عن الحسن البصري قال : قال المشركون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : أتضلل آباءك وأجدادك يا محمد؟ فأنزل الله : ﴿قُلْ : أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ إلى قوله : ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى عبادة آلهتهم ، ويعبدوا معه إلهه ، فنزلت : ﴿قُلْ: أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ ..﴾ الآية.

نزول الآية (٦٧):

﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ : أخرج الترمذي وصححه عن ابن عباس قال : مرّ يهودي بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذه . أي على إصبع . ، والأرضين على ذه . أي على إصبع . ، والماء على ذه . أي على إصبع . ، والجبال على ذه . أي على إصبع . ، فأنزل الله : ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : غدت اليهود ، فنظروا في خلق السموات والأرض والملائكة ، فلما فزعوا أخذوا يقدرونه ، فأنزل الله : ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

وأخرج ابن المنذر عن الربيع بن أنس قال : لما نزلت : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ قالوا : يا رسول الله ، هذا الكرسي ، فكيف العرش؟ فأنزل الله : ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ ..﴾ الآية.

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى الوعد والوعيد يوم القيامة لأهل التوحيد وأهل

الشرك ، عاد إلى تبيان دلائل الألوهية والتوحيد. ثم نعى على الكافرين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعبادة الأصنام ، وأنهم لم يعرفوا الله حق المعرفة ، إذ لو عرفوه لما جعلوا الجمادات شركاء له في العبودية.

التفسير والبيان :

﴿اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي إن الله تعالى هو مبدع الأشياء كلها وخالقها جميعها ، الموجودة في الدنيا والآخرة ، لا فرق بين شيء وآخر ، وهو ربها ومالكها والمتصرف فيها والقائم بحفظها وتدبيرها ، فهي محتاجة إليه في وجودها وبقائها معا. وهذا دليل على أن أعمال العباد مخلوقة لله.

﴿لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو مالك أمرها وحافظها ، وهذا استعارة لملكه خيراتها وأرزاقها ، أو كناية عن انفراده تعالى بحفظها وتدبيرها وملك مفاتيحها ، لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي يملك مقاليدها ، أي مفاتيحها. وهذه الجملة تأكيد للجملة السابقة : ﴿وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أو عطف بيان ، أو تعليل لها ، ورأى بعضهم أنها جملة مستأنفة.

والمعنى الجامع للجملتين : أن السلطان والملك ، والتصرف في كل شيء ، والتدبير والحفظ هو لله تعالى.

وروى ابن أبي حاتم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه «أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن تفسير قوله تعالى : ﴿لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ فقال : ما سألني عنها أحد قبلك يا عثمان ، تفسيرها : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، وبحمده ، أستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، بيده الخير ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير ..» يعني أن قائل ذلك تفتح له خزائن السموات والأرض ، ويصيبه خير كثير ، وأجر كبير.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ أي والذين جحدوا آيات الله في القرآن وبراهينه في الأكوان الدالة على وحدانية الله وعظيم قدرته وأنه مالك السموات والأرض ومدبرهما ، أولئك هم الذين خسروا أنفسهم ، وخلدوا في نار جهنم ، جزاء كفرهم.

ثم أمر الله رسوله بتوبيخ المشركين على الدعوة لعبادة الأصنام ، فقال :

﴿قُلْ : أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ﴾ أي قل أيها الرسول لكفار قومك الذين دعوك إلى عبادة الأصنام قائلين : هو دين آبائك : أتأمروني أيها الجهلة بعبادة غير الله بعد أن قامت الأدلة القطعية على تفرده بالألوهية ، فهو خالق الأشياء كلها وربها ومدبرها ، فلا تصلح العبادة إلا له سبحانه.

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ، وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ أي إن أمركم لعجيب ، فلقد أوحي إلي وإلى من قبلي من الرسل أن الإله المعبود هو الله وحده لا شريك له ، وأنه إذا أشرك نبي ـ على سبيل الفرض والتقدير ـ ليحبطن ويبطلن عمله ، وليكونن من الذين خسروا أنفسهم ، وضيعوا دنياهم وآخرتهم.

وإذا كان الشرك موجبا إحباط عمل الأنبياء فرضا ، فهو محبط عمل غيرهم بطريق الأولى ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ٨٨].

ثم انتقل من النهي عن الشرك إلى الأمر بعبادة الله وحده ، فقال تعالى :

﴿بَلِ ، اللهَ فَاعْبُدْ ، وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي أخلص العبادة لله وحده لا شريك له أنت ومن اتبعك وصدّقك ، واعبده وحده ، ولا تعبد معه أحدا سواه ، وكن من الشاكرين إنعامه عليك بالتوفيق والهداية للإيمان بالله وحده ، وتشريفك بالرسالة والدعوة إلى دين الله تعالى.

وبعد أن نعى الله تعالى ما أمر به المشركون نبيّ الله من عبادة الأوثان ، نعى عليهم أنهم لم يعرفوا الله حق المعرفة ، فقال :

﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عظموا الله حق تعظيمه ، وما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه إلها غيره ، وهو الذي لا أعظم ولا أقدر منه.

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : يا محمد ، إنا نجد أن الله ﷻ يجعل السموات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء والثرى على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع ، فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى بدت نواجذه ، تصديقا لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ...﴾ الآية.

وروى أحمد ومسلم عن ابن عمر ﷺ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر : ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول هكذا بيده ، يحركها يقبل بها ويدبر : يمجّد الرب نفسه ، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم. فرجف برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنبر حتى قلنا : ليخرّنّ به».

﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي والحال أن الأرض تحت تصرف الله وملكه ، والسموات خاضعة لقدرته وسلطانه ومشيئته وإرادته ، تنزه وتقدس الله عما يشركون به من المعبودات التي جعلوها شركاء لله ، فالمراد باليمين : القدرة.

وهذه الجملة في رأي الخلف تمثيل لحال عظمة الله تعالى وكمال تصرفه ونفاذ

قدرته بحال القابض على الأرض كلها والسموات جميعها. ويرى السلف وجوب الإيمان بهذه الظواهر ، والاعتقاد بالقبضة واليمين ، لأن الأصل في الكلام حمله على الحقيقة ، ويقولون : رأي السلف أسلم ، ورأي الخلف أحكم. وإني أميل إلى الأسلم.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ ، سمعت رسول الله يقول : «يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض؟».

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ إن الله تعالى خالق الأشياء كلها ، ومنها أعمال العباد.

٢ ـ إن الله سبحانه هو القائم بحفظ الأشياء وتدبيرها من غير مشارك ، وهو سبحانه مالك أمر السموات والأرض وحافظها ، وهذا التعبير من باب الكناية ، لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي بيده مقاليدها.

٣ ـ إن الذين كفروا بالقرآن والحجج والدلالات الدالة على وجود الله ووحدانيته وكمال عظمته وقدرته هم الخاسرون أنفسهم في الدنيا والآخرة. وصريح الآية يقتضي أنه لا خاسر إلا كافر.

٤ ـ من العجب العجاب صدور أمرين من المشركين : أولهما ـ أن يطلبوا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم عبادة أصنامهم ، ليعبدوا معها إلهه. وثانيهما ـ أنهم لم يعرفوا الله حق المعرفة ، ولم يعظموه حق التعظيم ، إذ عبدوا معه غيره ، وهو خالق الأشياء ومالكها.

٥ ـ وصف الله تعالى المشركين بالجهل ، لأنهم لم يتفكروا بخالق الأشياء

ولا بكونه مالكا لمقاليد السموات والأرض ، وعبدوا أصناما جمادات لا تضر ولا تنفع ، ومن فعل مثل ذلك فهو في غاية الجهل.

٦ ـ إن الشرك والكفر محبط مبطل لجميع أعمال الكفار والمشركين ، ولو كانت صالحة ، فلا ثواب لهم عليها في الآخرة ، بسبب أرضية الكفر التي قامت عليها.

ومن ارتد أيضا ومات على الكفر ، لم تنفعه طاعاته السابقة ، وحبطت أعماله كلها ، لقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ، فَيَمُتْ وَهُوَ كافِرٌ ، فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة ٢ / ٢١٧]. وعليه من حج ثم ارتد ثم عاد إلى الإسلام لا يجب عليه إعادة الحج.

٧ ـ السموات والأرض كلها تحت ملك الله وقدرته وتصرفه ، وليس ذلك بجارحة لأنه نزه نفسه عنها فقال : ﴿سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه وتقدس عن أن تجعل الأصنام شركاء له في المعبودية.

نفختا الصور والفصل في الخصومات وإيفاء كل واحد حقه

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَوُضِعَ الْكِتابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ (٧٠)﴾

الإعراب :

﴿يَنْظُرُونَ﴾ حال من ضميره.

البلاغة :

﴿يَنْظُرُونَ يُظْلَمُونَ يَفْعَلُونَ﴾ بينها توافق الفواصل في الحرف الأخير ، مما يوحي بروعة البيان وكمال الجمال.

المفردات اللغوية :

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ النفخة الأولى التي يموت بها الخلائق كلهم ، و ﴿الصُّورِ﴾ بوق أو قرن ينفخ فيه ﴿فَصَعِقَ﴾ مات أو غشي عليه ﴿إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ﴾ قيل : جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فإنهم يموتون بعد ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى﴾ النفخة الثانية للبعث من القبور ﴿فَإِذا هُمْ﴾ جميع الخلائق الموتى ﴿قِيامٌ﴾ قائمون من قبورهم ﴿يَنْظُرُونَ﴾ ينتظرون ما يفعل بهم.

﴿وَأَشْرَقَتِ﴾ أضاءت ﴿بِنُورِ رَبِّها﴾ بما أقام فيها من العدل ، وما قضى به من الحق ﴿وَوُضِعَ الْكِتابُ﴾ وضع كتاب الأعمال أو صحائف الأعمال للحساب ﴿وَالشُّهَداءِ﴾ الذين يشهدون للأمم وعليهم من الملائكة والمؤمنين ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِ﴾ وقضي بين العباد بالعدل ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ شيئا ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ﴾ وصلت كل نفس إلى حقها ، وحصلت على الجزاء ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ عالم ﴿بِما يَفْعَلُونَ﴾ فلا يحتاج إلى شاهد.

المناسبة :

بعد بيان أدلة عظمة الله وكمال قدرته بتصرفه في الكون وتدبيره ، وخلقه كل شيء ، ذكر الله تعالى مقدمات يوم القيامة الدالة أيضا على تمام القدرة وعظمة السلطان ، وهي نفختا الصور مرتين ، الأولى للإماتة ، والثانية للبعث من القبور ، ثم الفصل بالحق والعدل بين الخلائق للحساب والجزاء ، وإيصال الحق إلى كل واحد.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن هول يوم القيامة وما فيه من الآيات العظيمة الباهرة الدالة على كمال القدرة وتمام العظمة الإلهية ، فيقول :

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ، فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى ، فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ﴾ أي هذه هي النفخة الأولى للموت ، حيث ينفخ إسرافيل في الصور الذي هو بوق أو قرن ، فيموت من الفزع وشدة الصوت أهل السموات والأرض ، والصعق : الموت في الحال.

إلا من شاء الله ألا يموت حينئذ كجبرائيل وميكائيل وإسرافيل نفسه الذين يموتون بعد ذلك. قال قتادة : لا ندري من هم؟.

ثم ينفخ فيه نفخة أخرى للبعث من القبور ، فيقوم الخلق كلهم أحياء على أرجلهم ينظرون أهوال القيامة وما يقال لهم أو ينتظرون ما يفعل بهم ، بعد أن كانوا عظاما ورفاتا ، كما قال تعالى : ﴿فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ ، فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات ٧٩ / ١٣ ـ ١٤] وقال سبحانه : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ، فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ، وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء ١٧ / ٥٢] وقال جل وعلا : ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ ، إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم ٣٠ / ٢٥].

ثم ذكر الله تعالى بعض أحوال يوم القيامة :

١ ـ ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها﴾ أي أضاءت أرض المحشر وأنارت بتجلي الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء ، وبما أقامه الله من العدل بين أهلها ، وما قضى به من الحق بين عباده.

٢ ـ ﴿وَوُضِعَ الْكِتابُ﴾ أي وضعت كتب وصحائف أعمال بني آدم بين

يدي أصحابها ، إما باليمين وإما بالشمال ، كما قال تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً﴾ [الإسراء ١٧ / ١٣] وقال سبحانه : ﴿ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها﴾ [الكهف ١٨ / ٤٩].

٣ . ٤ : ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ﴾ أي وجيء بالأنبياء إلى الموقف ، ليسألوا عما أجابتهم به أممهم ، كما قال تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً﴾ [النساء ٤ / ٤١] وجيء أيضا بالشهود الذين يشهدون على الأمم من الملائكة الحفظة التي تقيد أعمال العباد كما قال تعالى : ﴿وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق ٥٠ / ٢١] والسائق : يسوق للحساب ، والشهيد يشهد عليها ، وكذا من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذين يشهدون على الأمم بما بلغتهم به رسلهم ، كما قال تعالى : ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة ٢ / ١٤٣].

وكذلك يجاء بالشهداء المؤمنين الذين استشهدوا في سبيل الله ، فيشهدون يوم القيامة بالبلاغ على من بلّغوه ، فكذّب بالحق.

وبعد فصل الخصومات ، بيّن تعالى أنه يوصل إلى كل شخص حقه ، فقال معبرا عن هذا المعنى بأربع عبارات :

١ . ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِ﴾ أي وقضي بين العباد بالعدل والصدق.

٢ . ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقصون من ثوابهم ، ولا يزاد في عقابهم ، ويكون جزاؤهم على قدر أعمالهم ، كما قال تعالى : ﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ ، فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ، أَتَيْنا بِها ، وَكَفى بِنا حاسِبِينَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٤٧] وقال سبحانه : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها ، وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء ٤ / ٤٠]

٣ . ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ﴾ أي وفيت وأعطيت كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر.

٤ . ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ﴾ أي والله عالم بما يفعل العباد في الدنيا ، من غير حاجة إلى كاتب ولا حاسب ولا شاهد ، وإنما وضع الكتاب ، وجيء بالنبيين والشهداء لتكميل الحجة ، وقطع المعذرة. وأتى بهذا الحكم للدلالة على أنه تعالى يقضي بالحق عن علم تام ، فلا يحتمل وجود أي خطأ في ذلك الحكم. والمقصود : بيان أن كل مكلف يصل إلى حقه.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ . يكون يوم القيامة نفختان : النفخة الأولى منهما يموت بها الخلق ، ويحيون في الثانية. والذي ينفخ في الصور هو إسرافيل عليه السلام . وقد قيل : إنه يكون معه جبريل ، لحديث ابن ماجه في السنن عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إن صاحبي الصور بأيديهما قرنان يلاحظان النظر ، متى يؤمران» وحديث أبي داود عن أبي سعيد الخدري أيضا قال : «ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الصور ، وقال : عن يمينه جبرائيل ، وعن يساره ميكائيل».

٢ . اختلف في المستثنى من هم؟ فقيل : هم الشهداء متقلّدين أسيافهم حول العرش ، لحديث مرفوع عن أبي هريرة ذكره القشيري ، وحديث عبد الله بن عمر الذي ذكره الثعلبي. وقيل : إنهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام ، لحديث أنس الذي ذكره الثعلبي والنحاس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تلا : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ، فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ﴾ فقالوا : يا نبيّ الله من هم الذين استثنى الله تعالى؟ قال : «هم جبريل وميكائيل

وإسرافيل وملك الموت» ثم ذكر أنه يؤمر جبريل بإماتة نفس إسرافيل وميكائيل وملك الموت ، ثم يميت الله جبريل ، ففي هذا الحديث : «إن آخرهم موتا جبريل عليه و عليهم السلام».

قال القرطبي : وحديث أبي هريرة في الشهداء أصح. وقال قتادة : الله أعلم بثنياه ، أي استثنائه.

٣ ـ يكون البعث : بأن يبعث الأموات من أهل الأرض والسماء أحياء من قبورهم ، وتعاد إليهم أبدانهم وأرواحهم ، فيقومون ينظرون ، ماذا يؤمرون ، أو ينتظرون ما يفعل بهم.

٤ ـ تستنير أرض المحشر وتضيء بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده ، والظلم ظلمات ، والعدل نور. أو إنها تستنير بنور خلقه الله تعالى ، فيضيء به الأرض.

وقال أبو جعفر النحاس : وقوله عزوجل : ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ يبين هذا الحديث المرفوع من طرق كثيرة صحاح : «تنظرون إلى الله عزوجل ، لا تضامّون في رؤيته» [1] أي لا يلحقكم ضيم كما يلحقكم في الدنيا في النظر إلى الملوك.

٥ ـ إن أحوال الحكم والقضاء سبع : أن يوضع كتاب الأعمال بين آخذ بيمينه وآخذ بشماله ، ويجاء بالنبيين والشهداء ، فيسألون عما أجابت الأمم أنبياءها ، ويقضى بين الناس بالصدق والعدل ، ولا يظلمون ، فلا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم ، وتوفى كل نفس ما عملت من خير أو شر ، والله أعلم بما فعلت كل نفس في الدنيا.

---

(١) وهو يروى على أربعة أوجه : لا تضامون ، ولا تضارون ، ولا تضامّون ، ولا تضارّون. أي لا يلحقكم ضير.

أحوال أهل العقاب وأهل الثواب

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا بَلى وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ (٧٣) وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٧٥)﴾

الإعراب :

﴿حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ﴾ (٧٣) جواب ﴿إِذا﴾ : إما محذوف تقديره : حتى إذا جاءوها فازوا أو نعموا ، والواو فيه للحال بتقدير : قد ، أو قوله تعالى : ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوابُها﴾ والواو زائدة ، تقديره : حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ، أو قوله : ﴿وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها﴾ والواو زائدة ، تقديره : حتى إذا جاءوها قال لهم خزنتها. والوجه الأول أوجه.

﴿طِبْتُمْ﴾ حال.

﴿حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ حَافِّينَ﴾ : حال ، لأن المراد ب ﴿تَرَى﴾ رؤية البصر لا رؤية القلب. وواحد حافين : حاف. وقال الفراء : هذا لا واحد له ، لأن هذا الاسم لا يقع لهم إلا مجتمعين.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ الجملة حال ثانية.

البلاغة :

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً﴾ مقابلة بينهما ، قابل بين حال السعداء وحال الأشقياء. والمقابلة كما تقدم : أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب.

﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ وضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على اختصاص ذلك بالكفرة.

﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ استعارة ، تشبيها بحال الوارث وتصرفه في إرثه.

المفردات اللغوية :

﴿وَسِيقَ﴾ من السوق : وهو الحث على السير بعنف وشدة وإزعاج ، بقصد الإهانة والاحتقار ﴿زُمَراً﴾ الزمر : جماعات أو أفواجا متفرقة مرتبة ، بعضها إثر بعض ، بمقدار تفاوتهم في الضلالة والشر ﴿فُتِحَتْ أَبْوابُها﴾ ليدخلوها ، وهو جواب إذا ، وفتح أبواب جهنم عند مجيئهم ليبقى حرها إليهم ، إهانة لهم. ﴿وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها﴾ تقريعا وتوبيخا ﴿رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ من جنسكم ﴿آياتِ رَبِّكُمْ﴾ القرآن وغيره ﴿وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا﴾ ويخوفونكم وقتكم هذا ، وهو وقت دخولهم النار ، قال البيضاوي : وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع ، من حيث إنهم عللوا توبيخهم بإتيان الرسل وتبليغ الكتب. ﴿وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ وجبت عليهم كلمة الله بالعذاب ، وهو الحكم عليهم بالشقاوة بسبب أعمالهم ، وأنهم من أهل النار ، وقيل : هو قوله تعالى : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود ١١ / ١١٩].

﴿قِيلَ : ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ﴾ أبهم القائل لتهويل ما يقال لهم ﴿خالِدِينَ فِيها﴾ ماكثين فيها على الدوام ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللام فيه للجنس ، والمخصوص بالذم محذوف سبق ذكره ، أي بئس المأوى جهنم ، وهذا دليل على أن تكبرهم عن الحق سبب لدخول النار.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً﴾ أي أسرع بهم بلطف إلى دار الكرامة جماعات ، على تفاوت مراتبهم في الشرف وعلو الطبقة ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوابُها﴾ أي والحال أنه قد فتحت لهم الأبواب قبل مجيئهم تكريما وتعظيما ، وحذف جواب ﴿إِذا﴾ للدلالة على أن لهم حينئذ من الكرامة والتعظيم ما لا يحيط به الوصف ، وأن أبواب الجنة تفتح لهم قبل مجيئهم منتظرين استقبالهم ، والجواب المقدر : دخلوها ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ لا يعتريكم بعد مكروه ﴿طِبْتُمْ﴾ طهرتم من دنس المعاصي

﴿فَادْخُلُوها خالِدِينَ﴾ أي مخلدين فيها على الدوام أو مقدّرين الخلود ، والفاء للدلالة على ان ﴿طِبْتُمْ﴾ سبب لدخولهم وخلودهم ، وهو لا يمنع دخول العاصي بعفوه تعالى ، لأنه يطهره.

﴿وَقالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عطف على الفعل المقدر جوابا ل ﴿إِذا﴾ وهو : دخلوها ﴿صَدَقَنا وَعْدَهُ﴾ بالبعث والثواب والجنة ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ أي أرض الجنة ، يريدون المكان الذي استقروا فيه ، وقد أورثوها ، أي ملكوها وجعلوا ملاكها ، وأطلق تصرفهم فيها كما يشاءون ، تشبيها بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه ، على سبيل الاستعارة ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ ننزل ﴿مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ﴾ ننزل في أي مقام أردنا من الجنة الواسعة ، مع أن في الجنة مقامات معنوية لا يتمانع واردوها ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ﴾ الجنة.

﴿حَافِّينَ﴾ محدقين من حول العرش ومحيطين حوله. ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ من كل جانب. و ﴿مِنْ﴾ مزيدة ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ينزهون ربهم من كل نقص ، ملتبسين بحمده ، قائلين : سبحان الله وبحمده ، والجملة حال ثانية أو مقيدة للأولى ، والمعنى : ذاكرين له بوصفي جلاله وإكرامه تلذذا به. وفيه إشعار بأن منتهى درجات العليين وأعلى لذائذهم هو الاستغراق في صفات الحق.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِ﴾ حكم بين جميع الخلائق بالعدل ، فيدخل المؤمنون الجنة ، والكافرون النار ﴿وَقِيلَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أي على ما قضى بيننا من الحق ، والقائلون هم المؤمنون المقضي بينهم ، أو الملائكة ، وقد طوي ذكرهم لتعينهم وتعظيمهم. والخلاصة : لقد ختم استقرار الفريقين بالحمد لله.

المناسبة :

بعد بيان أحوال أهل القيامة مجملا ، بقوله تعالى : ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ﴾ أبان الله تعالى بالتفصيل أحوال أهل العقاب وأحوال أهل الثواب ، ثم وصف ذلك الموكب المهيب موكب الملائكة المحدقين الحافين حول العرش ، الذين يسبحون بحمد ربهم ، ينزهونه عن النقائص ، ويشكرونه ، ويقولون بعد استقرار الفريقين في الجنة والنار : الحمد لله رب العالمين على ما أنعم به ، وقضى بالحق بين الخلائق.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن حال الأشقياء الكفار ، كيف يساقون إلى النار ، فيقول :

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً﴾ أي يساق الكافرون بربهم إلى النار ، سوقا عنيفا بزجر وتهديد ووعيد ، جماعات متفرقة مرتبة ، بعضها إثر بعض ، لكل جماعة قائد : هو رأسهم في الكفر وداعيتهم إليه. ونظير الآية : ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور ٥٢ / ١٣] أي يدفعون إليها دفعا.

﴿حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها﴾ أي حتى إذا وصلوا إليها ، فتحت لهم أبوابها السبعة سريعا ليدخلوها ولتعجل لهم العقوبة ، ويختصوا بنارها.

﴿وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها : أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ ، وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا﴾؟ أي وقال لهم خزنتها من الملائكة الزبانية الأشداء القوى حفظة النار والقائمين عليها ، على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل : ألم يأتكم رسل من جنسكم وأنفسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم ، يتلون عليكم آيات ربكم التي أنزلها لإقامة الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه ، ويحذرونكم من شر هذا اليوم ، ويخوفونكم لقاء هذا اليوم الذي صرتم إليه.

﴿قالُوا : بَلى ، وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ أي أجابهم الكفار معترفين قائلين لهم : بلى ، قد جاءونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين ، ولكن كذبناهم وخالفناهم ، ووجبت كلمة العذاب على من كفر بالله وأشرك ، وهي قوله تعالى : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود ١١ / ١١٩].

ونظير الآية : ﴿كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها : أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ، قالُوا : بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ ، فَكَذَّبْنا وَقُلْنا : ما نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي

ضَلالٍ كَبِيرٍ ، وَقالُوا : لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك ٦٧ / ٨ . ١٠].

وبعد هذا الإقرار أجيبوا بإصدار حكم الجزاء ، فقال تعالى :

﴿قِيلَ : ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها ، فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي تقول لهم الملائكة الحفظة على النار : ادخلوا في أبواب جهنم التي فتحت لكم ، مقدّرا لكم فيها من قبل الله الخلود والبقاء ، ماكثين فيها إلى الأبد ، لا خروج لكم منها ، ولا زوال لكم عنها ، فبئس المسكن الدائم جهنم ، بسبب تكبركم في الدنيا عن اتباع الحق ، فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه.

وإنما أبهم القائل وأطلق ، ولم ينسب إلى قائل معين ، ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه ، بما حكم العدل الخبير عليهم به.

ثم يخبر الله تعالى عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون إلى الجنة مكرّمين ، فيقول :

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً﴾ أي وتسوق الملائكة المؤمنين بإعزاز وتشريف وتكريم وفدا إلى الجنة ، جماعة بعد جماعة : المقربون ، فالأبرار ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كل طائفة مع أمثالهم : الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع الصديقين ، والشهداء مع بعضهم ، والعلماء مع أقرانهم.

﴿حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها﴾ أي حتى إذا وصلوا إلى أبواب الجنة الثمانية ، بعد مجاوزة الصراط ، واقتص لهم من مظالم الدنيا ، وكانت قد فتحت أبوابها لاستقبالهم بالحراس.

ثبت في صحيح مسلم عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «أنا أول شفيع في الجنة» وفي لفظ : «وأنا أول من يقرع باب الجنة».

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «يدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون ألفا تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر ، فقام عكاشة بن محصن ، فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : اللهم اجعله منهم ، ثم قام رجل من الأنصار ، فقال : يا رسول الله ، ادع الله تعالى أن يجعلني منهم ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : سبقك بها عكاشة».

وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ ، أو فيسبغ الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء».

وأخرج البخاري ومسلم عن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «إن في الجنة ثمانية أبواب ، باب منها يسمّى الريان ، لا يدخله إلا الصائمون».

وروى أحمد عن الحسن عن معاذ ﷺ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «مفاتيح الجنة : شهادة أن لا إله إلا الله».

﴿**وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها : سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ، فَادْخُلُوها خالِدِينَ**﴾ أي وقال خزنة الجنة للمؤمنين : سلامة لكم من كل آفة ومكروه ، طابت أعمالكم وأقوالكم وطاب سعيكم في الدنيا ، فلم تتدنسوا بالشرك والمعاصي ، وطاب جزاؤكم في الآخرة ، كما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن ينادى بين المسلمين في بعض الغزوات فيما رواه أحمد والترمذي والحاكم عن علي : «لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ـ أو مؤمنة» فادخلوا الجنة ماكثين فيها أبدا ، لا زوال ولا تحول عنها ، ولا موت ولا فناء فيها.

﴿**وَقالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ ، نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ**﴾ أي وقال المؤمنون الأتقياء الذين عملوا

الصالحات إذا عاينوا الجنة وما فيها من نعيم مقيم وثواب وافر : الحمد والشكر لله العظيم الذي أنجزنا وعده بالبعث والثواب بالجنة ، والذي وعدنا به على ألسنة رسله الكرام ، كما دعوا في الدنيا : ﴿رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ ، وَلا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ ، إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ﴾ [آل عمران ٣ / ١٩٤] ، ﴿وَقالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ، إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ، الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ، لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ﴾ [فاطر ٣٥ / ٣٤ ـ ٣٥].

وجعلنا ملاك الجنة المتصرفين فيها ، نرث أرض الجنة ، كأنها صارت من غيرهم إليهم ، فملكوها وتصرفوا فيها ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٠٥].

وأين شئنا حللنا ، نتخذ في الجنة من المنازل ما نشاء حيث نشاء ، فنعم الأجر أجرنا على عملنا ، ونعم أجر العاملين : الجنة. جاء في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه في قصة المعراج ، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «أدخلت الجنة ، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ [١] ، وإذا ترابها المسك».

ثم أخبر الله تعالى عن حال الملائكة المحدقين حول العرش ، فقال :

﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ، وَقِيلَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أي وترى أيها السعيد المؤمن جماعات الملائكة محيطين محدقين بالعرش المجيد ، يسبّحون الله (ينزهون الله عن كل نقص وجور) ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه ، ويحمدونه ويشكرونه على أفضاله ونعمه ، قائلين : سبحان الله وبحمده.

---

(١) أي قباب اللؤلؤ ، مفرده جنبذة : وهي ما ارتفع من الشيء واستدار كالقبة ، يقال : مكان مجنبذ : مرتفع (لسان العرب).

والحال أيضا أنه قد قضي بين العباد بالعدل ، فأدخل بعضهم الجنة ، وبعضهم النار ، ونطق المؤمنون والملائكة والكون أجمعه بالحمد والشكر لله ربّ العالمين من الإنس والجن ، في حكمه وعدله وقضائه بين المؤمنين وبين أهل النار بالحق المطلق الذي لا خطأ فيه.

وأبهم القائل وأطلق هنا كالسابق للدلالة على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد. قال قتادة : افتتح الخلق بالحمد في قوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام ٦ / ١] ، واختتم بالحمد في قوله تبارك وتعالى : ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ، وَقِيلَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾.

ويلاحظ أن المؤمنين حمدوا ربّهم أولا على إنجاز وعده ووراثتهم أرض الجنة ، يتبوّءون منها حيث يشاءون ، وحمدوه ثانيا على القضاء بالحق ، والحكم بالعدل بين الناس جميعا.

فقه الحياة أو الأحكام :

أبانت الآيات ما يأتي :

١ ـ توفى كل نفس عملها ، فيساق الكافر إلى النار ، والمؤمن إلى الجنة.

٢ ـ يساق أهل النار إليها بسرعة وعنف ، إهانة لهم واحتقارا ، وهم حينذاك جماعات متفرقة بعضها إثر بعض ، وتفتح أبواب جهنم عند وصولهم إليها ، وتقول لهم سدنتها تقريعا وتوبيخا : ألم تأتكم الرسل من جنسكم لتبليغكم الكتب المنزلة عليكم ، وإنذاركم وتخويفكم لقاء وقتكم هذا؟

٣ ـ يجيب أهل النار : نقر ونعترف بقيام الحجة علينا بمجيء الرسل ، ولكن وجب العذاب على الكفار ، لقوله تعالى : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود ١١ / ١١٩].

٤ ـ دلّت هذه الآية : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ..﴾ على أنه لا تكليف ولا إيجاب لشيء من الشرائع والأحكام قبل مجيء الشرع ، لأن الملائكة بيّنوا أنه ما بقي للكفار علّة ولا عذر بعد مجيء الأنبياء عليهم السلام ، ولو لم يكن مجيء الأنبياء شرطا في استحقاق العذاب ، لما بقي في هذا الكلام فائدة.

٥ ـ تقول الملائكة بعد سماع جواب الكافرين : ﴿ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ ، خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

٦ ـ يقاد الأتقياء بلطف وإعزاز وإكرام ، من الشهداء والزهاد والعلماء والقرّاء وغيرهم ، ممن اتقى الله تعالى وعمل بطاعته ، ويؤتى بهم إلى الجنة ، فيجدون أبوابها مفتحة لهم : ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ ، مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ﴾ [صلى الله عليه وآله وسلم ٣٨ / ٥٠] ويذكر خزنة الجنة لأهل الثواب هذه الكلمات الثلاث :

الأولى ـ قولهم : ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ يبشّرونهم بالسلامة من كل الآفات.

الثانية ـ قولهم : ﴿طِبْتُمْ﴾ من دنس المعاصي وطهرتم من خبث الخطايا.

الثالثة ـ قولهم : ﴿فَادْخُلُوها خالِدِينَ﴾ والتعليل بالفاء يدلّ على كون ذلك الدخول معللا بالطيب والطهارة.

٧ ـ سبب التفرقة بين أهل النار وأهل الجنة في فتح الأبواب ، حيث فتحت أبواب النار بغير الواو ، وفتحت أبواب الجنة بالواو : هو احتقار الفريق الأول وتخصيصهم بالنار ، وإعزاز الفريق الثاني وإكرامهم بالاستقبال والاستعداد ، فلا تفتح أبواب النار إلا عند دخول أهلها فيها ، وتفتح أبواب الجنة قبل وصول أهلها إليها ، ولذلك جيء بالواو ، كأنه قيل : حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها.

٨ ـ إذا خاطبت الملائكة المتقين بالكلمات الثلاث السابقة ، قال المتقون عند

ذلك وبعد دخول الجنة : الحمد لله الذي صدقنا وعده بنعيم الجنة ، وأورثنا أرض الجنة ، فنعم ثواب المحسنين هذا الذي أعطيتنا.

٩ ـ يكون الملائكة في جوانب العرش وأطرافه ، قائلين : سبحان الله وبحمده ، متلذذين بذلك لا متعبدين به ، أي يصلون حول العرش شكرا لربهم ، بعد أن قضي بين أهل الجنة والنار بالعدل ، ويقول المؤمنون والملائكة ونحوهم : الحمد لله على ما أثابنا من نعمه وإحسانه ، ونصرنا على من ظلمنا. ويرى الرازي أن قوله : ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِ﴾ أي بين الملائكة ، وهو دليل على أنهم على درجات مختلفة ومراتب متفاوتة ، فلكل واحد منهم في درجات المعرفة والطاعة حدّ محدود لا يتجاوزه ولا يتعداه [١].

---

(١) تفسير الرازي : ٢٧ / ٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة غافر أو : المؤمن

مكيّة ، وهي خمس وثمانون آية.

تسميتها :

تسمى هذه السورة سورة غافر ، لافتتاحها بتنزيل القرآن من الله غافر الذنب وقابل التوب ، والغافر من صفات الله وأسمائه الحسنى. وتسمى أيضا سورة (المؤمن) ، لاشتمالها على قصة مؤمن آل فرعون.

مناسبتها لما قبلها :

تظهر مناسبه هذه السورة لما قبلها من ناحيتين :

الأولى ـ التشابه في الموضوع : فقد ذكر في كل من السورتين أحوال يوم القيامة وأحوال الكفار في يوم المحشر.

الثانية ـ الترابط بين خاتمة السورة السابقة ومطلع هذه السورة ، فقد ذكر في نهاية سورة الزمر أحوال الكفار الأشقياء والمتقين السعداء ، وافتتحت سورة غافر بأن الله غافر الذنب لحث الكافر على الإيمان وترك الكفر.

ومناسبة الحواميم السبع لسورة الزمر : تشابه الافتتاح بتنزيل الكتاب ورتبت الحواميم إثر بعضها ، لاشتراكها بفاتحة ﴿حم﴾ وبذكر ﴿الْكِتابِ﴾ بعد ﴿حم﴾ وأنها مكية ، بل ورد في حديث أنها نزلت جملة واحدة ، وفيها شبه من ترتيب ذوات (الراء) الست. ذكر السيوطي عن

ابن عباس وجابر بن زيد في ترتيب السور : أن الحواميم نزلت عقب الزمر ، وأنها نزلت متتاليات كترتيبها في المصحف : المؤمن ، ثم السجدة ، ثم الشورى ، ثم الزخرف ، ثم الدخان ، ثم الجاثية ، ثم الأحقاف ، ولم يتخللها نزول غيرها ، وذلك مناسبة واضحة لوضعها هكذا.

ويقال لها أيضا : آل حم ، قال عبد الله بن مسعود ﷺ : آل حم ديباج القرآن. وقال ابن عباس ﷺ : إن لكل شيء لبابا ، ولباب القرآن آل حم ، أو قال : الحواميم. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «لكل شيء ثمرة ، وإن ثمرة القرآن ذوات حم ، هنّ روضات حسان مخصبات متجاورات ، فمن أحبّ أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه في بعض الغزوات ـ فيما رواه أبو عبيد ـ : «إن بيّتم الليلة ، فقولوا : حم لا ينصرون ـ أو لا تنصرون».

وروى الحافظ أبو بكر البزار والترمذي عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «من قرأ آية الكرسي ، وأول حم المؤمن ، عصم ذلك اليوم من كل سوء».

مشتملاتها :

سورة غافر والحواميم السبع مكية ، فهي تعنى بأصول العقيدة كسائر السور المكية ، لذا جاءت آياتها عنيفة شديدة التأثير لإثبات وحدانية الله وتنزيل القرآن والبعث ، ووصف ملائكة العرش ، وإنهاء الصراع بين أهل الحق وبين أهل الباطل أو فريق الهدى وفريق الضلال.

وقد ابتدأت بإعلان تنزيل الكتاب الكريم من الله المتصف بالصفات الحسنى ، وهاجمت الكفار الذين يجادلون بالباطل ، ثم وصفت مهام ملائكة العرش.

وأخبرت عن طلب أهل النار الخروج منها لشدة العذاب ، ورفض هذا الطلب ، وأقامت الأدلة على وجود الله القادر ، وخوّفت من أهوال القيامة ، وأنذرت الكفار من شدائد ذلك اليوم.

ثم لفتت الأنظار لموضع العبرة من إهلاك الأمم الغابرة وهو كفرهم بالآيات البيّنات التي جاؤوا بها ، وخصّت بالذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون وهامان وقارون ، وما دار من حوار بين فرعون وقومه وبين رجل من آل فرعون يكتم إيمانه ، وما فعله فرعون الطاغية من قتل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم ، خشية انتشار الإيمان في قومه ، وانتهاء القصة بهلاك فرعون بالغرق في البحر مع جنوده ، ونجاة موسى وقومه جند الإيمان في ذلك العصر. وتلك هي قصة الإيمان والطغيان.

وقد أردف ذلك بإعلان خذلان الكافرين ، ونصر الرسل والمؤمنين نصرا مؤزرا في الدنيا والآخرة.

وختمت القصة بأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالصبر على أذى قومه كما صبر موسى وغيره من أولي العزم.

ثم أوردت السورة الأدلة الكونية الدالة على وحدانية الله وقدرته ، وضربت المثل للمؤمن بالبصير ، وللكافر بالأعمى ، فالمؤمن نيّر القلب والبصيرة بنور الله ، والكافر مظلم النفس يعيش في ظلمة الكفر.

وأتبعت ذلك ببيان نعم الله على عباده من الأنعام والفلك وغيرها.

وختمت السورة بما يؤكد الغرض المهم منها : وهو الاعتبار بمصرع الظالمين المكذبين ، وما يلقونه من أصناف العذاب ، ومبادرتهم إلى الإيمان حين رؤية العذاب ، ولكن لا ينفعهم ذلك ، فإن سنّة الله الثابتة ألا يقبل إيمان اليأس أو حال رؤية البأس.

مصدر تنزيل القرآن وحال المجادلين في آياته

﴿حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (٥) وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ (٦)﴾

الإعراب :

﴿حم. تَنْزِيلُ الْكِتابِ﴾ قال الرازي : الأقرب ها هنا أن يقال ﴿حم﴾ اسم للسورة ، فقوله ﴿حم﴾ مبتدأ ، وقوله : ﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ﴾ خبر ، والتقدير : إن هذه السورة المسماة بحم تنزيل الكتاب ، فقول : ﴿تَنْزِيلُ﴾ مصدر ، لكن المراد منه : المنزل.

ويرى القرطبي وغيره أن ﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ﴾ مبتدأ ، والخبر ﴿مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾. ويجوز أن يكون ﴿تَنْزِيلُ﴾ خبرا لمبتدأ محذوف ، أي هذا ﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ﴾ ويجوز أن يكون ﴿حم﴾ مبتدأ ، و ﴿تَنْزِيلُ﴾ خبره ، كما قال الرازي ، والمعنى : إن القرآن أنزله الله وليس منقولا ، ولا مما يجوز أن يكذّب به. و ﴿غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ﴾ إما نعتان أو بدلان ، ويجوز النصب على الحال. وأما ﴿شَدِيدِ الْعِقابِ﴾ فهو نكرة ويكون خفضه على البدل.

و ﴿حم﴾ : قرئ بالسكون ، وهو المشهور على الأصل في الحروف المقطعة ، وقرئ «حاميم»

بفتح الميم ، والفتح إما لالتقاء الساكنين ، لأنه أخف الحركات ، أو أن يكون فتح الميم علامة النصب بتقدير فعل ، أي اتل حم.

﴿أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ﴾ بدل من ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ بدل الكل من اللفظ أو الاشتمال من المعنى.

البلاغة :

﴿الذَّنْبِ﴾ و ﴿التَّوْبِ﴾ بينهما طباق.

﴿ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وارد بصيغة الحصر.

المفردات اللغوية :

﴿حم﴾ تقرأ هكذا : حاميم بالسكون ، أو بالفتح حاميم ، وهذه الحروف المقطعة المبدوء بها بعض السور للتنبيه على إعجاز القران وتحدي العرب أن يأتوا بمثله ، وللدلالة على أن هذا القرآن المعجز منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية التي تتركب منها الكلمات والجمل العربية.

﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ القوي في ملكه ، العليم بخلقه ، قال البيضاوي : لعل تخصيص الوصفين لما في القرآن من الإعجاز والحكم ، الدال على القدرة الكاملة والحكمة البالغة. ﴿غافِرِ الذَّنْبِ﴾ للمؤمنين التائبين. ﴿وَقابِلِ التَّوْبِ﴾ يقبل منهم التوبة فضلا منه ورحمة. ﴿شَدِيدِ الْعِقابِ﴾ للكافرين. ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ صاحب الفضل والإنعام على عباده ، وذو الغنى والسعة أيضا ، وإيراد هذه الصفات للترغيب والترهيب والحثّ على الإيمان. ﴿الْمَصِيرُ﴾ المرجع ، فيجازي المطيع والعاصي.

﴿ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللهِ﴾ القرآن. ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مشركي مكة وأمثالهم ، فيه تسجيل صفة الكفر على المجادلين في القرآن بالباطل والطعن فيه لإدحاض الحق. ﴿فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾ لا تغترّ بإمهالهم وإقبالهم في دنياهم وتقلبهم في بلاد الشام واليمن بالتجارات الرابحة بقصد المعاش ، فإن عاقبتهم النار والهلاك. والتقلب في البلاد : التصرف والتنقل.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كذبت قوم نوح بالرسل وعادوهم ، وكذلك كذبت الأحزاب (الجماعات) من بعدهم كعاد وثمود وغيرهما. ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من هؤلاء ﴿هَمَّتْ﴾ عزمت. ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكنوا منه بما أرادوا من تعذيب وقتل ، فيحبسوه ويأسروه ويعذبوه ويقتلوه. ﴿بِالْباطِلِ﴾ بما لا حقيقة له. ﴿لِيُدْحِضُوا﴾ يزيلوا به الحق. ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بالإهلاك والعقاب. ﴿فَكَيْفَ كانَ عِقابِ﴾ أي عقابي لهم ، بأن وقع موقعه.

﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وجبت كلمته أي حكمه بالهلاك وقضاؤه بالعذاب. ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لكفرهم. ﴿أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ﴾ أي وتلك الكلمة هي أنهم مستحقون للنار.

سبب النزول :

نزول الآية (٤):

﴿ما يُجادِلُ ..﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله تعالى : ﴿ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال : نزلت في الحارث بن قيس السهمي.

التفسير والبيان :

موضوع هذه الآيات بيان مصدر نزول القرآن : وهو أنه من عند الله ، الذي وصف نفسه بصفات ست ، ثم مناقشة الكفار الذين جادلوا في آيات الله بالباطل أي بقصد الطعن فيها وإدحاض الحق ، فاستحقوا التهديد بعذاب الله وهو أنهم في النار.

﴿حم. تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ حم﴾ : من الحروف المقطعة في فواتح السور ، للتنبيه على مضمون السورة وعلى إعجاز القرآن المكون نظمه من حروف اللغة العربية التي ينطق بها العرب وينظمون بها الأشعار ويدبّجون بها الخطب الرنانة ، ومع ذلك لا يستطيعون معارضته ، لأنه كلام الله تعالى.

والقرآن المتلو بين الناس على الملأ منزّل من عند الله ، ليس بكذب عليه ، والله الذي أنزله هو العزيز أي الغالب القوي القادر القاهر ، والعليم أي البالغ العلم التام بخلقه وما يقولونه ويفعلونه ، الذي يعلم السر وأخفى.

ثم وصف الله نفسه بستة أنواع من الصفات الجامعة بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ، فقال :

﴿غافِرِ الذَّنْبِ ، وَقابِلِ التَّوْبِ ، شَدِيدِ الْعِقابِ ، ذِي الطَّوْلِ ،

﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي إن الله منزل القرآن هو غافر الذنب الذي سلف لأوليائه ، سواء أكان صغيرة أم كبيرة بعد التوبة أو قبل التوبة بمشيئته ، وقابل توبتهم المخلصة ، وشديد العقاب لأعدائه ، وذو التفضل والإنعام والسعة والغنى ، ينعم بمحض إحسانه تعالى ، وهو الإله الواحد الذي لا شريك له ولا ندّ ولا صاحبة ولا ولد ، وإليه المرجع والمآب في اليوم الآخر ، لا إلى غيره.

ثم ذكر تعالى أحوال المجادلين في القرآن بقصد إبطاله وإطفاء نوره ، فقال :

﴿ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾ أي ما يخاصم في دفع آيات الله وتكذيبها إلا الذين كفروا ، فهم يجادلون بالباطل بقصد دحض الحق ، كوصفهم القرآن بأنه شعر أو سحر أو أساطير الأولين ، فلا تغترّ أيها النبي وكل مؤمن بشيء من رفاهية الدنيا التي تراهم فيها ، كالتجارة في البلاد ، وتحقيق الأرباح ، وجمع الأموال ، فإنهم معاقبون عما قليل ، وعاقبتهم في النهاية الدمار والهلاك ، وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، كما قال تعالى : ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ ، مَتاعٌ قَلِيلٌ ، ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ [آل عمران ٣ / ١٩٦ ـ ١٩٧] ، وقال سبحانه : ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ، ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان ٣١ / ٢٤].

ويلاحظ أن الجدال نوعان : جدال في تقرير الحق ، وجدال في تقرير الباطل ، أما الجدال بالحق لبيان غوامض الأمور والوصول إلى فهم الحقائق : فهو جائز مشروع ، اتخذه الأنبياء أسلوبا في دعوتهم إلى الدين الحق ، قال تعالى حكاية عن قوم نوح عليه السلام أنهم قالوا له : ﴿يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا﴾ [هود ١١ / ٣٢] ، وقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل ١٦ / ١٢٥].

وأما الجدال بالباطل كالمذكور هنا فهو مذموم ، كما قال تعالى : ﴿ما ضَرَبُوهُ

﴿لَكَ إِلَّا جَدَلاً ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٥٨] ، وهو المشار إليه في قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «لا تماروا في القرآن ، فإن المراء فيه كفر» ، «إن جدالا في القرآن كفر».

قال أبو العالية : آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون في القرآن ، قوله : ﴿ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقوله : ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة ٢ / ١٧٦].

ثم أخبر الله تعالى عن تشابه أقوام الأنبياء في تكذيب رسلهم ، فقال :

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي كذبت قبل قوم قريش قوم نوح (وهو أول رسول بعثه الله للنهي عن عبادة الأوثان) والجماعات الذين تحزبوا على الرسل من بعد قوم نوح ، كعاد وثمود وأصحاب لوط وقوم فرعون ، بتكذيب رسلهم ، فعوقبوا أشد العقاب.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَ﴾ أي وعزمت وحرصت كل أمة من تلك الأمم المكذبة برسولهم المرسل إليهم على أخذه ، لحبسه وتعذيبه وإصابة ما يريدون منه أو قتله ، فمنهم من قتل رسوله ، وخاصموا رسولهم بالشبهة وبالباطل من القول ، ليردوا الحق الواضح الجلي ، وليبطلوا الإيمان. روى أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «من أعان باطلا ليدحض به حقا ، فقد برئت منه ذمة الله تعالى وذمة رسوله ص». وقال يحيى بن سلام : جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا به الإيمان.

﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ﴾ أي فأخذت هؤلاء المجادلين بالباطل بالعذاب ، وأهلكتهم ، فقد جاء الأخذ بمعنى الإهلاك في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾ [الحج ٢٢ / ٤٤]. فانظر كيف عقابي الذي عاقبتهم

به؟ فإنه كان مهلكا مستأصلا ، وليعتبر قومك يا محمد بهذا ، فإني أعاقبهم بعقاب مماثل ، وإنهم يمرون على بلادهم ومساكنهم ، فيعاينون أثر ذلك. وهذا تقرير فيه معنى التعجيب ، وأكّد هذا المعنى بقوله :

﴿وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ﴾ أي ومثل ذلك عذاب كل كافر ، والمعنى : وكما وجب العذاب على الأمم المكذبة لرسلهم ، وجب على الذين كفروا بك يا محمد ، وجادلوك بالباطل ، وتحزبوا عليك ، فالسبب واحد والعلة واحدة ، وذلك العذاب هو استحقاقهم النار.

والمراد بكلمة العذاب هي أنهم مستحقون النار.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن تنزيل القرآن من الله ذي العزة والعلم ، فهو ليس منقولا ولا مما يصحّ أن يكذّب به.

٢ ـ وصف الله تعالى نفسه بستّ صفات تجمع بين الترغيب والترهيب ، وتفتح باب الأمل للعصاة والكفار للمبادرة إلى ساحة الإيمان والتزام جادة الاستقامة على أمر الله ومنهجه. وتشير القصتان التاليتان إلى مدى فعالية هذا الأسلوب القرآني في إصلاح البشرية.

روى ابن أبي حاتم وابن جرير عن أبي إسحاق السبيعي قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب ﷺ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إني قتلت ، فهل لي من توبة؟ فقرأ عمر ﷺ : ﴿حم. تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. غافِرِ الذَّنْبِ ، وَقابِلِ التَّوْبِ ، شَدِيدِ الْعِقابِ ..﴾ الآية ، وقال : اعمل ولا تيأس.

وروى ابن أبي حاتم أيضا والحافظ أبو نعيم عن يزيد بن الأصم قال : كان رجل من أهل الشام ذو بأس ، وكان يفد إلى عمر بن الخطاب ﷺ ، ففقده عمر ، فقال : ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين ، تتابع في هذا الشراب. فدعا عمر كاتبه ، فقال :

اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ﴿**غافِرِ الذَّنْبِ ، وَقابِلِ التَّوْبِ ، شَدِيدِ الْعِقابِ ، ذِي الطَّوْلِ ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، إِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾. ثم قال لأصحابه : ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ويتوب الله عليه.

فلما بلغ الرجل كتاب عمر ﷺ جعل يقرؤه ويردده ، ويقول : ﴿**غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ**﴾ قد حذّرني عقوبته ، ووعدني أن يغفر لي. فلم يزل يرددها على نفسه ، ثم بكى ، ثم نزع فأحسن النزع.

فلما بلغ عمر خبره قال : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخا لكم زلّ زلّة ، فسدّدوه ووثّقوه ، وادعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه.

٣ ـ قد يعفو الله تعالى عن الذنوب الصغائر بتوبة أو بغير توبة ، وقد يعفو أيضا عن الكبائر كالقتل والسرقة والزنى بعد التوبة ، وإطلاق الآية ﴿**غافِرِ الذَّنْبِ**﴾ يدل على كونه غافرا للذنوب الكبائر قبل التوبة ، إذا شاء وأراد.

ولكن قبول التوبة من الذنب يقع على سبيل التفضل والإحسان من الله ، وليس بواجب على الله ، لأنه تعالى ذكر كونه قابلا للتوب على سبيل المدح والثناء ، ولو كان ذلك من الواجبات لم يبق فيه من معنى المدح إلا القليل. وقالت المعتزلة : إنه واجب على الله بإيجاب منه على نفسه ، لا بإيجاب غيره عليه.

٤ ـ في الآية إيماء بترجيح جانب الرحمة والفضل على جانب الغضب والعدل ، لأنه تعالى لما أراد أن يصف نفسه بأنه ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ ذكر قبله أمرين ، كل واحد منهما يقتضي زوال العقاب ، وهو كونه ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ وذكر بعده ما يدلّ على حصول الرحمة العظيمة ، وهو قوله : ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾.

٥ ـ إن الجدال لتقرير الباطل لدحض الحق وإبطال الإيمان ، بالاعتماد على الشبهات ، بعد البيان القرآني وظهور البرهان الإلهي : كفر وضلال وجحود لآيات الله وحججه وبراهينه.

والجدال في آيات الله أن يقال مثلا عن القرآن : إنه سحر أو شعر أو من قول الكهنة ، أو أساطير الأولين ، أو إنما يعلّمه بشر ، ونحو ذلك.

أما الجدال لتوضيح الحق ورفع اللّبس والرّد إلى الحق ، فهو من أعظم ما يتقرّب به المتقرّبون ، قال تعالى : ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٤٦].

٦ ـ لا يغترن أحد بإمهال الكفرة والعصاة وتركهم سالمين في أبدانهم وأموالهم يترددون في البلاد للتجارة وطلب المعاش ، فإن الله يمهل ولا يهمل ، وإنه وإن أمهلهم فإنه سينتقم منهم كما فعل بأمثالهم من الأمم الماضية.

٧ ـ المثال المتكرر في القرآن الكريم : هو أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة برسلها ، الذين جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا به الإيمان ، وقد لمس الناس آثار ذلك الهلاك في ديارهم ومساكنهم ، لذا قال تعالى : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي كيف كان عقابي إياهم ، أليس وجدوه حقا؟!

٨ ـ إن مثل الذي وجب (حق) على الأمم السالفة من العقاب ، يجب

(يحق) على الذين كفروا في كل زمان ومكان ، سواء من قريش وغيرهم ، فهم على وشك نزول العقاب بهم.

محبة الملائكة حملة العرش للمؤمنين ونصرتهم

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾

الإعراب :

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ مبتدأ ، وخبره : ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ معطوف على هم ضمير ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾.

﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ مَنْ﴾ اسم موصول ، مبتدأ ، وخبره جملة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ هم الملائكة الكروبيون الذين هم أعلى طبقات الملائكة وأولهم وجودا ، وحملهم العرش عند بعضهم : مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له ، و ﴿الْعَرْشَ﴾ مركز تدبير العالم ، وهو حقيقة ، الله أعلم به. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يقرنون التسبيح (تنزيه الله عن كل النقائص) بالحمد والشكر ، فيقولون : سبحان الله وبحمده. ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالله تعالى ، أي يصدقون ببصائرهم بوحدانية الله. ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يطلبون المغفرة لهم ، فهم يشفعون لهم ويلهمون المؤمنين ما يوجب المغفرة ، ويحملونهم على التوبة ، وفيه تنبيه على أن المشاركة في

الإيمان توجب النصح والشفقة. ﴿رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ أي يقولون ربّنا ، وهو بيان لقوله : ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾. والمعنى : يا ربنا ، لقد وسعت رحمتك كل شيء ، ووسع علمك كل شيء. ﴿فَاغْفِرْ﴾ المغفرة : الستر. ﴿تابُوا﴾ من الشرك. ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ دين الإسلام. ﴿وَقِهِمْ﴾ احفظهم واصرف عنهم. ﴿عَذابَ الْجَحِيمِ﴾ عذاب النار.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ إقامة دائمة. ﴿الْعَزِيزُ﴾ القوي الغالب القاهر. ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه.

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ﴾ احفظهم من عذابها أي جزاء السيئات. ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى أن الكفار يبالغون في إظهار العداوة للمؤمنين ، بيّن هنا أن أشرف المخلوقات وهم حملة العرش والذين هم حول العرش يبالغون في إظهار المحبة والنصرة للمؤمنين ، فلا تبال بالكفرة أيها الرسول ، ولا تلتفت إليهم ولا تقم لهم وزنا ، فإن حملة العرش ومن حوله ينصرونك.

التفسير والبيان :

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ إن الملائكة حملة العرش ومن حوله من الملائكة الكروبيين الذين هم أفضل الملائكة يقرنون بين التسبيح (التنزيه) الدال على نفي النقائص ، والتحميد المقتضي لإثبات صفات الثناء والتمجيد ، ويصدقون بوجود الله ووحدانيته ولا يستكبرون عن عبادته ، فهم خاشعون له ، أذلاء بين يديه ، ويطلبون المغفرة للذين آمنوا من أهل الأرض ممن آمن بالغيب.

ولما كان هذا من سجايا الملائكة عليهم السلام ، فهم يؤمّنون على دعاء المؤمن لأخيه المؤمن بظهر الغيب ، كما ثبت في صحيح مسلم : «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب ، قال الملك : آمين ، ولك بمثله».

ونحن نؤمن بحمل الملائكة العرش ، ونترك الكيف والعدد لله عزّ وجلّ ،

ورأى بعض المفسرين أن المراد بالحمل : التدبير والحفظ ، والعرش أعظم المخلوقات ، ونؤمن به كما ورد.

وذكر ابن كثير أن حملة العرش اليوم أربعة ، فإذا كانوا يوم القيامة كانوا ثمانية ، كما قال تعالى : ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة ٦٩ / ١٧] (١).

وفائدة وصف الملائكة بالإيمان ، مع أن التسبيح والتحميد يكون مسبوقا بالإيمان : هو إظهار شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه ، كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتاب الله بالصلاح لذلك ، وكما عقّب أعمال الخير بقوله تعالى : ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد ٩٠ / ١٧] فأبان بذلك فضل الإيمان. وفائدة أخرى هي التنبيه على أن إيمانهم كغيرهم سواء بطريق النظر والاستدلال لا غير ، لا بالمشاهدة والمعاينة (٢).

وصيغة استغفارهم للمؤمنين هي :

﴿رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ﴾ أي وسعت رحمتك وعلمك كل شيء ، فاستر واصفح عن الذين تابوا عن الذنوب ، واتبعوا سبيل الله وهو دين الإسلام ، واحفظهم من عذاب الجحيم. عذاب النار.

قال خلف بن هشام البزار القارئ : كنت أقرأ على سليم بن عيسى ، فلما بلغت : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بكى ، ثم قال : يا خلف! ما أكرم المؤمن على الله ، نائما على فراشه ، والملائكة يستغفرون له.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤ / ٧١

(٢) الكشاف : ٣ / ٤٥ ، تفسير الرازي : ٢٧ / ٣٢

﴿رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ربنا وأدخلهم جنات الإقامة الدائمة التي وعدتهم بها على ألسنة رسلك ، وأدخل معهم من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، بأن كان مؤمنا موحدا قد عمل الصالحات ، اجمع بينهم وبينهم ، تكميلا لنعمتك عليهم ، وتماما لسرورهم ، فإن الاجتماع بالأهل أكمل للبهجة والأنس ، إنك أنت القوي الغالب الذي لا يغالب ، الحكيم في أقوالك وأفعالك من شرعك وقدرك.

ونظير الآية : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ ، أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور ٥٢ / ٢١].

قال مطرّف بن عبد الله الشّخير : أنصح عباد الله للمؤمنين : الملائكة ، ثم تلا هذه الآية : ﴿رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ الآية ، وأغشّ عباده للمؤمنين : الشياطين.

وقال سعيد بن جبير : إن المؤمن إذا دخل الجنة ، سأل عن أبيه وابنه وأخيه ، أين هم؟ فيقال : إنهم لم يبلغوا طبقتك في العمل ، فيقول : إني إنما عملت لي ولهم ، فيلحقون به في الدرجة ، ثم قرأ سعيد بن جبير هذه الآية : ﴿رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ودعاؤهم إيجابي وسلبي ، يشمل دخول الجنان ومنع العقاب ، فقال تعالى :

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ، وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي واحفظهم من العقوبات أو العذاب وجزاء السيئات التي عملوها ، بأن تغفرها لهم ، ولا تؤاخذهم بشيء منها ، وأبعد عنهم ما يسوؤهم من العذاب ،

ومن تقيه السيئات يوم القيامة ، فقد رحمته من عذابك ، وأدخلته جنتك ، وهذا هو الفوز الساحق الأكبر الذي لا فوز أفضل منه.

وفائدة استغفار الملائكة للمؤمنين التائبين الصالحين الموعودين المغفرة وعدا لا خلف فيه : زيادة الكرامة والثواب.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ أخبر الله تعالى عن الملائكة حملة العرش بثلاثة أشياء : التسبيح المقرون بالتحميد ، والإيمان الكامل بالله تعالى وحده لا شريك له ، والاستغفار للمؤمنين شفقة عليهم. ويلاحظ أنه قدم التسبيح والتحميد على الاستغفار ، لأن التعظيم لأمر الله مقدم على الشفقة على خلق الله.

والتسبيح : تنزيه الله تعالى عما لا يليق ، والتحميد : الاعتراف بأنه هو المنعم على الإطلاق ، والأول إشارة إلى الجلال ، والثاني إشارة إلى الإكرام ، كما قال تعالى : ﴿تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٧٨].

والعرش أعظم المخلوقات ، نؤمن به ، وندع أمر وصفه لله عَزَّوَجَلَّ . لكن يجب تنزيه الله عن التحديد والتجسيم والتكييف والحصر في مكان معين.

٢ ـ احتج كثير من العلماء بهذه الآية : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ ..﴾ في إثبات أن الملك أفضل من البشر ، لأن الملائكة لما فرغوا من الثناء على الله والتقديس ، اشتغلوا بالاستغفار لغيرهم ، وهم المؤمنون. وهذا يدل على أنهم مستغنون عن الاستغفار لأنفسهم ، وإلا لبدؤوا بأنفسهم قبل غيرهم ، بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم : فيما رواه النسائي عن جابر «ابدأ بنفسك» وقوله تعالى لنبيه : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾ [محمد ٤٧ / ١٩] فأمر محمدا صلى الله عليه وآله وسلم أن يستغفر لنفسه ، ثم لغيره.

٣ ـ تدل هذه الآية أيضا على حصول الشفاعة من الملائكة للمذنبين ، لأن الاستغفار طلب المغفرة ، والمغفرة لا تذكر إلا في إسقاط العقاب ، أما طلب النفع الزائد وهو زيادة الثواب للمؤمنين ، فإنه لا يسمى استغفارا.

٤ ـ قال أهل التحقيق : إن هذه الشفاعة الصادرة عن الملائكة في حق البشر تجري مجرى اعتذار عن زلة سبقت.

٥ ـ إن الدعاء في أكثر الأحوال يبدأ بلفظ «ربنا» كما فعل الملائكة في دعائهم : ﴿رَبَّنا وَسِعْتَ .. رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ ..﴾ ومن أرضى الدعاء : أن ينادي العبد ربه بقوله : «يا رب».

٦ ـ السنة في الدعاء : أن يبدأ فيه بالثناء على الله تعالى ، ثم يذكر الدعاء عقيبه ، بدليل هذه الآية ، فإن الملائكة لما عزموا على الدعاء والاستغفار للمؤمنين ، بدؤوا بالثناء ، فقالوا : ﴿رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ وكذلك بدأ إبراهيم الخليل بالثناء أولا على الله الهادي ، الرزاق ، الشافي ، المحيي ، الغفار ، ثم قال : ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٧٨ ـ ٨٣]. والعقل والأدب يدلان أيضا على هذا الترتيب.

٧ ـ وصف الملائكة الله تعالى في ثنائهم بقولهم : ﴿رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ بثلاث صفات : الربوبية والرحمة والعلم ، والربوبية إشارة إلى الإيجاد والإبداع ، والرحمة إشارة إلى أن جانب الخير والرحمة والإحسان راجح على جانب الضر ، وأنه تعالى خلق الخلق للرحمة والخير ، لا للإضرار والشر.

٨ ـ قوله سبحانه : ﴿رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ دليل على كونه سبحانه عالما بجميع المعلومات التي لا نهاية لها من الكليات والجزئيات.

٩ ـ اشتمل دعاء الملائكة على الخير كله وعلى أشياء كثيرة للمؤمنين وهي :

أ ـ طلب الغفران للتائبين من الشرك والمعاصي ، الذين اتبعوا دين الإسلام.

ب ـ الوقاية من عذاب جهنم حتى لا يصل إليهم.

ج ـ إدخالهم جنات عدن ، قال عمر بن الخطاب لكعب الأحبار : ما جنات عدن؟ قال : قصور من ذهب في الجنة يدخلها النبيون والصدّيقون والشهداء وأئمة العدل.

وإدخال أقاربهم معهم أيضا من الآباء والأزواج والذريات.

د ـ إن صونهم من جزاء السيئات ، أي وقايتهم في الدنيا من العقائد الفاسدة والأعمال الفاسدة والوقاية من عذاب السيئات دليل على رحمة الله بدخول الجنة ، وتلك هي النجاة الكبيرة.

والخلاصة : إن أكمل الدعاء : ما طلب فيه ثواب الجنة ، والنجاة من النار.

اعتراف الكفار بذنوبهم وباستحقاقهم العقاب الأخروي

والتذكير بقدرة الله وفضله

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَما يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ

يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (١٧)﴾

الإعراب :

﴿لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ مبتدأ وخبر ، واللام لام الابتداء ، وقعت بعد ﴿يُنادَوْنَ﴾ لأنها في معنى : يقال لهم.

﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِذْ﴾ : ظرف زمان ، وعامله : إما : ﴿لَمَقْتُ اللهِ﴾ أو ﴿مَقْتِكُمْ﴾ أو ﴿تُدْعَوْنَ﴾ أو فعل مقدر ، تقديره : مقتكم إذ تدعون ، أي حين دعيتم إلى الإيمان فكفرتم ، وقيل : تقديره : اذكروا إذ تدعون.

﴿يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ يَوْمَ﴾ : بدل منصوب من قوله ﴿يَوْمَ التَّلاقِ﴾ وهذا منصوب على أنه مفعول به لفعل : ينذر ، لا الظرف ، لأن الإنذار لا يكون في يوم التلاق ، وإنما يكون الإنذار به ، لا فيه. و ﴿هُمْ بارِزُونَ﴾ : جملة اسمية في موضع جر بإضافة ﴿يَوْمَ﴾ إليها.

و ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ﴾ مبتدأ وخبر و ﴿الْيَوْمَ﴾ منصوب متعلق بمدلول قوله تعالى : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ﴾ أي لمن استقر الملك في هذا اليوم ، أو متعلق بنفس ﴿الْمُلْكُ﴾. أو يوقف على ﴿الْمُلْكُ﴾ ، ويبتدأ : ﴿الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي هو مستقر لله الواحد القهار في هذا اليوم.

البلاغة :

﴿أَمَتَّنَا﴾. و ﴿أَحْيَيْتَنَا﴾ بينهما طباق.

﴿فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ ..﴾ استفهام يراد به التمني ، وأنهم يعلمون أنهم لا يخرجون.

﴿ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ بينهما مقابلة ، قابل بين التوحيد والشرك ، والكفر والإيمان.

﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً﴾ مجاز مرسل ، أطلق الرزق الذي هو مسبب وأراد المطر الذي هو سبب في الأرزاق.

﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ الرُّوحَ﴾ كناية عن الوحي ، لأنه كالروح للجسد.

المفردات اللغوية :

﴿يُنادَوْنَ﴾ يوم القيامة من قبل الملائكة ، فيقال لهم : ﴿لَمَقْتُ اللهِ﴾ إياكم ، وهو أشد البغض. ﴿أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ الأمارة بالسوء. ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ أي إن مقت الله حين دعيتم إلى الإيمان به في الدنيا ، فكفرتم. ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ إماتتين ، بأن خلقتنا أمواتا أولا ، ثم صيرتنا أمواتا عند انقضاء آجالنا ، فإن الإماتة : جعل الشيء عادم الحياة ، إما ابتداء ، أو انتقالا من الحياة إلى الموت. ﴿وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ الإحياءة الأولى وإحياءة البعث. ﴿فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا﴾ بالشرك والكفر بالبعث. ﴿فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ﴾ نوع من الخروج من النار لنطيع ربنا. ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ طريق ، فنسلكه. جوابهم : لا.

﴿ذلِكُمْ﴾ أي العذاب الذي أنتم فيه. ﴿بِأَنَّهُ﴾ بسبب أنه. ﴿إِذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ﴾ عبد الله وحده دون غيره. ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بالتوحيد. ﴿وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ﴾ يجعل له شريك في العبادة. ﴿تُؤْمِنُوا﴾ تصدقوا بالإشراك. ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ فالقضاء لله في تعذيبكم بالعذاب السرمدي. ﴿الْعَلِيِ﴾ عن أن يشرك به أحد من خلقه ويسوّى به. ﴿الْكَبِيرِ﴾ العظيم الكبير على من أشرك به بعض مخلوقاته في العبادة.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ﴾ دلائل قدرته وتوحيده ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً﴾ أسباب الرزق وهو المطر. ﴿وَما يَتَذَكَّرُ﴾ يتعظ بالآيات المستقرة في الفطر والعقول. ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ يرجع عن الشرك.

﴿فَادْعُوا اللهَ﴾ اعبدوه. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ﴾ إخلاصكم له وشق عليهم. ﴿رَفِيعُ الدَّرَجاتِ﴾ أي الله عظيم الصفات ، المنزه عن مشابهة المخلوقات. ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ خالقه ومالكه. ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ الوحي سمي روحا ، لأنه كالروح للجسد. ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ من قوله ، وهذه أخبار ثلاثة بعد قوله : ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ﴾. ﴿لِيُنْذِرَ﴾ يخوف النبي الملقى عليه الوحي الناس. ﴿يَوْمَ التَّلاقِ﴾ يوم اجتماع وتلاقي الخلائق للحساب أمام الله ، فإنه يوم يلتقي فيه أهل السماء والأرض والعابد والمعبود والظالم والمظلوم والأعمال والعمال.

﴿بارِزُونَ﴾ ظاهرون لا يسترهم شيء ، أو خارجون من قبورهم. ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ حكاية لسؤال وما يجاب به ، يسأله تعالى ويجيب نفسه ، فهو القهار لخلقه.

﴿لا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب. ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ لا يشغله شأن عن شأن ، فيحاسب الخلائق سريعا ، يحاسب جميع الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا ، كما ورد في الحديث.

المناسبة :

بعد بيان أحوال الكافرين المجادلين في آيات الله ، بيّن الله تعالى أنهم يوم القيامة يعترفون بذنوبهم واستحقاقهم العذاب الذي ينزل بهم ، ويسألون الرجوع إلى الدنيا ، ليتلافوا ما فرط منهم.

وبعد ذكر ما يوجب التهديد الشديد للمشركين ، ذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته ، بإظهار البيّنات والآيات ، وإنزال الرزق من السماء ، وإلقاء الوحي على من يشاء من عباده ، لإنذار الناس بالعذاب يوم الحساب.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن مناداة الكفار يوم القيامة وهم يتلظون في النار ، فيقول :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ : لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ أي تنادي الملائكة الكافرين يوم القيامة ، وهم يعذبون في نار جهنم ، فيمقتون أنفسهم ، ويبغضونها غاية البغض ، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سبب دخولهم إلى النار ، قائلين لهم : أيها المعذّبون أنفسهم في هذه الحالة ، إن بغض الله لكم حين عرض عليكم الإيمان في الدنيا من طريق الأنبياء ، فتركتموه وكفرتم وأبيتم قبوله ، أشد من بغضكم أنفسكم حين عاينتم عذاب النار يوم القيامة ، ففي الآية حذف وتقديم وتأخير ، أي لمقت الله إياكم حال ما تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم.

فيجيبون بقولهم :

﴿قالُوا : رَبَّنا أَمَتَّنا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ ، فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا ، فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي قال الكفار المعذبون : ربنا أمتنا مرتين ، حين كنا نطفا في أصلاب الآباء قبل الحياة الظاهرة ، وحين أصبحنا أمواتا بعد حياتنا الدنيوية ، وأحييتنا مرتين أيضا : الأولى في الدنيا ، والثانية عند البعث ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ ، وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة ٢ / ٢٨].

فاعترفنا بذنوبنا التي ارتكبناها في الدنيا ، من تكذيب الرسل ، والإشراك بالله وترك توحيده ، وإنكار البعث ، ولكنه اعتراف وندم في وقت لا ينفعهم فيه الندم ، فهل لنا طريق إلى الخروج من النار والرجوع إلى الدنيا ، لنعمل غير الذي كنا نعمل؟ كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا ، فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً ، إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة ٣٢ / ١٢] وقال سبحانه : ﴿وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ، فَقالُوا : يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا ، وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٧] وقال عزّ وجلّ : ﴿رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها ، فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ ، قالَ : اخْسَؤُا فِيها ، وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ١٠٨].

فأجيبوا بالرفض مع بيان السبب ، فقال تعالى :

﴿ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ، فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أي أنتم هكذا على وضعكم ، وإن رددتم إلى الدار الدنيا : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٨] فلا رجعة لكم ، وتظلمون في العذاب ، بسبب أنكم كنتم إذا دعي الله وحده دون غيره في الدنيا ، كفرتم به وتركتم توحيده باستمرار ، وإن يشرك به غيره من الأصنام أو غيرها ، تؤمنوا بالإشراك به وتجيبوا

الداعي إليه ، فالحكم لله وحده دون غيره ، ولا يحكم إلا بالحق وبمقتضى الحكمة ، وهو المتعالي عن المماثل في ذاته وصفاته ، والأكبر من أن يكون له مثل أو صاحبة أو ولد أو شريك ، فقوله : ﴿الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ دلالة على الكبرياء والعظمة.

ثم ذكر الله تعالى ما يدل على كمال قدرته وكبريائه وعظمته ، فقال :

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ ، وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً ، وَما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ الله تعالى هو الذي يظهر لكم دلائل توحيده وعلامات قدرته ، بما أودع في سمائه وأرضه من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ، وهو سبحانه الذي ينزل لكم المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله وألوانه ، مع أنه من ماء واحد وتراب واحد ، مما يدل على قدرته وعظمة صنعه ، ولكن ما يتعظ ويعتبر بتلك الآيات الباهرة إلا من يرجع إلى ربه ، بالتأمل والتفكر والنظر في آيات الله ، ثم بالطاعة والإذعان إليه.

ولما قرر الله تعالى ما يوجب توحيده ، صرح بالمطلوب وهو الإقبال بالكلية على الله تعالى ، والإعراض عن غير الله ، فقال :

﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ﴾ أي فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء ، وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم ، ولو كره الكافرون منهجكم ذلك ، فلا تلتفتوا إلى كراهتهم ، ودعوهم يموتوا بغيظهم.

ثبت في الصحيح عن عبد الله بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول عقب الصلوات المكتوبات : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون».

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «ادعوا الله تبارك وتعالى ، وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه».

ثم ذكر تعالى أيضا ثلاث صفات أخرى من صفات الجلال والعظمة ، فقال :

﴿رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ، ذُو الْعَرْشِ ، يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾ أي هو الذي يريكم آياته ، وهو رفيع الصفات ، وهو صاحب العرش ومالكه وخالقه والمتصرف فيه ، وذلك يقتضي علو شأنه وعظم سلطانه ، وهو الذي ينزل الوحي على من يريد من عباده الذين يختارهم لرسالته وتبليغ أحكامه ، وهم الأنبياء ، ليقوموا بإنذار الناس بالعذاب يوم يلتقي أهل السموات والأرض في المحشر ، ويلتقي الأولون والآخرون.

وسمي الوحي روحا ، لأن الناس يحيون به من موت الكفر ، كما تحيى الأبدان بالأرواح. والمراد بقوله : ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي من شرائعه التي يوحي بها إلى أنبيائه ليمتثلوا ويسيروا في حياتهم بموجبها.

ونظائر الآية كثيرة ، مثل قوله تعالى : ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل ١٦ / ٢] ونحو قوله سبحانه : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ١٩٣ ـ ١٩٥].

ومن صفات يوم القيامة أيضا ما يلي :

﴿يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ ، لا يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي إن يوم التلاق هو اليوم الذي هم فيه ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء ، لاستواء الأرض ، وهم خارجون من قبورهم في العراء ،

لا يخفى على الله شيء من أعمال العباد التي عملوها في الدنيا ، سرا أو علانية ، كما في آية أخرى : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ، لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ﴾ [الحاقة ٦٩ / ١٨].

ويكون فيه الملك المطلق والسلطان الشامل لله الواحد الأحد ، القاهر عباده وكل شيء بقدرته ، قهرهم بالموت ، ثم بالبعث الشامل. وقد أورد هذا المعنى لتقريره في الأذهان بصورة سؤال يسأل فيه الرب تعالى ، يقول : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾؟ أي يوم القيامة ، فلا يجيبه أحد ، فيجيب تعالى نفسه ، فيقول : ﴿لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

والخلاصة : ذكر تعالى هنا أربع صفات ليوم القيامة : هي كونه يوم التلاق ، وكون الخلق فيه ظاهرين جميعا أمامه لا يسترهم شيء ، وكونه يوما لا يخفي الله فيه من الأعمال شيئا ، والمقصود بذلك الوعيد ، فإنه تعالى إذا جمع الخلق ، يجازي كلا بحسبه ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وكون الملك المطلق فيه لله عَزَّوَجَلَّ .

ثم ذكر تعالى صفة خامسة وسادسة ليوم القيامة ، تبينان صفات عدل الله في حكمه بين خلقه ، وفضله ورحمته ، فقال :

﴿الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ ، لا ظُلْمَ الْيَوْمَ ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ أي إن يوم القيامة هذا هو يوم الجزاء وثواب كل عامل بعمله ، من خير وشر ، ولا ظلم في الحكم فيه على أحد ، بنقص من ثوابه أو بزيادة في عقابه ، وإن الله سريع حسابه لعباده على أعمالهم في الدنيا ، فيحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفسا واحدة كما قال تعالى : ﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ [لقمان ٣١ / ٢٨] وقال : ﴿وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر ٥٤ / ٥٠] ولأنه تعالى لا يحتاج إلى تفكر ، ويحيط علمه بكل شيء ، فلا يغيب عنه مثقال ذرة. وذكر سرعة الحساب في هذا الموضع لائق جدا ، لأنه تعالى لما بيّن أنه لا ظلم ، بيّن

أنه سريع الحساب ، وذلك يدل على أنه يصل إليهم ما يستحقونه في الحال.

وقد روى مسلم في صحيحة حديثا في بيان منع الظلم في الحساب عن أبي ذر ﷺ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فيما يحكي عن ربه عَزَّوَجَلَّ أنه قال : «يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرّما ، فلا تظالموا . إلى أن قال . يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله تبارك وتعالى ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

فقه الحياة أو الأحكام :

يؤخذ من الآيات ما يأتي :

١ . إن الله تعالى يحب الخير لعباده ويكره الكفر والشر لهم ، لذا كان مقته وبغضه للكفار في وقت تعذيبهم بالنار أشد من بغضهم أنفسهم في ذلك الوقت ، لأنها أوبقتهم في المعاصي.

٢ . احتج أكثر العلماء بآية : ﴿رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ في إثبات عذاب القبر ، بناء على تفسير السدّي : أنهم أميتوا في الدنيا ، ثم أحياهم في القبور للسؤال ، ثم أميتوا ثم أحيوا في الآخرة. وإنما جنح إلى هذا التفسير ، لأن لفظ الميت لا ينطلق في العرف على النطفة. ولو كان الثواب والعقاب للروح دون الجسد فما معنى الإحياء والإماتة؟.

كذلك تدل هذه الآية على حصول الحياة في القبر.

٣ . يعترف الكفار بذنوبهم واستحقاقهم العقاب يوم القيامة ، ويندمون على ذلك ، لكن لا ينفعهم فيه الندم والاعتراف.

٤ . يطلب الكفار الرجوع إلى الدنيا للإيمان والطاعة ، ولكن لا رجعة لهم.

٥ ـ إن تعذيب الكفار بسبب إعراضهم عن الإيمان بالله وبالبعث وبالرسل في الدنيا التي هي دار التكليف والعمل ، وتركهم التوحيد ، واختيارهم الشرك والمعاصي.

٦ ـ أقام الله تعالى آيات وأدلة كثيرة على وجوده وتوحيده وقدرته وحكمته ، ومنها هنا آيات السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما من الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والبحار والأنهار والعيون والجبال والأشجار وآثار قوم هلكوا ، ومنها إنزال الرزق بإنزال المطر سبب الحياة والبركة والخير.

ويلاحظ أنه جمع في هذه الآية بين رعاية مصالح الأديان ومصالح الأبدان ، لأن بإظهار الآيات قوام الأديان ، وبإنزال الرزق من السماء قوام الأبدان.

ولكن ما يتعظ بهذه الآيات ، فيوحد الله إلا من ينيب ويرجع إلى طاعة الله ، والمعنى : إنّ لمس وإدراك دلائل توحيد الله كالشيء المستقر في العقول ، والاشتغال بالشرك وبعبادة غير الله مانع يحجب أنوار العقل والفكر ، فإذا تخلى العبد عن الشرك ، وأناب إلى الله ، زال الغطاء ، واستنار القلب ، فحصل الفوز التام ، وظهرت سبيل النجاة.

٧ ـ وكما أن من صفات كبرياء الله وإكرامه : كونه مظهرا للآيات ، منزلا للأرزاق ، فله صفات ثلاث أخرى من صفات الجلال والعظمة ، وهي كونه رفيع الصفات ، خالق العرش ومدبره ومالكه ، منزل الوحي والنبوة على من يشاء من عباده. وسمي الوحي روحا ، لأن الناس يحيون به من موت الكفر ، كما تحيا الأبدان بالأرواح ، كما تقدم.

٨ ـ ما على العباد أمام هذه الصفات العليا إلا عبادة الله وحده لا شريك له ، مخلصين له العبادة والطاعة ، حتى ولو كره الكافرون عبادة الله ، فلا تعبدوا أيها المؤمنون غيره.

٩ ـ إنما يبعث الله الرسل لإنذار يوم البعث يوم تلاقي الخلائق جميعهم في أرض المحشر ، ويوم يكونون ظاهرين في صعيد واحد ، لا يسترهم شيء ، لاستواء الأرض ، وذلك اليوم لا يخفى على الله شيء من العباد ومن أعمالهم ، وهو اليوم الذي يظهر فيه السلطان المطلق والملك التام لله الواحد القهار ، ويقول سبحانه بعد فناء الخلق وهلاك كل من في السموات ومن في الأرض : لمن الملك في هذا اليوم؟ فلا يجيبه أحد ، فيجيب نفسه : لله الواحد القهار. وفي تفسير آخر : أن السائل غير الله ، والمجيب هم أهل المحشر ، ورجح هذا القرطبي ، فقال :

أصح ما قيل فيه : ما رواه أبو وائل عن ابن مسعود قال : يحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة ، لم يعص الله جل وعز عليها ، فيؤمر مناد ينادي : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾؟ فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم : ﴿لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ فيقول المؤمنون هذا الجواب سرورا وتلذذا ، ويقوله الكافرون غمّا وانقيادا.

ثم أردف القرطبي قائلا : والقول الأول ظاهر جدا ، لأن المقصود إظهار انفراده تعالى بالملك عند انقطاع دعاوى المدّعين وانتساب المنتسبين ، إذ قد ذهب كل ملك وملكه ، ومتكبر وملكه ، وانقطعت نسبهم ودعاويهم. ودل على هذا قوله الحق عند قبض الأرض والأرواح وطيّ السماء : «أنا الملك ، فأين ملوك الأرض» كما في حديثي أبي هريرة وابن عمر ، ثم يطوي الأرض بشماله والسموات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون؟! [1].

١٠ ـ ومن صفات ذلك اليوم : أن تجزى كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، وأنه لا ظلم فيه ، فلا ينقص أحد شيئا من عمله ، وإن الله سريع الحساب ، فلا يحتاج إلى تفكر واستدلال ، لأنه تعالى العالم الذي لا يعزب عن علمه شيء ، فلا يؤخر جزاء أحد للاشتغال بغيره ، وكما يرزقهم في ساعة واحدة يحاسبهم كذلك

---

(١) تفسير القرطبي : ١٥ / ٣٠٠ ـ ٣٠١

في ساعة واحدة. جاء في الخبر : «ولا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار».

والخلاصة : ذكر الله تعالى ست صفات ليوم القيامة : وهي كونه يوم التلاق ، وكون الخلق بارزين ظاهرين فيه ، ولا يخفى على الله منهم شيء ، ويظهر فيه الملك التام لله الواحد القهار ، وتجزى فيه كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، ولا ظلم في الحساب الذي هو سريع الإجراء والتنفيذ وتحقيق المطلوب.

أوصاف أخرى هائلة رهيبة ليوم القيامة

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ (١٨) يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ (٢١) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (٢٢)﴾

الإعراب :

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ، ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ إِذِ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ الذي هو مفعول به ل ﴿أَنْذِرْهُمْ﴾ لا ظرف ، لأن الإنذار لا يكون يوم الآزفة. و ﴿الْقُلُوبُ﴾ مبتدأ ، و ﴿لَدَى الْحَناجِرِ﴾ خبر. و ﴿كاظِمِينَ﴾

حال من ضمير ﴿لَدَى﴾ أو حال من أصحاب القلوب. و : من في ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ زائدة ، تقديره : ما للظالمين حميم ولا شفيع. و ﴿يُطاعُ﴾ جملة فعلية صفة ل ﴿شَفِيعٍ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا .. فَيَنْظُرُوا﴾ إما منصوب على جواب الاستفهام بالفاء بتقدير «أن» أو مجزوم عطفا على ﴿يَسِيرُوا﴾ و ﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب ، لأنها خبر ﴿كانَ﴾ و ﴿عاقِبَةُ﴾ : اسم كان المرفوع ، وفي ﴿كَيْفَ﴾ ضمير يعود على العاقبة. ويجوز جعل ﴿كانَ﴾ تامة ، فلا تحتاج إلى خبر ، فيكون ﴿كَيْفَ﴾ ظرفا ملغى لا ضمير فيه. وكذلك ﴿كانُوا﴾ في قوله : ﴿الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ﴾ يجوز فيها الوجهان ، ويكون ﴿أَشَدَّ﴾ إذا جعلت ﴿كانَ﴾ بمعنى «وقع» حالا. و ﴿قُوَّةً﴾ تمييز. وجملة كان واسمها وخبرها مفعول : ينظروا. و ﴿كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ جواب ﴿كَيْفَ﴾.

البلاغة :

﴿ما لِلظَّالِمِينَ﴾ أي الكفار ، فيه وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على اختصاص ذلك بهم ، وإنه لظلمهم.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾؟ استفهام إنكاري.

﴿السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ من صيغ المبالغة.

المفردات اللغوية :

﴿يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ يوم القيامة ، سميت بها لأزوفها ، أي قربها ، يقال : أزف الرحيل يأزف أزفا : قرب ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ﴾ ترتفع خوفا عند الحناجر أي الحلوق ، جمع حنجرة أو حنجور كحلقوم لفظا ومعنى. ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ الكفار ﴿كاظِمِينَ﴾ ممتلئين غما ﴿حَمِيمٍ﴾ قريب نافع أو محب ﴿وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ﴾ مشفع أي تقبل شفاعته ، ولا مفهوم للوصف : ﴿يُطاعُ﴾ إذ لا شفيع لهم أصلا كما قال تعالى ﴿فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ١٠٠] أوله مفهوم بناء على زعمهم أن لهم شفعاء أي لو شفعوا فرضا لم يقبلوا.

﴿يَعْلَمُ﴾ الله ﴿خائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ أي النظرة الخائنة ، كالنظرة الثانية إلى الحرام ، واستراق النظر إليه ، فالمراد الأعين الخائنة : وهي التي تختلس النظر إلى المحرّم وتسارقه ﴿وَما تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ القلوب ، أي ما تكتمه الضمائر. والجملة خبر خامس للقلوب ، للدلالة على أنه ما من خفي إلا وهو متعلّق العلم والجزاء.

﴿وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِ﴾ لأنه المالك الحاكم على الإطلاق ، فلا يقضي بشيء إلا وهو حقه ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعبدون ، أي كفار مكة ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي الأصنام ﴿لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ فكيف يكونون شركاء لله؟ وهذا تهكم بهم ، لأن الجماد لا يقال فيه : إنه يقضي أو لا يقضي ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ السميع لأقوالهم البصير بأفعالهم ، وهذا تعليل وتقرير لعلمه بخائنة الأعين وقضائه بالحق ، ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون ، وتعريض بحال ما يدعونه من دونه.

﴿عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مآل حال الذين كذبوا الرسل قبلهم كعاد وثمود ﴿كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرة وتمكنا ﴿وَآثاراً فِي الْأَرْضِ﴾ من قلاع ومصانع وقصور ومدائن حصينة ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ﴾ أهلكهم ﴿واقٍ﴾ حافظ يدفع عنهم السوء أو العذاب.

﴿بِالْبَيِّناتِ﴾ بالمعجزات الظاهرات والأحكام الواضحة ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾ متمكن مما يريده غاية التمكن ﴿شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ ليس هناك عقاب أشد منه.

المناسبة :

بعد بيان كون الأنبياء ينذرون الناس يوم التلاق ، أتى بأوصاف هائلة رهيبة أخرى ليوم القيامة ، لتخويف الكفار بعذاب الآخرة ، ثم خوفهم بعذاب الدنيا المماثل لإهلاك الأمم السابقة الذين كذبوا الرسل.

التفسير والبيان :

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ﴾ أي خوف أيها الرسول الكفار يوم القيامة ، ليؤمنوا ويقلعوا عن الشرك ، ذلك اليوم الذي لكأن القلوب تزول من مواضعها من الخوف ، وترتفع حتى تصير إلى الحلوق ، حال كون أصحابها مكروبين ممتلئين غما.

﴿ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ﴾ أي وحال كون أولئك الكافرين ليس لهم قريب ينفعهم ، ولا شفيع مشفع تقبل شفاعته لهم.

والمقصود بالآية تخويف الكفار وترويعهم من شدة الخوف وأهوال يوم

القيامة. وفي الآية إشارة إلى أن الكفار يوم القيامة يشتد خوفهم ، حتى لكأن قلوبهم لدى حلوقهم ، وفيها تصريح بعدم جدوى شفاعة الأصنام كما زعموا وتأملوا.

والقيامة وإن طال زمانها في تقدير الناس إلا أنها آتية من غير أي شك فيها ، وكل آت قريب ، كما قال تعالى : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر ٥٤ / ١] وقال جل وعلا : ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١] وقال سبحانه : ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل ١٦ / ١] وقال عَزَّوَجَلَّ : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً ، سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الملك ٦٧ / ٢٧].

ثم أعلمهم تعالى بشمول علمه وضبطه ودقته ، فقال :

﴿يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ أي إن الله يعلم النظرة الخائنة التي ينظرها العبد إلى المحرّم ، ويعلم ما تسرّه الضمائر من أمور خيّرة أو شريرة ، حتى حديث النفس أو خواطر النفس. وهذا يعني أن علم الله تام محيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ، ليحذر الناس علمه فيهم ، فيستحيوا من الله حق الحياء ، ويتقوه حق تقواه ، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه ، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة ، وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر ، أي مضمرات القلوب.

قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في هذه الآية : هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم ، وفيهم المرأة الحسناء ، أو تمرّ به وبهم المرأة الحسناء ، فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غض بصره عنها ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا فطنوا غض ، وقد اطّلع الله تعالى من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها [١].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن أبي شيبة وابن المنذر.

﴿وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِ﴾ أي والله يحكم بالحكم العادل ، فيجازي بالحسنة الحسنة ، وبالسيئة السيئة ، ويجازي كل أحد بما يستحقه من خير أو شر.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ، إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي والذين يعبدونه من الأصنام من غير الله ، لا يتمكنون من القضاء بشيء ، أي فلا يحكمون بشيء ، ولا يملكون شيئا ، لأنهم لا يعلمون شيئا ، ولا يقدرون على شيء ، فالذي تجب عبادته هو القادر على كل شيء ، ولا يخفى عليه شيء ، فإن الله سميع لأقوال خلقه ، بصير بأفعالهم ، فيجازيهم عليه يوم القيامة.

وهذا وعيد لهم على أقوالهم وأفعالهم وأنه يعاقبهم عليه ، وتصريح بعدم جدوى عبادة الأصنام والأوثان والأنداد وغيرها من المعبودات ، وتهكم بهم ، لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه : يقضي أو لا يقضي.

هذه موجبات التخويف من عذاب الآخرة ، ثم خوفهم الله تعالى بعذاب الدنيا ، فقال :

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ، كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ﴾ أي أرشدهم الله تعالى إلى الاعتبار بغيرهم ، والمعنى : أفلم يمش هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ، فينظروا مآل حال الذين مضوا من الكفار المكذبين بالأنبياء ، وما حل بهم من العذاب والنكال ، مع أنهم كانوا أشد قوة من هؤلاء الحاضرين من كفار مكة وأمثالهم ، وأبقى آثارا في الأرض ، بما عمروا فيها من الحصون والقصور ، وأقاموا من المدن والحضارات.

فأهلكهم الله بسبب ذنوبهم ومعاصيهم ، وما كان لهم من دافع يدفع عنهم العذاب ، وللكافرين أمثالها. وهذا تحذير واضح للكافرين في كل زمان بما حل بالأمم الغابرة.

ونظير بعض الآية : قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٢٦] وقال سبحانه : ﴿وَأَثارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها﴾ [الروم ٣٠ / ٩].

ثم ذكر الله تعالى علة إهلاكهم وتدميرهم ، فقال :

﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ ، فَكَفَرُوا ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ ، إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ أي ذلك الأخذ والإهلاك بسبب أن رسلهم كانوا يأتونهم بالحجج الواضحة على الإيمان الحق ، فكفروا بما جاءوهم به ، فأهلكهم الله ودمّر عليهم ، إن الله ذو قوة عظيمة وبطش شديد ، يفعل كل ما يريده ، لا يعجزه شيء ، وعقابه أليم شديد وجيع لكل من عصاه ، فيا أيها الكفار والعصاة اعتبروا واتعظوا بغيركم ، فالسعيد من وعظ بغيره.

فقه الحياة أو الأحكام :

موضوع الآيات شيئان : التخويف من عذاب الآخرة ، والتحذير من عذاب الدنيا.

أما عذاب الآخرة : فقد ذكر الله تعالى ثمانية أسباب موجبة للخوف وهي [(١)] :

١ ـ أنه سمى ذلك اليوم يوم الآزفة ، أي يوم القرب من العذاب لمن أذنب.

٢ ـ أنه بلغ ذلك الخوف إلى أن زال القلب من الصدر وارتفع إلى الحنجرة.

٣ ـ لا يمكنهم أن ينطقوا لشدة ما اعتراهم من الحزن والخوف ، وذلك يوجب القلق والاضطراب.

٤ ـ ليس لهم قريب ينفعهم ، ولا شفيع يطاع فيهم ، فتقبل شفاعته.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٧ / ٥٢

٥ ـ أنه سبحانه عالم بكل شيء صغير أو كبير ، دقيق أو جليل ، وهذا يوجب شدة الخوف.

٦ ـ الله يقضي بالحق المطلق والعدل التام ، وهذا أيضا يوجب عظم الخوف.

٧ ـ لا فائدة مما عول عليه المشركون من شفاعة الأصنام ، فهم لا يقضون بشيء.

٨ ـ إن الله يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام ونحوها من المعبودات الباطلة ، ويبصر خضوعهم وسجودهم لها.

وأما عذاب الدنيا : فأمام هؤلاء الكفار المكذبين لرسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم نماذج وألوان من عذاب الأمم القديمة المكذبة رسلها ، وقد نزل بهم العذاب لأجل أنهم كفروا وكذبوا الرسل ، وهؤلاء الحاضرون يشاهدون آثار دمارهم وهلاكهم ، والله يحذر الكفار قوم الرسول من مثل أفعال أولئك الماضين ، وقد ختم الكلام بقوله : ﴿**إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ**﴾ مبالغة في التحذير والتخويف.

قصة موسى عليه‌السلام مع فرعون وهامان

ـ ١ ـ

تعذيب بني إسرائيل والتهديد بقتل موسى

﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٢٥) وَقالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ**

إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ (٢٦) وَقالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ (٢٧)﴾

البلاغة :

﴿وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ فيه وضع الظاهر وهو ﴿الْكافِرِينَ﴾ موضع الضمير أي كيدهم لتعميم الحكم والدلالة على العلة وهي الكفر.

﴿كَذَّابٌ﴾ صيغة مبالغة.

المفردات اللغوية :

﴿بِآياتِنا﴾ أي المعجزات ﴿وَسُلْطانٍ﴾ حجة وبرهان ﴿مُبِينٍ﴾ ظاهر واضح ، والعطف بين الآيات والسلطان لتغاير الوصفين ﴿فِرْعَوْنَ﴾ ملك مصر ﴿وَهامانَ﴾ وزير فرعون ﴿وَقارُونَ﴾ كان ثريا ﴿ساحِرٌ كَذَّابٌ﴾ يعنون موسى عليه السلام ، وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبيان عاقبة من هو أشد بطشا من الذين كانوا من قبلهم وأقربهم زمانا.

﴿بِالْحَقِ﴾ بالصدق ﴿قالُوا : اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ﴾ استبقوهم أحياء ، والمعنى : أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلون بهم من قتل الأولاد الذكور وإبقاء النساء أحياء للخدمة ﴿وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ ضياع.

﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ : ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ فيه غاية الكيد والحقد والتجلد وعدم المبالاة بدعاء ربه ليمنعه منه ﴿إِنِّي أَخافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أن يغير ما أنتم عليه من عبادتي وعبادة الأصنام. ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ﴾ أي ما يفسد دنياكم من القتل والتجارب وإثارة الفتن إن لم يقدر أن يبطل دينكم ﴿وَقالَ مُوسى﴾ لقومه لما سمع كلام فرعون ﴿إِنِّي عُذْتُ﴾ استعذت واستجرت واستعنت ، وبدأ ب «إن» للتأكيد والدلالة على أن السبب المؤكد في دفع الشر هو العياذ بالله ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ خص اسم الرب ، لأن المطلوب هو الحفظ والتربية ، وقوله : ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ للحث على الاقتداء به ، فيتعوذوا بالله مثله ويعتصموا بالتوكل عليه مثله ﴿مِنْ

﴿كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ لم يسم فرعون ، وذكر وصفا يعمه وغيره لتعميم الاستعاذة بحيث تشمل فرعون وغيره من الجبابرة ، ولاستخدام طريقة التعريض التي هي أبلغ. والتكبر : الاستكبار عن الإذعان للحق ، وهو أقبح استكبار ﴿لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ﴾ ذكر هذا لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة ، استكمل وصف القسوة والجرأة على الله وعلى عباده.

المناسبة :

لما سلّى الله تعالى رسوله بذكر عاقبة الكفار الذين كذبوا الأنبياء قبله وبمشاهدة آثارهم ، سلاه أيضا بذكر قصة موسى عليه السلام التي دلت على أنه مع قوة معجزاته ، كذبه فرعون وهامان وقارون ، وقالوا عنه : هو ساحر كذاب. ولكن في النهاية انتصر عليهم ، وتلك بشارة لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة ، كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام .

التفسير والبيان :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ أي تالله لقد أرسلنا موسى بالمعجزات التي هي الآيات التسع كاليد والعصا ، وبحجة بينة واضحة وبرهان قوي.

﴿إِلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ ، فَقالُوا : ساحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أرسلنا موسى إلى فرعون ملك مصر ، وهامان وزيره ، وقارون أغنى أهل زمانه ، فقالوا عنه : إنه ساحر مخادع مجنون مموه ، كذاب فيما زعم أن الله أرسله ، كما قال تعالى : ﴿كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا : ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَتَواصَوْا بِهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ﴾ [الذاريات ٥١ / ٥٢ . ٥٣].

وخص هؤلاء الطغاة بالذكر ، لأنهم رؤساء المكذبين بموسى ، وغيرهم تابع لهم. وشأن الجبابرة عدم الإصغاء للحجة والمنطق واللجوء إلى القوة ، كما قال

تعالى : ﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا﴾ أي بالبرهان القاطع الدال على أن الله عَزَّوَجَلَّ أرسله إليهم ، وهي معجزاته الظاهرة الواضحة.

﴿قالُوا : اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ﴾ أي قال أولئك الطغاة : عودوا إلى قتل الذكور وترك النساء ، لئلا يكثر جمعهم ، ولكي يضعف شأنهم. وهذه هي المرة الثانية بالأمر بذلك بعد بعثة موسى ، وكانت المرة الأولى قبل ولادة موسى ، لأجل تفادي وجوده ، ولإذلال الشعب الإسرائيلي ، ولتقليل عددهم ، لئلا ينصروا عليهم. ولكن الله تعالى أحبط كيدهم وأفشل خطتهم كما قال :

﴿وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ أي وما مكرهم وقصدهم تقليل عدد بني إسرائيل إلا في ضياع وذهاب سدى ، لم يحقق فائدة لهم ، فإنهم لما باشروا قتلهم أولا ، فما أفادهم ، وعاش موسى ، فكذلك لا يفيدهم تجديد مأساة القتل الجماعي ، وسيكون النصر للمؤمنين.

ولكنه زاد في هذه المرة العزم على قتل موسى ، فقال :

﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ : ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى ، وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي قال فرعون لقومه : دعوني أقتل موسى ، وليدع ربه الذي يزعم أنه أرسله إلينا ، فليمنعه من القتل إن قدر على ذلك ، ولا أبالي به. وهذا في الظاهر استهانة بدعاء رب موسى ، وفي الباطن كان يرتعد من دعائه ، فقوله : ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ شاهد صدق على فرط خوفه منه.

وسبب القتل ما قال تعالى :

﴿إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ﴾ أي إني أخشى أن يغير منهاج دينكم الذي أنتم عليه من عبادتي وعبادة الأصنام ، ويدخلكم في

دينه الذي هو عبادة الله وحده ، أو أن يوقع بين الناس الخلاف والفتنة ، فتكثر الخصومات والمنازعات ، وتثار القلاقل والاضطرابات. والمراد : إظهار الخوف من تبديل الدين أو إفساد أمر الدنيا.

وإذا كان فرعون اعتز بجبروته وقوته ، فإن موسى عليه السلام اعتصم بالله ، فقال :

﴿وَقالَ مُوسى : إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ، لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ﴾ أي لما بلغ موسى قول فرعون : ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى ..﴾ قال : إني استجرت بالله وعذت به من شره وشر أمثاله من كل متعاظم متعال مستكبر عن الإذعان للحق ، كافر مجرم لا يؤمن بالبعث والحساب والجزاء.

وقد استعاذ موسى ممن جمع بين الاستكبار والتكذيب بالجزاء ، لأنهما عنوان الجرأة على الله وعلى عباده. وقال موسى ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ لحث قومه على مشاركته في الاستعاذة بالله من شر فرعون وملئه.

وقد ثبت في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا خاف قوما قال : «اللهم انا نعوذ بك من شرورهم ، وندرأ بك في نحورهم».

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ يشترك الأنبياء في أمور هي تأييدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم ، وإعراض أقوامهم عنهم ، واتهامهم بالكذب والتمويه والسحر ، والتهديد بالطرد والتشريد أو القتل والتعذيب ، ولكن النصر في النهاية للأنبياء والمؤمنين.

٢ ـ وهذا المنهج هو ما عرف عن قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه ، أيده الله بالمعجزات وهي الآيات التسع المذكورة في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ﴾ [الإسراء ١٧ / ١٠١]. وكان ابتلاء الله موسى برؤوس الطغيان والكبرياء وهم فرعون الملك ، وهامان الوزير ، وقارون صاحب الأموال والكنوز الذي اتفق مع فرعون وهامان في الكفر والتكذيب ، فلما عجزوا عن معارضته بالحجة ، وأبوا الإذعان للمنطق ، وصفوا المعجزات بالسحر ، ووصفوه بالكذب.

٣ ـ وزاد طغيان فرعون ، وامتد إلى القتل الجماعي لبني إسرائيل ، وإبادة الأولاد الذكور بعد الولادة ، وإبقاء النساء أحياء للإذلال والخدمة والإهانة ، لئلا ينشأ الأطفال على دين موسى ، فيقوى بهم ، وتلك عودة منه إلى عادته القديمة بارتكاب هذه المنكرات.

قال قتادة : هذا قتل غير القتل الأول ، لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسى ، فلما بعث الله موسى ، أعاد القتل على بني إسرائيل عقوبة لهم ، فيمتنع الإنسان من الإيمان ، ولئلا يكثر جمعهم ، فيعتضدوا بالذكور من أولادهم ، فشغلهم الله عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب ، كالضفادع والقمّل والدم والطوفان ، إلى أن خرجوا من مصر ، فأغرقهم الله تعالى.

٤ ـ تحقق نصر الله تعالى لموسى عليه السلام ، وأحبط مكائد فرعون وقومه ، وجعل مكرهم في خسران وضياع ، فإن الناس لا يمتنعون من الإيمان ، وإن فعل بهم مثلما فعل فرعون أو أشد.

٥ ـ عزم فرعون أيضا على قتل موسى غير مبال ببطش الله وقوته ، وأبان لقومه السبب الموجب لقتله وهو أن وجوده يؤدي إلى أحد أمرين أو كليهما : إما فساد الدين أو فساد الدنيا. والمراد بالدين : هو عبادة فرعون والأصنام ،

والمقصود بفساد الدنيا : إيقاع الخصومات ، وإثارة الفتن والقلاقل والاضطرابات.

٦ ـ لما هدد فرعون بالقتل ، لجأ موسى إلى ربه مستعيذا به من كل متعظم عن الإيمان ، ولا يؤمن بالآخرة.

٧ ـ استنبط الرازي من كلمات موسى ودعائه ثماني فوائد هي بإيجاز :

الأولى ـ إن قول موسى ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ مستخدما لفظة ﴿إِنِّي﴾ الدالة على التأكيد ، للدلالة على أن الطريق المؤكد المفيد في دفع الشرور والآفات عن النفس ، الاعتماد على الله ، والتوكل على عصمة الله تعالى.

الثانية ـ الاستعاذة بالله تصون الإنسان من شياطين الإنس والجن ، فإذا قال المسلم : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وساوس شياطين الجن ، فكذلك إذا قال المسلم : أعوذ بالله ، فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات.

الثالثة ـ قوله ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ : لما كان المولى ليس إلا الله ، وجب ألا يرجع العاقل في دفع كل الآفات إلا إلى حفظ الله تعالى ، فهو المربي والحافظ.

الرابعة ـ قوله ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ فيه بعث أو حث لقوم موسى عليه السلام على أن يقتدوا به في الاستعاذة بالله.

الخامسة ـ لم يذكر موسى فرعون في دعائه ، رعاية لحق تربيته له في الصغر.

السادسة ـ بالرغم من عزم فرعون على قتل موسى ، فلا فائدة في الدعاء عليه بعينه ، بل الأولى الاستعاذة بالله في دفع كل من كان موصوفا بصفة التكبر والكفر بالبعث ، حتى يشمل كل من كان عدوا ظاهرا أو خفيا.

السابعة ـ إن الجرأة على إيذاء الناس أمران : أحدهما ـ كون الإنسان متكبرا قاسي القلب ، والثاني ـ كونه منكرا للبعث والقيامة ، وقد اتصف فرعون بالأمرين.

الثامنة ـ أجاب موسى عن استهزاء فرعون بقوله : ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ : بأن ما ذكرته يا فرعون بطريق الاستهزاء هو الدين الحق ، وأنا أدعو ربي ، وأطلب منه أن يدفع شرك عني ، وسترى كيف أن ربي يقهرك ، وكيف يسلطني عليك. وهو رد قولي وفعلي.

الخلاصة من هذا الدعاء : أن طريق دفع كيد الأعداء وإبطال مكرهم هو الاستعاذة بالله ، والرجوع إلى حفظ الله تعالى.

ـ ٢ ـ

قصة مؤمن آل فرعون ودفاعه عن موسى عليه‌السلام

﴿وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلاَّ ما أَرى وَما أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشادِ (٢٩) وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ (٣١) وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ

﴿(٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)﴾

الإعراب :

﴿أَنْ يَقُولَ : رَبِّيَ اللهُ﴾ منصوب بنزع الخافض ، أي بأن يقول.

﴿وَإِنْ يَكُ كاذِباً﴾ حذفت النون من ﴿يَكُ﴾ لكثرة الاستعمال ، وهو رأي جمهور النحاة ، أو تشبيها لها بنون الإعراب في نحو «يضربون» وهو قول المبرّد ، والوجه الأول أوجه.

﴿ظاهِرِينَ﴾ حال.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ مِثْلَ﴾ : بدل منصوب من ﴿مِثْلَ﴾ الأول في قوله تعالى : ﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ﴾.

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ يَوْمَ﴾ بدل منصوب من ﴿يَوْمَ﴾ الأول في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ التَّنادِ﴾.

﴿الَّذِينَ يُجادِلُونَ .. الَّذِينَ﴾ : بدل منصوب من ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى : ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ﴾ ويجوز جعله خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هم الذين. ورأى السيوطي أن ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ ، و ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ ..﴾ هو الخبر.

البلاغة :

﴿كاذِباً﴾ و ﴿صادِقاً﴾ بينهما طباق.

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً ..﴾ استفهام على سبيل الإنكار.

﴿كَذَّابٌ جَبَّارٍ﴾ من صيغ المبالغة.

المفردات اللغوية :

﴿رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ من أقاربه ، فهو ابن عم فرعون وولي عهده وصاحب شرطته ، وهو الظاهر ، وقيل : إنه رجل إسرائيلي أو غريب موحد كان يجاملهم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً﴾ أتقصدون قتله؟ ﴿أَنْ يَقُولَ﴾ لأن يقول : ﴿رَبِّيَ اللهُ﴾ وحده ، وذلك من غير روية وتأمل في أمره ﴿وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ﴾ بالمعجزات الظاهرات والبراهين الواضحات على وحدانية الله والدالة على صدقه ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ نسب الرب إليهم استدراجا لهم إلى الاعتراف به ، ثم احتج عليهم بقوله : ﴿وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ : لا يتخطاه وبال كذبه وضرره ، فلا حاجة إلى قتله ﴿وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ فلا أقل من أن يصيبكم بعضه. قال البيضاوي : وفيه مبالغة في التحذير ، وإظهار للإنصاف وعدم التعصب ، ولذلك قدم كونه كاذبا ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ مشرك مفتر ، فالمسرف : المقيم على المعاصي المكثر منها ، والكذاب : المفتري. وهو احتجاج ثالث من وجهين : أحدهما ـ أنه لو كان مسرفا كذابا لما هداه الله إلى البينات ، ولما عضده بتلك المعجزات ، وثانيهما ـ أن من خذله الله وأهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله. وفيه تعريض بفرعون وتكذيب ربوبيته.

﴿ظاهِرِينَ﴾ غالبين عالين على بني إسرائيل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جاءَنا﴾؟ من يمنعنا من عذاب الله إن قتلتم أولياءه؟ أي لا ناصر لنا ، وإنما أدرج نفسه في ضميري الفعلين لأنه كان قريبا لهم ، وليريه أنه معهم ﴿قالَ فِرْعَوْنُ : ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى﴾ أي ما أشير عليكم إلا بما أشير به على نفسي ، وهو قتل موسى ﴿وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ﴾ أي ما أدلكم إلا على طريق الصواب.

﴿إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ﴾ في تكذيبه والتعرض له ﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ﴾ أي مثل أيام الأمم الماضية ، يعني وقائعهم ، و ﴿الْأَحْزابِ﴾ الأقوام الذين تحزّبوا على أنبيائهم وكذبوهم ، وكلمة ﴿يَوْمِ﴾ مفرد مضاف فيعم ، فقد أغنى جمع الأحزاب عن جمع اليوم ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ ...﴾ أي مثل عادة وجزاء ما كانوا عليه من الكفر وإيذاء الرسل ، بتعذيبهم في الدنيا واستئصالهم ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط ﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ﴾ فلا يعاقبهم بغير ذنب ، ولا يترك الظالم منهم بغير انتقام ، وهو أبلغ من قوله : ﴿وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ لأن المنفي فيه عدم تعلق إرادته بالظلم.

﴿يَوْمَ التَّنادِ﴾ يوم القيامة ، ينادي فيه بعضهم بعضا للاستغاثة ، ويكثر فيه نداء أصحاب الجنة وأصحاب النار وبالعكس ، فينادى بالسعادة لأهل الجنة ، وبالشقاوة لأهل النار وغير ذلك

﴿مُدْبِرِينَ﴾ منصرفين عن موقف الحساب إلى النار ﴿ما لَكُمْ مِنَ اللهِ﴾ من عذابه ﴿مِنْ عاصِمٍ﴾ مانع يعصمكم من عذابه.

﴿وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ﴾ يوسف بن يعقوب عليه السلام ، من قبل موسى عليه السلام ﴿بِالْبَيِّناتِ﴾ بالمعجزات الظاهرات الدالة على صدقه ﴿هَلَكَ﴾ مات يوسف ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ فيه تكذيب رسالته في حياته والكفر بها ، وتكذيب رسالة من بعده ﴿كَذلِكَ﴾ مثل إضلالكم ﴿يُضِلُّ اللهُ﴾ في العصيان ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في معاصي الله مستكثر منها ﴿مُرْتابٌ﴾ شاك فيما شهدت به البينات على وحدانية الله ووعده ووعيده. ﴿سُلْطانٍ﴾ حجة قوية وبرهان ظاهر ﴿مَقْتاً﴾ المقت : أشد البغض ﴿كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ﴾ أي مثل إضلالهم يطبع (يختم) الله بالضلال على قلوب المتجبرين ، ومتى تكبر القلب تكبر صاحبه ، وبالعكس. وقرئ بتنوين ﴿قَلْبِ﴾ و ﴿كُلِ﴾ على القراءتين يراد به عموم الضلال جميع القلب ، لا عموم القلب.

المناسبة :

بعد أن حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام أنه ما زاد في دفع شر فرعون الذي عزم على قتله ، على الاستعاذة بالله ، أبان تعالى أنه قيّض له رجلا من آل فرعون يدافع عنه ، لتسكين الفتنة وإزالة الشر. واشتمل دفاعه على أمور ثلاثة كبري هي :

الأول ـ استنكار قتل موسى المؤمن بربه ، المستضعف مع قومه في مواجهة قوم فرعون.

الثاني ـ تحذيرهم بأس الله في الدنيا والآخرة في المكذبين للرسل وهم جماعات الأحزاب كقوم نوح وعاد وثمود.

الثالث ـ تذكيرهم بما فعل آباؤهم الأولون مع يوسف عليه السلام من تكذيب رسالته ورسالة من بعده.

التفسير والبيان :

﴿وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ : رَبِّيَ اللهُ ، وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي قال رجل من أقارب فرعون ورجال دولته : كيف تقتلون رجلا لا ذنب له إلا أن قال : الله ربي ، والحال أنه قد جاءكم بالمعجزات الواضحات والأدلة الدالة على نبوته وصحة رسالته وصدقه؟ فهذا لا يستدعي القتل ، فتوقف فرعون عن قتله ، بسبب صدقه في الدفاع.

قال ابن عباس رضي الله عنهما . فيما رواه ابن أبي حاتم . : «لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل ، وامرأة فرعون ، والذي قال : ﴿يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص ٢٨ / ٢٠].

والحق أنه كان لهذه الكلمة : ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ : رَبِّيَ اللهُ﴾ تأثير عظيم في نفس فرعون ، وقد كررها أبو بكر في محاولة عقبة بن أبي معيط خنق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أخرج البخاري في صحيحة عن عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولوى ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه ، فأخذ بمنكبه ، ودفعه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم قال : ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ : رَبِّيَ اللهُ ، وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؟.

وأخرج البزار وأبو نعيم في فضائل الصحابة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : «أيها الناس ، أخبروني من أشجع الناس؟ قال : أنت ، قال : أما إني ما بارزت أحدا إلا انتصفت منه ، ولكن أخبروني عن أشجع الناس ، قالوا : لا نعلم ، فمن؟ قال : أبو بكر ، رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأخذته قريش ، فهذا

يجؤه ، وهذا يتلتله ، وهم يقولون : أنت الذي جعلت الآلهة إلها واحدا!! قال : فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر ، يضرب هذا ، ويجأ هذا ، ويتلتل هذا ، وهو يقول : ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول : ربي الله؟ ثم رفع . أي علي . بردة كانت عليه ، فبكى حتى اخضلّت لحيته ، ثم قال : أنشدكم ، أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم ، فقال : ألا تجيبون؟ فو الله لساعة من أبي بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون ، ذاك رجل يكتم إيمانه ، فأثنى الله عليه في كتابه ، وهذا رجل أعلن إيمانه ، وبذل ماله ودمه».

ثم أورد مؤمن آل فرعون ست حجج أخرى مفصلة لتأييد رأيه ، فقال تعالى :

١ . ﴿وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ أي إن كان هذا الرجل كاذبا في دعوته ، كان وبال كذبه وإثمه عليه يجازيه الله في الدنيا والآخرة ، فاتركوه ، وإن كان صادقا في دعواه يصبكم بعض الذي يعدكم به إن خالفتموه من العقوبة الدنيوية والأخروية ، فاتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه.

وإنما قال : ﴿بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ فلأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يتوعدهم بعذاب الدنيا وبعذاب الآخرة ، فإذا أصابهم عذاب الدنيا ، فقد أصابهم بعض الذي يعدهم به. والمراد أنه إذا لم يصبكم كل العذاب المتوعد به ، فلا أقل من أن يصيبكم بعضه ، وفي بعض ذلك هلاككم.

٢ . ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أي لو كان موسى مسرفا في قوله ، متجاوزا حده ، كذابا في دعواه النبوة ، لما هداه الله إلى البينات ، ولا أيده بالمعجزات ، ولو كان كاذبا على الله ، خذله الله وأهلكه ، فلا حاجة لكم إلى قتله.

٣ ـ ﴿يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جاءَنا﴾؟ أي يا قومي ، قد أنعم الله عليكم بهذا الملك الواسع ، وأنتم الغالبون العالون على بني إسرائيل في أرض مصر ، فلكم الكلمة النافذة والجاه العريض ، فراعوا هذه النعمة بشكر الله وتصديق رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، فمن الذي يمنعنا من عذاب الله إن حل بنا؟ ولا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر ، ولا ترد عنا شيئا من بأس الله إن أرادنا بسوء.

وإنما قال : ﴿يَنْصُرُنا﴾ و ﴿جاءَنا﴾ لأنه كان يظهر من نفسه أنه منهم ، وأن الذي ينصحهم به هو مشارك لهم فيه ، وأنه حريص على دفع الشر عنهم ، ليتأثروا بنصحه.

فرد فرعون بنصيحة فيها مراوغة ، مظهرا أنه أخلص نصحا لقومه من هذا الرجل ، فقال تعالى :

﴿قالَ فِرْعَوْنُ : ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى ، وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ﴾ أي قال فرعون مجيبا الرجل المؤمن : ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسي ، وما أدلكم وأدعوكم إلا إلى طريق الصواب الذي يؤدي إلى الفوز والنجاة والغلبة وهو قتل موسى. وقد كذب فرعون وافترى في قوله : ﴿ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى﴾ فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الرسالة ، وكذب أيضا في قوله : ﴿وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ﴾ أي وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد ، ولكن قومه مع ذلك قد أطاعوه واتبعوه بسبب سلطانه ونفوذه ، قال تعالى : ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ، وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود ١١ / ٩٧] وقال سبحانه : ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدى﴾ [طه ٢٠ / ٩٧] جاء في الحديث الثابت الذي رواه الشيخان عن معقل بن يسار : «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت ، وهو غاشّ لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمس مائة عام».

٤ . ﴿وَقالَ الَّذِي آمَنَ : يا قَوْمِ ، إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ ، مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي لقد حذر هذا الرجل المؤمن الصالح قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة ، فبدأ بتخويف العذاب الدنيوي ، فقال : يا قومي ، إني أخشى عليكم إن كذبتم موسى أن يصيبكم مثلما أصاب الأقوام الذين تحزبوا على أنبيائهم وكذبوا رسلهم من الأمم الماضية ، كقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم كقوم لوط ، فقد حل بهم بأس الله ، ولم يجدوا لهم ناصرا ينصرهم ، ولا عاصما يحميهم. فقوله ﴿مِثْلَ دَأْبِ ..﴾ أي مثل حالهم في العذاب ، أو مثل عادتهم في الإقامة على التكذيب.

﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ﴾ أي لا يريد الله إلحاق ظلم بعباده ، فلم يهلكهم بغير جرم ، إنما أهلكهم بذنوبهم وتكذيبهم رسله ، ومخالفتهم أمره.

ثم خوفهم العذاب الأخروي ، فقال :

٥ . ﴿وَيا قَوْمِ ، إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ، ما لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ﴾ أي ويا قومي ، إني أخشى عليكم عذاب يوم القيامة ، حين ينادي بعضكم بعضا مستغيثا به من الأهوال ، أو حين ينادي أهل النار أهل الجنة ، وأهل الجنة أهل النار ، كما قال تعالى : ﴿وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ، قالُوا : نَعَمْ﴾ [الأعراف ٧ / ٤٤] وقال سبحانه : ﴿وَنادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ﴾ [الأعراف ٧ / ٤٨]. وقال عزّ وجلّ : ﴿وَنادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ [الأعراف ٧ / ٥٠].

وحين تفرّون هاربين من النار ، أو منصرفين عن الموقف إلى النار ، لا تجدون واقيا ولا مانعا ولا عاصما يعصمكم من عذاب الله ويمنعكم منه ، وهذا تأكيد للتهديد.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾ أي من أضله الله ، فلم يوفقه ولم يلهمه رشده ، فلا هادي له غيره يهديه إلى الصواب والنجاة.

٦ . ﴿وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ ، فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ ، حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ : لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ أي أذكركم بأن تكذيب الرسل موروث لديكم من الآباء والأجداد ، فلقد بعث الله لكم أي لآبائكم يا أهل مصر رسولا من قبل موسى عليه السلام هو يوسف بن يعقوب ، وجاءكم بالمعجزات الباهرات الدالة على صدقه ، والآيات الواضحات المبينة لدين الله وشرائعه ، فكذبتموه وكذبتم من جاء بعده من الرسل ، وما زلتم في شك من البينات ولم تؤمنوا به ، حتى إذا مات أنكرتم بعثة رسول من بعده ، فكفرتم به في حياته ، وكفرتم بمن بعده من الرسل بعد موته ، مما يدل على توارث التكذيب ، واستمرار العناد في مواجهة الرسل ، والكفر برسالاتهم.

﴿كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ﴾ أي مثل هذا الضلال وسوء الحال ، يكون حال من يضله الله لإسرافه في المعاصي والاستكثار منها ، وارتياب قلبه في دين الله ، وشكه في وحدانية الله ووعده ووعيده.

وصفة هؤلاء المسرفين المرتابين ما حكاه تعالى :

﴿الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ ، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي إن أولئك المسرفين المرتابين هم الذين يجادلون في آيات الله ليبطلوها ، بغير حجة واضحة ولا دليل بيّن ، ويحاربون الحق بالباطل ، كبر ذلك الجدل بغضا عند الله والمؤمنين ، لأنه جدال بالباطل لا أساس له ، أما مقت الله فهو تعذيبه العصاة ، وأما مقت المؤمنين فهو هجر الكفار وترك التعامل معهم.

﴿كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين المسرفين ، فكذلك يطبع ويختم على جميع قلوب المتكبرين الجبارين ، الذين يتكبرون على اتباع الحق ، ويتجبرون على الضعفاء بالإذلال والتسخير ، والإهانة والقتل بغير حق. قال الشعبي وغيره : لا يكون الإنسان جبارا حتى يقتل نفسين. وقال قتادة : آية الجبابرة القتل بغير حق. وقال مقاتل : ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ عن قبول التوحيد ﴿جَبَّارٍ﴾ في غير حق. فهو في الأول يعادي الله ، وفي الثاني يقسو على خلق الله.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ لقد كان دفاع هذا الرجل المؤمن الصالح من آل فرعون في مجلس فرعون وسلطانه في غاية القوة والجرأة والعقل والمنطق.

٢ ـ لا مسوغ لإنسان مهما كان أن يعتدي على الحرية الدينية ويصادرها ، فكيف يصح أن يقتل رجل لا جرم له إلا أنه يقول : ربي الله؟

٣ ـ لا عذر للناس في تكذيب الرسل والكفر بهم بعد أن يأتوهم بالمعجزات الباهرات والأدلة الواضحات على صدقهم.

٤ ـ عجبا من مكذبي الرسل فإن منطقهم أعوج وتفكيرهم أخرق ، فإن الرسول إذا كان كاذبا فعليه وزر كذبه ولا يتضرر به من لا يتبعه ، وإن كان صادقا نفعهم صدقه ، وسلموا من الآفات وألوان العذاب الذي يهدد به.

وقد استخدم المؤمن هذا الأسلوب : ﴿وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ..﴾ لا لشك منه في صحة رسالة موسى وصدقه ، ولكن تلطفا في الدفاع ، وبعدا عن الأذى ، وإظهار للتجرد والموضوعية.

٥ ـ إن الله تعالى لا يهدي أبدا إلى الحق أهل الإسراف في المعاصي والكذب ، وإنه تعالى هدى موسى إلى الإتيان بالمعجزات الباهرة ، ومن هداه الله إلى ذلك لا يكون مسرفا كذابا ، وهذا يدل على أن موسى عليه السلام ليس من الكاذبين.

٦ ـ إن من المستغرب حقا أن يخشى أصحاب السلطان والقهر المعتمدين على الجند أو الجيش أو العسكر المدجج بأنواع الأسلحة الفتاكة ، من الأنبياء والرسل والقادة المصلحين الذين ليس لهم إلا البيان القوي ، والحجة الهادفة ، والكلمة المؤثرة. وما ذاك إلا لأن الحق فوق القوة وأثبت منها وأنفذ ، لذا تهتز العروش بصوت الحق ، ولا يتأثر أصحابها ببأس الأقوياء ، وقوة الشجعان.

فهذا فرعون الطاغية ملك مصر يحذر رجلا عاديا هو موسى عليه السلام لا سند له من قوة مادية أو سلاح أو عسكر.

٧ ـ كذلك لقد خوف هذا الرجل المؤمن قومه بهلاك معجل في الدنيا ، ثم خوفهم أيضا بهلاك الآخرة بقوله : ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾ فاهتز قلب فرعون.

٨ ـ زاد هذا المؤمن في الوعظ والتخويف ، وأفصح عن إيمانه ، إما مستسلما موطنا نفسه على القتل ، أو واثقا بأنهم لا يقصدونه بسوء ، وقد وقاه الله شرهم ، بقوله الحق : ﴿فَوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا﴾ [غافر ٤٠ / ٤٥] وصرح بالخوف من عذاب يوم القيامة. يوم التناد ، حيث ينادي الناس بعضهم بعضا للاستغاثة ، وينادي أهل النار أهل الجنة ، وأهل الجنة أهل النار.

٩ ـ وذكّرهم أيضا بالماضي السحيق ، حيث جاء أسلافهم نبي الله يوسف بن يعقوب عليهما السلام ، وذكّرهم قديم عتوهم على الأنبياء ، فجاءهم يوسف بالشواهد القاطعة الدالة على صدقه ، فكفروا به وكذبوه في حياته ، وكفروا بالأنبياء من بعده ، فأضلهم الله بعدئذ عن الحق والصواب.

١٠ ـ ثم ختم المؤمن كلامه بالتحذير من بقاء قومه بالشك والإسراف ، بسبب الجدال في حجج الله الظاهرة بغير حجة وبرهان ، إما بناء على التقليد المجرد ، وإما بناء على شبهات واهية ، وهؤلاء المجادلون يغضب الله عليهم ويعذبهم في جهنم ، ويبغضهم المؤمنون أشد البغض ، وتصبح قلوبهم مغلقة لا ينفذ إليها الخير.

١١ ـ ما أروع تلك الكلمات التي كان مؤمن آل فرعون يختم بها حججه وبراهينه!! فهي كما حكاها تعالى مع إقرارها دستور الحق ، وسنة الله ، وسبيل إقامة العدل ، وأساس الحساب في الدار الآخرة ، وتلك هي :

أ ـ ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ إشارة إلى علو شأن موسى عليه السلام على طريق الرمز والتعريض ، أو إلى أن فرعون مسرف في عزمه على قتل موسى ، كذاب في إقدامه على ادعاء الألوهية ، والله لا يهدي من هذا شأنه وصفته ، بل يدمره ويهدم بنيانه.

ب ـ ﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ﴾ يعني أن تدمير الأحزاب الذين تحزنوا على الرسل ، فكذبوهم وكفروا بهم ، كان عدلا ، لأنهم استوجبوه بسبب تكذيبهم للأنبياء.

ج ـ ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾ تنبيه على قوة ضلالتهم وشدة جهالتهم بعد أن أكد التهديد بقوله : ﴿ما لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ﴾.

د ـ ﴿كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ﴾ أي مثل ذلك الضلال في الآباء والأجداد يضل الله من هو مشرك ، شاكّ في وحدانية الله تعالى ، مثل قوله تعالى : ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٢٧] وقول سبحانه : ﴿وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ﴾ [البقرة ٢ / ٢٦].

هـ ـ ﴿كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين في آيات الله بالباطل من غير حجة ولا برهان ، كذلك يختم الله على جميع قلوب المتكبرين الجبابرة ، حتى لا تعقل الرشاد ولا تقبل الحق.

ـ ٣ ـ

بحث فرعون عن إله موسى استهزاء به وإنكارا لرسالته

﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ (٣٦) أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبابٍ (٣٧)﴾

الإعراب :

﴿أَسْبابَ السَّماواتِ﴾ بدل من ﴿الْأَسْبابَ﴾ الأولى. ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بالنصب جواب ﴿لَعَلِّي﴾ بالفاء ، بتقدير «أن» ، ويقرأ بالرفع عطفا على لفظ ﴿أَبْلُغُ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿فِرْعَوْنُ﴾ ملك القبط في مصر. ﴿يا هامانُ﴾ وزير فرعون. ﴿صَرْحاً﴾ بناء ضخما عاليا كالأبراج العالية اليوم. ﴿الْأَسْبابَ﴾ الطرق الموصلة إلى المطلوب ، جمع سبب : وهو ما يتوصل به إلى شيء كحبل وسلّم وطريق ، والمراد هنا : الأبواب. ﴿فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى﴾ أنظر إليه ، متأثرا بدين المشبهة الذين يعتقدون أن الله في السماء لا أنه سمع ذلك من موسى عليه‌السلام ، قال البيضاوي : ولعله أراد أن يبني له مرصدا في موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية ، فيرى هل فيها ما يدل على إرسال الله إيّاه ، أي موسى.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً﴾ لأظن موسى كاذبا في دعوى الرسالة أو في ادّعاء إله غيري ، قال

فرعون ذلك تمويها. ﴿وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أي ومثل ذلك التزيين ، زين له الشرك والتكذيب. ﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ صدّ عن سبيل الرشاد وطريق الهدى. ﴿تَبابٍ﴾ خسار وهلاك ، ومنه قوله تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ﴾ [اللهب ١١١ / ١] وقوله سبحانه : ﴿وَما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود ١١ / ١٠١].

المناسبة :

بعد وصف فرعون بأنه متكبر جبار ، أخبر الله تعالى عن عتوه وتمرده وافترائه في تكذيب موسى عليه السلام ، حتى بلغ به الأمر أن أمر وزيره ببناء قصر عال منيف شاهق من الآجر ، ليصعد به إلى السماء ، للاطلاع على إله موسى ، قاصدا بذلك التحدي والتمويه ، والاستهزاء بموسى وإنكار رسالته.

التفسير والبيان :

﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً ، لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ ، أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى ، وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً﴾ أي قال فرعون الملك لوزيره هامان بعد سماع دفاع الرجل المؤمن عن موسى : يا هامان ، ابن لي قصرا مشيدا منيفا عاليا ، لعلي أصل إلى أبواب السماء وطرقها ، فإذا وصلت إليها بحثت عن إله موسى. وهو لا يريد بذلك إلا الاستهزاء منه ، وإنكار رسالته. ثم أكّد ذلك بقوله : وإني لأظن موسى كاذبا في ادّعائه بأن له إلها غيري ، وأنه أرسله إلينا. وقد قصد بذلك التمويه والتلبيس على قومه ، من أجل إبقائهم في الكفر ، واعتقادهم بأنه هو الإله ، والاستخفاف بعقولهم ، وإيهامهم بما يريد.

وهذا تصريح من فرعون بتكذيب موسى عليه السلام في أن الله أرسله إليه ، كما قال تعالى :

﴿وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ، وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ، وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا

﴿فِي تَبَابٍ﴾ أي ومثل ذلك التزيين المفرط في الحماقة والبلادة والغباوة ، زيّن لفرعون الجبار سوء عمله وقبح صنعه ، من الشرك والتكذيب ، فتمادى في الغي ، واستمر على الطغيان ، أي زيّن له الشيطان عمله السيء ، فصده عن سبيل الهدى والرشاد ، وحجبه عن طريق الحق والعدل والسداد ، وما كان كيده واحتياله وعمله الذي يوهم به الناس إلا في خسار وضياع مال ، لذهاب نفقته سدى دون التوصل إلى شيء مما أراد.

والخلاصة : أن فعل فرعون وأمثاله صنيع المكذبين الضالين ، وأن عاقبة كفرهم وضلالهم وتكذيبهم الهلاك والخسران ، وأن تدبير فرعون الذي دبّره ليصرف الناس عن الإيمان بموسى عليه السلام مبدّد ضائع لا فائدة فيه.

فقه الحياة أو الأحكام :

تدلّ هذه الآيات على نوع من التمويه والمكر والخداع الذي لجأ إليه فرعون ، لإنكار ألوهية الله ووجوده ، وتكذيب رسالة موسى عليه السلام ، لما خاف أن يتمكن كلام الرجل المؤمن في قلوب القوم ، وقد أدرك قوة حجته ، وأصالة فكره ، وسلامة منطقه.

أوهم الناس أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد ، فإن نجح تحقق غرصه ، وإن خاب ثبّتهم على دينهم ، فأمر هامان ببناء الصّرح. ونحن نثق بوجود هذا الوزير في عهد فرعون ، وإن لم يعرف هذا الاسم في تاريخ الفراعنة ، لأن كلام الله تعالى حجة قطعية.

وأغلب المفسرين الظاهريين على أن فرعون قصد فعلا بناء الصرح ليصعد إلى السماء ، فيرى إله موسى إن كان موجودا ، وإلا أخبر قومه بعدم وجوده ، وأنه هو الإله والرّب الأعلى. واستبعد الرازي على فرعون الذكي الحاكم القوي لجوءه إلى

مثل ذلك ، لأن كل عاقل يعلم ببديهة عقله أنه يتعذر في قدرة البشر وضع بناء يكون أرفع من الجبل العالي. والراجح أن فرعون كان من الدهرية ، وغرضه من هذا الكلام إيراد شبهة تشغل الناس في نفي الإله الخالق الصانع. وكأنه يقول : لو كان إله موسى موجودا لكان له محل ، ومحله إما الأرض وإما السماء ، وإذا لم نره في الأرض ، فهو في السماء ، والسماء لا يتوصل إليها إلا بسلّم ، فيجب بناء صرح للوصول إليه.

وأبطل الرازي هذه الشبهة ، لأن طرق العلم بالأشياء ثلاثة : الحس ، والخبر ، والنظر ، ولا يلزم من انتفاء طريق واحد هو الحس ، انتفاء المطلوب ، وذلك لأن موسى عليه السلام كان قد بيّن لفرعون أن الطريق إلى معرفته تعالى إنما هو الحجة والدليل ، كما قال : ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٢٦] ، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٢٨] إلا أن فرعون لخبثه ومكره تغافل عن ذلك الدليل [١].

ولقد توهم فرعون أن الله في السماء ، فهذا دين المشبّهة ، ولعله كان على دينهم ، فهو إنما ذكر هذا الاعتقاد من قبل نفسه ، لا لأجل أنه قد سمعه من موسى عليه السلام . وربما فهم خطأ من قول موسى عليه السلام : ﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أنه ربّ السموات بمعنى كونه فيها ، كما يقال : ربّ الدار بمعنى كونه ساكنا فيها. وأما عقيدتنا فهي كما أخبر الله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ ، وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٨٤].

ويتلخص أمر فرعون في أن الشيطان زيّن له عمله وهو الشرك والتكذيب ، فصده عن سبيل الحق والرشاد ، وأصبح كيده واحتياله في دمار وخسران وضلال.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٧ / ٦٥ . ٦٦

٤٠

متابعة الرجل المؤمن نصحه لقومه

﴿وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ (٣٨) يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ (٤٠) وَيا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (٤٤) فَوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ (٤٦)﴾

الإعراب :

﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ ..﴾ الجملة بدل أو عطف بيان. والدعاء كالهداية في التعدية ب «إلى» واللام.

﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ ..﴾ فيه محذوف ، أي ليس له إجابة دعوة ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها النَّارُ﴾ : إما بدل مرفوع من قوله تعالى : ﴿سُوءُ الْعَذابِ﴾ وإما خبر مبتدأ محذوف تقديره : هو النار ، وإما مبتدأ ، وخبره : ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْها﴾.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ : مفعول به لفعل ﴿أَدْخِلُوا﴾ وقرئ بوصل همزة ﴿أَدْخِلُوا﴾ وضمها وضم الخاء ، فيكون ﴿آلَ فِرْعَوْنَ﴾ منادى مضاف ، أي ادخلوا يا آل فرعون.

البلاغة :

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها﴾ استعارة تمثيلية ، حيث شبه حالهم بحال متاع يعرض للبيع ، وجعل النار كالطالب الراغب في الكفار.

﴿غُدُوًّا﴾ و ﴿عَشِيًّا﴾ بينهما طباق.

﴿يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة في علم البديع.

﴿وَيا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ. تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ فيها توافق أواخر الآيات مع السجع البديع ، والبيان الرائع الذي يهز أعماق النفس الإنسانية.

المفردات اللغوية :

﴿اتَّبِعُونِ﴾ بإثبات الياء : اتبعوني. ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ﴾ أدلكم على طريق الصواب والسداد ، و ﴿الرَّشادِ﴾ : وهو ضدّ الغي والضلال ، وهو السبيل الذي يصل سالكه إلى المقصود الأسمى والنجاة. وفيه تعريض بأن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغي. ﴿مَتاعٌ﴾ تمتع يسير ، لسرعة زوالها ، يستمتع به زمنا قليلا ثم يزول. ﴿دارُ الْقَرارِ﴾ دار البقاء والدوام والخلود.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها﴾ عدلا من الله ، وفيه دليل على أن الجنايات في الأبدان والأموال تغرم بمثلها. ﴿بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ بغير تقدير ولا تقنين ولا موازنة بالعمل ، فهو رزق واسع لا حدود له ، فضلا من الله ورحمة. وقوله : ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ قيد أو شرط في اعتبار العمل ، وأن ثوابه أعلى من ذلك. والتعبير في جانب الثواب على العمل الصالح مع الإيمان بالجملة الاسمية. ﴿فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ للدلالة على الثبوت والاستمرار ، وتغليب الرحمة ، وجعل العمل عمدة.

﴿وَيا قَوْمِ ، ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ ..﴾ أي إلى الإيمان بالله الذي يؤدي إلى النجاة ، وقد كرر نداءهم إيقاظا لهم من الغفلة ، واهتماما بهم ، ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به نصحه من إدبار وإعراض. ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ إلى الكفر وعبادة الأوثان الموجبة لدخول النار. ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أشرك بما لا وجود له ، ولم يقم على ربوبيته دليل ولا برهان. وفيه إيماء بأن الألوهية لا بدّ لها من برهان واعتقاد بيقين.

﴿لا جَرَمَ﴾ أي حق ، وفاعله : ﴿أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ..﴾ لأعبده ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ ليس له إجابة دعوة لمن يدعو إليه ، والمعنى : حقّ عدم استحقاق آلهتكم العبادة ، لأنها جمادات ، ولأنّها ليس لها دعوة مستجابة. ﴿مَرَدَّنا إِلَى اللهِ﴾ مرجعنا بالموت إلى لقاء الله. ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين الحدّ ، الذين يغلب شرهم على خيرهم ، الواقعين في الضلالة والطغيان ، كالإشراك والكفر وسفك الدماء. ﴿هُمْ أَصْحابُ النَّارِ﴾ ملازموها.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ تتذكرون عند معاينة العذاب. ﴿ما أَقُولُ لَكُمْ﴾ من النصيحة. ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ﴾ ليعصمني من كل سوء. ﴿إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ﴾ فيحرسهم. وكان هذا جواب توعدهم المفهوم من قوله تعالى : ﴿فَوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا﴾ حماه الله وحفظه من شدائد مكرهم الذي مكروا به من القتل. ﴿وَحاقَ﴾ نزل. ﴿بِآلِ فِرْعَوْنَ﴾ بفرعون وقومه. ﴿سُوءُ الْعَذابِ﴾ بالغرق في الدنيا والموت ، والنار في الآخرة.

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها﴾ مثل يصلونها ، أي يحرقون بها ، فإن عرضهم على النار : إحراقهم بها ، مأخوذ من قولهم : عرض الحاكم الأسارى على السيف : إذا قتلهم به. ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ صباحا ومساء ، وذكر هذين الوقتين يفيد التأبيد والدوام ما دامت الدنيا ، فإذا قامت القيامة قيل لهم : ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ﴾ عذاب جهنم ، فإنه أشدّ مما كانوا فيه ، أو أشدّ عذاب جهنم. والمعنى : أن أرواح الكفار وهم في القبور تعرض على النار صباح مساء ، أي تحرق بها ، مما يدلّ على بقاء النفس ، وثبوت عذاب القبر ، كما روى ابن مسعود ﷺ : «أن أرواحهم في أجواف طير سود ، تعرض على النار ، بكرة وعشيا إلى يوم القيامة» وقد يراد بهذين الوقتين التخصيص ، فيعذبون بالنار فيهما ، وفيما بين ذلك الله أعلم بحالهم : فإما أن يعذبوا بجنس آخر من العذاب ، أو ينفّس عنهم.

المناسبة :

هذا بقية كلام مؤمن آل فرعون ، فإنه أعاد عليهم النصح مرة أخرى حينما رآهم يتمادون في كفرهم وبغيهم ، ونادى قومه ثلاث مرات ، في المرة الأولى دعاهم

في الآيات السابقة إلى قبول الدين الذي دعا إليه موسى ، على سبيل الإجمال ، وفي المرتين الأخريين على سبيل التفصيل.

فدعاهم إلى الإيمان بالله سبحانه طريق الرشاد ، ثم حذّرهم من الاغترار بالدنيا ، وحثّهم على العمل للآخرة لدوامها ، وقارن بين دعوته لهم إلى الإيمان بالله تعالى طريق النجاة ، وبين دعوتهم له إلى عبادة الأصنام طريق النار. ثم أخبر سبحانه عن وقايته وعصمته من السوء الذي دبّروه له ، وإغراق آل فرعون ، وإدخالهم في جهنم يوم القيامة.

التفسير والبيان :

﴿**وَقالَ الَّذِي آمَنَ : يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ**﴾ قال مؤمن آل فرعون يعظ قومه : يا قوم ، اتبعوني فيما أقول لكم وأدعوكم إليه ، أدلكم على طريق الرشاد والخير والسداد ، وهو اتباع دين الله الذي جاء به موسى.

وفيه تعريض بأن سبيل فرعون وآله سبيل الغي والضلال والفساد.

ثم حذرهم من الافتتان بنعيم الدنيا والاغترار بزخارفها ، فقال :

﴿**يا قَوْمِ ، إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ**﴾ أي يا قوم ، ما هذه الحياة الدنيوية إلا مجرد متاع يستمتع به قليلا ثم يزول وينتهي بالموت ، وإن الآخرة هي دار الاستقرار والبقاء والخلود ، فهي دائمة باقية لا زوال عنها ، ولا انتقال منها ، والناس إما في النعيم وإما في الجحيم ، ولا ثالث غيرهما ، فالسعيد من سعى إلى النعيم ، والشقي من سعى إلى الجحيم ، لأن النعيم فيها دائم ، والعذاب فيها دائم.

وهذا نعى للدنيا الزائلة الفانية عما قريب ، وبشارة بالآخرة الدائمة الباقية.

ثم أبان تعالى طريق تقسيم العباد وكيفية المجازاة في الآخرة ، مشيرا إلى أن جانب الرحمة غالب على جانب العقاب ، فقال :

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها ، وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ ، أي من ارتكب معصية من المعاصي ، فلا يجزى في الآخرة إلا مثلها ، عدلا من الله ، ومن عمل العمل الصالح وهو اتباع أمر الله واجتناب نهي الله ، وكان مصدقا بالله وبرسله ، فهؤلاء هم لا غيرهم أهل الجنة التي يتمتعون بنعيمها ورزقها أضعافا مضاعفة ، بغير تقدير ولا تساو مع العمل ، فضلا من الله ونعمة ورحمة.

وهذا دليل على أن جزاء السيئة مقصور على المثل ، وجزاء الحسنة خارج عن الحساب ، غير مقصور على المثل. والآية أيضا أصل كبير في أحكام الشريعة فيما يتعلق بأحكام الجنايات ، فإن مقتضى الآية أن يكون المثل مشروعا ، وأن الزائد عن المثل غير مشروع ، أي إن الواجب في الجنايات على الأنفس والأموال هو إما المثل في المثليات كالحبوب ، وإما القيمة في القيميات كالأمتعة والأثاث واللآلئ والجواهر.

ثم أكّد وكرر الرجل المؤمن دعوته إلى الله ، وصرّح بإيمانه بالله وحده لا شريك له ، فقال :

﴿وَيا قَوْمِ ، ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ ، وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ أي ما لكم يا قوم؟ أخبروني عنكم ، ما بالي أدعوكم إلى النجاة من النار ودخول الجنة ، بالإيمان بالله تعالى ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، وتصديق رسوله المبعوث إليكم من عند ربكم ، وتدعونني إلى عمل أهل النار ، بما تريدون مني من الشرك وعبادة الأصنام؟

ثم فسّر الدعوتين قائلا :

﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ أي تدعونني لأمر خطير جدا هو الكفر بالله ، والإشراك به في عبادته جهلا ولم يقم أي دليل على ألوهيته ، ولا علم لي من وجه صحيح بكونه شريكا لله ، وأنا أدعوكم إلى الإيمان بمن اتصف بصفات الألوهية الحقة ، من العزة والقدرة والغلبة والعلم والإرادة والتمكن من المغفرة والتعذيب ، فآمنوا به يغفر لكم ويعزّكم ، فهو القوي الغالب في انتقامه ممن كفر ، الغفار في عزته وكبريائه لذنب من آمن به وتاب إليه.

ثم أكّد تفنيد دعوتهم وفساد منهجهم ، فقال :

﴿لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي قد حقّ وثبت وصحّ عقلا وواقعا أن الذي تدعونني إليه من عبادة الأصنام والأنداد ليس له أي دعوة مستجابة ، فلا يجيب داعيه ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، لأنه جماد لا يسمع ولا يبصر ، ولا ينفع ولا يضرّ ، كما في آية أخرى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ، وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ. وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً ، وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٥ ـ ٦] ، وقال تعالى : ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ ، وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ ، وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [غافر ٤٠ / ١٤].

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللهِ ، وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ﴾ أي والواقع الحتمي أن مرجعنا ومصيرنا إلى الله بالموت ثم بالبعث في الدار الآخرة ، فيجازي كل إنسان بعمله ، وأن المسرفين في المعاصي ، المستكثرين منها ، المتعدّين حدود الله ، المنغمسين في الشرك والوثنية والكفر ، هم أهل النار الذين يصيرون إليها ، الخالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم بالله عَزَّوَجَلَّ .

ثم ختم كلامه بخاتمة لطيفة مؤثّرة فيها تذكير بالمستقبل وبعد نظر ، فقال :

﴿فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ ، وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ﴾ أي سوف تعلمون صدق قولي لكم من أمر ونهي ونصح وإيضاح وتذكير في وقت لا ينفع فيه الندم ، حين ينزل بكم العذاب الشديد في الآخرة ، وأتوكل على الله وأستعين به ليعصمني من كلّ سوء في مقاطعتي لكم ومباعدتكم ، فإن الله بصير بعباده ، خبير بهم ، فيهدي من يستحق الهداية ، ويضلّ من يستحق الإضلال ، وله الحجة البالغة ، والحكمة التامة ، والقدرة النافذة. قال مقاتل : هرب هذا المؤمن إلى الجبل ، فلم يقدروا عليه.

ثم أخبر الله تعالى عن مصير هذا الرجل المؤمن الجريء الناصح الفصيح ، فقال :

﴿فَوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا ، وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ﴾ أي حفظه الله وحماه في الدنيا من سوء وشرّ ما أرادوا به من قتل ، ونجّاه من بأس فرعون ، كما نجّى موسى عليه السلام ، كما نجّاه في الآخرة من النار ، وأنعم عليه بالجنة ، ونزل بفرعون وقومه سوء العذاب في الدنيا بالغرق جميعا في البحر ، وسيعذبون في الآخرة بالنار.

ثم أوضح الله تعالى ذلك العذاب السيء ، فقال :

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ، أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ﴾ أي إن أرواح فرعون وقومه بعد موتهم في عالم البرزخ ، وقبل مجيء القيامة تعرض على النار وتحرق فيها صباحا ومساء إلى قيام الساعة ، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار ، ويقال للملائكة : أدخلوا آل فرعون في جهنم ، حيث يكون العذاب فيها أشد ألما وأعظم نكالا أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة

فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار ، فمن أهل النار ، يقال له : هذا مقعدك ، حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة».

وروى ابن مسعود ﷺ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «إن أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار تعرض على النار ، بالغداة والعشي ، فيقال : هذه داركم». وفي حديث آخر عنه تقدّم : «إن أرواحهم في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح كل يوم مرتين ، فذلك عرضها».

وهذه الآية والأحاديث أصل أساسي في إثبات عذاب البرزخ في القبر ، وأن عذاب القبر حقّ واقع لا شكّ فيه. روى البخاري عن عائشة ﷺ أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن عذاب القبر ، فقال : «نعم عذاب القبر حقّ» ولكن ليس في الآية دلالة على أن الأجساد في القبور تتألم مع الروح ، وتتعذب معها ، وإنما دلّت السنّة على ذلك ، كالحديث المتقدّم : «نعم عذاب القبر حقّ» وكذلك اقتصرت دلالة الآية على عذاب الكفار في البرزخ ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بذنب ، ولكن يفهم ذلك من الأحاديث النّبوية المتقدّمة ، لكن العذاب متفاوت بدليل ما رواه ابن أبي حاتم والبزار في مسنده عن ابن مسعود ﷺ عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال :

«ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله تعالى ، قلنا : يا رسول الله ، ما إثابة الله الكافر؟ فقال : إن كان قد وصل رحما أو تصدّق بصدقة أو عمل حسنة ، أثابه الله تبارك وتعالى المال والولد والصحة وأشباه ذلك ، قلنا : فما إثابته في الآخرة؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم : عذابا دون العذاب» وقرأ : ﴿**أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ**﴾.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ كان مؤمن آل فرعون في نصحه لقومه من أشدّ الناس إخلاصا لهم وحبّا وحرصا على إنقاذهم من ورطة الكفر ، والدخول في ساحة الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وحده لا شريك له.

٢ ـ لقد كرّر النّصح وأكّده ، ونوّع الخطاب والترغيب والترهيب ، مبتدئا بالدعوة إلى الإيمان بالله ، وسلوك طريق الهدى وهو الجنة ، ونادى قومه بلطف هنا للمرة الثانية.

٣ ـ ثم حذّر من الاغترار بزخارف الدنيا ولذائذها وشهواتها ، وزهّدهم فيها بعد أن آثروها على الأخرى ، ولا يسع العاقل البصير إلا عدم التعلق الشديد بالدنيا الفانية ، وإيثار الآخرة دار الاستقرار والخلود.

٤ ـ وأبان لقومه كيفية المجازاة في الآخرة ، فمن اقترف معصية ـ وأكبرها الشرك ـ فلا يجزى إلا مثلها من العذاب عدلا من الله ، ومن عمل بما أمر الله به واجتنب ما نهى عنه ، وهو مصدق بقلبه بالله وبالأنبياء ، فهو من أهل الجنة ، فضلا ورحمة من الله ، ورزق الجنة دائم واسع لا تقدير فيه.

٥ ـ ثم نادى قومه للمرة الثالثة مؤكّدا دعوتهم إلى الإيمان الذي يوجب النجاة ، وترك الكفر الذي يوجب النار ، علما بأنه لا دليل ولا برهان يقبل على صحة الدعوة إلى الشرك ، وإنما الدليل القاطع والبرهان الساطع متوافر في صحة الدعوة إلى الإيمان بالله المتصف بصفات الألوهية الحقّة من الخلق والقدرة والإرادة والعلم والعزّة والمغفرة والتعذيب.

٦ ـ حقا إن ما يعبد من دون الله من البشر أو الأصنام ليس له استجابة دعوة تنفع ، وليس له شفاعة في الدنيا ولا في الآخرة. وكان فرعون أولا يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ، ثم دعاهم إلى عبادة البقر ، فكانت تعبد ما كانت شابة ، فإذا هرمت أمر بذبحها ، ثم دعا بأخرى لتعبد ، ثم لما طال عليه الزمان قال : أنا ربّكم الأعلى.

٧ ـ إن المسرفين وهم المشركون ، والسفهاء ، وسفاكو الدماء بغير حقها ، والجبارون والمتكبرون ، والذين تعدّوا حدود الله ، هم أصحاب النار.

٨ ـ ثم لجأ مؤمن آل فرعون إلى نوع من التهديد والوعيد ، مبينا أن قومه سيتذكرون يوم القيامة وحين حلول العذاب بهم ، ما قاله لهم ، وأما هو فقد توكّل على الله وأسلم أمره إليه ، لأنهم أرادوا قتله ، ولكن من يتوكل على الله فهو حسبه.

٩ ـ لقد حفظ الله هذا المؤمن من إلحاق أنواع العذاب به ، فطلبوه فما وجدوه ، لأنه فوّض أمره إلى الله تعالى.

١٠ ـ وأما آل فرعون فإنه نزل بهم العذاب الشامل في الدنيا وهو الغرق ، وسيعذبون في الآخرة ، ويعرضون أيضا في البرزخ في القبور على النار صباح مساء.

وهذا كما تقدّم يدلّ على إثبات عذاب القبر ، لقوله تعالى : ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا**﴾ ما دامت الدنيا. قال جمهور المفسرين : هذه الآية تدلّ على عذاب القبر في الدنيا ، ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة : ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ**﴾.

ورأى الرازي أن الآية لا تدلّ على عذاب القبر ، وإنما ذكر الغدوة والعشية

كناية عن الدوام في عذاب النار ، كقوله تعالى بالنسبة لأهل الجنة : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم ١٩ / ٦٢] [(١)].

المناظرة بين الرؤساء والأتباع في النار

﴿وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ (٤٧) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ (٤٨) وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ (٤٩) قالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا بَلى قالُوا فَادْعُوا وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٥٠)﴾

الإعراب :

﴿تَبَعاً﴾ أورده بلفظ الواحد ، وإن كان خبرا عن جماعة ، لأنه مصدر ، والمصدر يصلح للجميع.

﴿مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً﴾ مفعول به ل ﴿مُغْنُونَ﴾.

﴿إِنَّا كُلٌّ فِيها كُلٌّ﴾ : مبتدأ ، وهو في تقدير الإضافة ، و ﴿فِيها﴾ : خبره ، والجملة من المبتدأ والخبر في موضع رفع خبر (إن). ولا يجوز أن ينصب ﴿كُلٌّ﴾ على البدل من ضمير ﴿إِنَّا﴾ ، لأن ضمير المتكلم لا يبدل منه ، لأنه لا لبس فيه ، حتى يوضح بغيره. وقرئ «كلّا» على التأكيد ، لأنه بمعنى كلنا ، وتنوينه عوض عن المضاف إليه.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ﴾ جواب مجزوم ، والأكثر في كلام العرب أن يكون جواب الأمر وشبهه بغير فاء ، وهو الأفصح.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٧ / ٧٣

المفردات اللغوية :

﴿وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ واذكر يا محمد وقت تخاصم الكفار في النار ، والمحاجّة : المجادلة والتخاصم بين اثنين فأكثر. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً﴾ أتباعا جمع تابع ، كخدم جمع خادم. ﴿مُغْنُونَ﴾ دافعون أو حاملون. ﴿نَصِيباً﴾ جزءا وقسطا ، أي فهل أنتم حاملون عنّا جزءا من العذاب أو دافعون جزءا؟

﴿إِنَّا كُلٌّ فِيها﴾ نحن وأنتم ، فكيف نغني عنكم؟ ولو قدرنا لأغنينا عن أنفسنا. ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ﴾ فأدخل المؤمنين الجنة ، والكافرين النار. و ﴿حَكَمَ﴾ قضى ، ولا معقّب لحكمه. ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ هم القوّام بتعذيب أهل النار ، جمع خازن. ﴿يَوْماً مِنَ الْعَذابِ﴾ قدر يوم ﴿مِنَ الْعَذابِ﴾ شيئا من العذاب. ﴿قالُوا﴾ أي الخزنة تهكّما. ﴿بِالْبَيِّناتِ﴾ بالمعجزات الظاهرات. ﴿قالُوا : بَلى﴾ أقروا بإرسال الرسل ، لكنهم كفروا بهم. ﴿قالُوا : فَادْعُوا﴾ قال الخزنة لأهل النار : فادعوا أنتم ، فإنه لم يؤذن لنا في الدعاء لأمثالكم ، وإننا لا نشفع للكافرين ، وفيه إقناط من الإجابة ، فقال تعالى حاكيا ما أخبروهم به : ﴿وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ خسار وضياع وانعدام.

المناسبة :

هذا ابتداء قصة لا تختص بآل فرعون ، فبعد أن أوضح الله تعالى أحوال النار في عظة مؤمن آل فرعون ، ذكر تعالى عقيبها قصة المناظرة والجدل التي تجري بين الرؤساء والأتباع من أهل النار.

التفسير والبيان :

﴿وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ ، فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ﴾ أي واذكر أيها الرسول لقومك للعظة والعبرة وقت تخاصم الكفار أهل النار وهم فيها ، ومنهم فرعون وقومه ، فيقول الضعفاء الأتباع للرؤساء والسادة والقادة الذين استكبروا عن اتّباع

الأنبياء ، ومكروا لصدّ الناس عن الإيمان : إنا كنّا تابعين لكم ، وقد أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال ، ودخلنا النار بسبب اتّباعكم ، فهل تدفعون عنّا قسطا أو جزءا من العذاب ، أو تتحملونه عنّا؟ فأجابهم الرؤساء بما حكاه تعالى :

﴿قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُلٌّ فِيها ، إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ﴾ أي قال المستكبرون للمستضعفين : إنا نحن وأنتم جميعا في جهنم ، فكيف نغني عنكم؟ فلو قدرنا على دفع شيء من العذاب لدفعناه عن أنفسنا ، إن الله قضى قضاءه العادل المبرم بين العباد ، بأن فريقا في الجنة ، وفريقا في السعير ، وقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كلّ منّا ، كما قال تعالى : ﴿قالَ : لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٣٨].

ولما يئسوا من السادة اتّجهوا إلى خزنة جهنم يطلبون منهم الدعاء ، فقال تعالى :

﴿وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ : ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ﴾ أي وقال أهل النار من الأمم الكافرة لسدنة جهنم وقوّامها (وهم الملائكة القائمون عليها لتعذيب أهل النار) : ادعوا الله ربّكم لعله أن يخفف عنا مقدار يوم من العذاب ، بأن تشفعوا لنا عند الله تعالى لتخفيف يسير ، وذلك لما علموا أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يستجيب منهم ، ولا يستمع لدعائهم.

فردّت الخزنة عليهم موبّخين ملزمين لهم الحجة ، كما قال تعالى :

﴿قالُوا : أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ﴾؟ قالت الخزنة لأهل النار : أو ما جاءتكم الرسل في الدنيا بالحجج والأدلة الواضحة على توحيد الله ، والتحذير من سوء العاقبة؟! ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا﴾ [الزمر ٣٩ / ٧١].

﴿قالُوا : بَلى﴾ قال أهل النار : بلى قد جاءتنا الرسل ، فكذبناهم ، ولم نؤمن بهم ولا بما جاؤوا به من الحجج.

فلما اعترفوا قالت لهم الخزنة تهكّما :

﴿قالُوا : فَادْعُوا ، وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ أي قالت الخزنة لأهل النار : إذا كان الأمر كما ذكرتم ، فادعوا أنتم لأنفسكم ، فنحن لا ندعو لمن كفر بالله وكذّب رسله بعد مجيئهم بالحجج الواضحة ، ونحن برآء منكم ، ثم أخبروهم بأن دعاءهم لا يفيد شيئا ، فما دعاء الكافرين بالله ورسله إلا في ضياع وبطلان وذهاب لا يقبل ولا يستجاب.

أخرج الترمذي وغيره عن أبي الدرداء قال : «يلقى على أهل النار الجوع ، حتى يعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون منه ، فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ، فيأكلونه لا يغني عنهم شيئا ، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصّة ، فيغصّون به ، فيذكرون أنهم كانوا في الدنيا يجيزون الغصص بالماء ، فيستغيثون بالشراب ، فيرفع لهم الحميم بالكلاليب ، فإذا دنا من وجوههم شواها ، فإذا وقع في بطونهم قطّع أمعاءهم وما في بطونهم ، فيستغيثون بالملائكة يقولون : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ﴾ فيجيبوهم : ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ ، قالُوا : بَلى ، قالُوا : فَادْعُوا وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ . أي خسار وتبار».

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات على ما يأتي :

١ ـ يشتدّ الجدال والخصام يوم القيامة في نار جهنم بين الأتباع الضعفاء والمتبوعين الرؤساء الذين استكبروا عن الانقياد للأنبياء ، فيقول الأولون : إنّا

كنّا أتباعا لكم في الدنيا فيما دعوتمونا إليه من الشرك ، فهل أنتم الآن متحملون عنّا جزءا من العذاب؟

٢ ـ أجاب الكبراء : إنا نحن وأنتم جميعا في نار جهنم ، وإن الله قضى بين العباد ، وأخذ كل واحد منا ما يستحقه ، ولا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، فكل منا كافر.

٣ ـ لما يئس الكفار من بعضهم طلبوا من خزنة جهنم وهم ملائكة العذاب أن يدعوا لهم ربّهم بأن يخفف عنهم شيئا من عذاب جهنم ، ولو يوما واحدا.

فردت عليهم الخزنة : ألم تأتكم الرسل بالبيّنات الدالة على طريق النجاة ، والحيلولة بينكم وبين سوء العاقبة؟! وهذا دليل على أن الواجب لا يتحقق إلا بعد مجيء الشرع ، فلا تكليف قبل إرسال الرسل وإنزال الشرائع ، ولا عقاب أيضا ، كما قال تعالى : ﴿**وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ [الإسراء ١٧ / ١٥].

٤ ـ ثم قال الملائكة خزنة جهنم للكفار : ادعوا أنتم ، فإنا لا نجترئ على ذلك ، ولا نشفع إلا بشرطين :

أحدهما ـ كون المشفوع له مؤمنا.

والثاني ـ حصول الإذن في الشفاعة ، ولم يوجد واحد من هذين الشرطين.

لكن ادعوا أنتم ، للدلالة على الخيبة ، لا لرجاء النفع ، ثم يصرّحون لهم بأنه لا أثر لدعائهم ﴿**وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ**﴾ أي خسار وبطلان وزوال.

نصر الرسل على أعدائهم في الدنيا والآخرة

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (٥١) يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ (٥٣) هُدىً وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦)﴾

الإعراب :

﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ يَوْمَ﴾ : معطوف بالنصف على موضع الجار والمجرور ، وهو ﴿فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ مثل : جئتك في أمس واليوم. و ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ﴾ بدل من الأول.

﴿وَأَوْرَثْنا﴾ .. ﴿هُدىً وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ هُدىً﴾ حال من ﴿الْكِتابَ﴾ ، ﴿وَذِكْرى﴾ : معطوف عليه ، وعامل الحال : ﴿أَوْرَثْنا﴾.

﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ﴾ بكسر الهمزة : مصدر «أبكر إبكارا» وقرئ بفتحها على أنه جمع بكر ، مثل سحر وأسحار.

﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ إن بمعنى «ما» مثل ﴿إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ و ﴿كِبْرٌ﴾ مرفوع بالظرف ، وهو ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾ لأن الظرف قد فرّغ له ، مثل : ما في الدار إلا زيد.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ هُوَ﴾ ضمير فصل ، ويصح كونه مبتدأ ، وما بعده خبره ، والجملة خبر (إن).

البلاغة :

﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ بينهما طباق.

﴿السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ صيغة مبالغة.

المفردات اللغوية :

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا﴾ بالحجة والظفر على الكفرة. ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ هو يوم القيامة ، و ﴿الْأَشْهادُ﴾ جمع شاهد ، مثل أصحاب وصاحب ، وهم الذين يشهدون للرسل بالبلاغ وعلى الكفار بالتكذيب ، وهم الملائكة والأنبياء والمؤمنون ، فيكون نصر الرسل في الدارين.

﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ عذرهم ، وعدم نفع العذر ، لأنه باطل ، أو لأنه لا يؤذن للظالمين فيعتذرون. ﴿اللَّعْنَةُ﴾ الطرد والبعد من الرحمة. ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي الدار الآخرة ، وهو شدة عذابها في جهنم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى﴾ ما يهتدى به في الدين من التوراة المشتملة على الشرائع والمعجزات المثبتة للصدق. ﴿وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ﴾ أي تركنا التوراة من بعد موسى لهم. ﴿هُدىً وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ هداية وتذكرة لأصحاب العقول ، أو هاديا ومذكرا.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على أذى المشركين. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ بالنصر ، لا يخلفه أبدا.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ أمر له بالاستغفار للاستنان والتأسي به ، أو المعنى أقبل على أمر دينك ، وتدارك زلاتك ، كترك الأولى ، فإنه تعالى كافيك في النصر وإظهار الأمر. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ نزه الله مع حمده وشكره ، أي دم على التسبيح والتحميد لربك. ﴿بِالْعَشِيِ﴾ في المساء ﴿وَالْإِبْكارِ﴾ في الصباح ، وقيل : إن هذا الأمر بالصلاة في هذين الوقتين ، لأن الواجب كان بمكة ركعتين بكرة ، وركعتين عشيا. وفسره آخرون بأن ذلك يشمل الصلوات الخمس ، لأن الإبكار : صلاة الفجر ، والعشي وهو ما بعد الزوال ويشمل الصلوات الأربع الباقية.

﴿فِي آياتِ اللهِ﴾ القرآن. ﴿بِغَيْرِ سُلْطانٍ﴾ بغير حجة وبرهان. ﴿كِبْرٌ﴾ تكبر عن الحق ، وطمع في الاستعلاء عليك ، وتعظم عن التفكر والتعلم. ﴿ما هُمْ بِبالِغِيهِ﴾ ببالغي دفع الآيات أو ببالغي مرادهم. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ فالتجئ إليه من شرهم. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم. ﴿الْبَصِيرُ﴾ بأحوالهم وأفعالهم. قال السيوطي : ونزل ذلك في منكري البعث.

سبب النزول :

نزول الآية (٥٦):

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : جاءت اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فذكروا الدجال ، فقالوا : يكون منا في آخر الزمان ، فعظّموا أمره ، وقالوا : يصنع كذا ويملكون به الأرض ، فأنزل الله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ ، إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ، ما هُمْ بِبالِغِيهِ ، فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ فأمر نبيه أن يتعوذ من فتنة الدجال.

ومع أن الآية نزلت في مشركي مكة منكري البعث أو في اليهود كما تبين ، فهي عامة في كل مجادل مبطل. لكن قال ابن كثير عما ذكره أبو العالية : وهذا قول غريب ، وفيه تعسف بعيد ، وإن كان قد رواه ابن أبي حاتم. والأصح أن الآية نزلت في المشركين والكفار عامة.

التفسير والبيان :

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ أي إننا لنؤيد رسلنا والمؤمنين ، بأن نجعلهم الغالبين لأعدائهم ، القاهرين لهم ، في الدنيا ، وفي الآخرة حين يقوم الأشهاد من الملائكة والأنبياء والمؤمنين ، بأن يشهدوا للرسل بإبلاغ رسالاتهم ، وعلى الأمم بتكذيبهم.

والنصر في الدنيا إما معنوي وإما حسي ، فالمعنوي : كالنصر بالحجة والبرهان ، أو بالمدح والتعظيم ، أو بإعلاء الجاه وعزة السلطان ، وانتشار الدين ، كنصر داود وسليمان على من كذبوهم ، ونصر محمد صلى الله عليه وآله وسلم على من كذبه من قومه ، وجعل الدولة والسلطة له في الجزيرة العربية. والنصر الحسي يكون بالقهر والانتقام من المكذبين كإغراق قوم نوح وآل فرعون ، وقتل زعماء قريش في بدر

وأسر بعضهم ، وسلب أموالهم ، وقد يكون الانتقام بعد الموت ، كنصر أشعياء بعد هلاكه بتسليط الظلمة على أعدائه ، ونصر يحيى بن زكريا لما قتل ، قتل به سبعون ألفا.

والنصر في الآخرة : بإعلاء الدرجات في مراتب الثواب ، والتكريم بالكرامات في الجنة ، وصحبة الأنبياء ، كما قال تعالى : ﴿فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً﴾ [النساء ٤ / ٦٩] ومجازاة أهل الإيمان بأعمالهم ، ومجازاة الكفار بأعمالهم ، باللعن ودخول النار ، كما في الآية التالية :

﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي حين يقوم الأشهاد يوم القيامة ، ذلك اليوم الذي لا يقبل من المشركين اعتذارهم ولا تقديم فدية منهم ، لأن معذرتهم باطلة ، وشبهتهم زائفة ، ولهم الطرد والبعد من الرحمة ، ولهم سوء الدار وشر ما في الآخرة وهو النار ، والعذاب الأليم فيها.

وبعد بيان نصر الأنبياء في الدنيا والآخرة ، ذكر تعالى بعض مظاهر النصر في الدنيا ، فقال:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى ، وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ ، هُدىً وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ أي تالله لقد أعطينا موسى التوراة والنبوة ، فاشتملت التوراة على الأحكام والشرائع الهادية لقومه ، وتأيدت نبوته بالمعجزات الظاهرة كاليد والعصا ، ثم أبقينا التوراة بعد موسى عليه السلام مع بني إسرائيل ، يتوارثها الخلف عن السلف ، هداية لهم وتذكرة لذوي العقول الصحيحة السليمة ، أو هاديا ومذكرا لأهل العقول ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَنُورٌ ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ [المائدة ٥ / ٤٤].

وإذا كان النصر مقررا للرسل والأنبياء ، فما عليهم إلا الصبر ، لذا أمر الله به نبيه قائلا :

﴿فَاصْبِرْ ، إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ﴾

أي إذا كان الأمر كذلك وهو تقرير النصر للرسل وأتباعهم ، فاصبر أيها الرسول على أذى المشركين ، كما صبر من قبلك من الرسل ، فإن عاقبة الصبر خير ، فالله ناصرك وعاصمك من الناس ، ووعد الله بالنصر وغيره حق ثابت لا يخلفه أبدا ، وداوم على الاستغفار لذنبك كترك الأولى ، أو لزيادة الثواب ، أو لإرشاد المؤمنين والتأسي بك ، فإن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ودم على تنزيه الله مقرونا بحمده في أواخر النهار وأوائل الليل ، وقيل : المراد : صل في الوقتين : صلاة العصر وصلاة الفجر ، أو صل الصلوات الخمس ، كما قال تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود ١١ / ١١٤].

وهذا دليل على ضرورة الصبر والاستغفار من الأمة ، وإنما خوطب به النبي صلى الله عليه وآله وسلم للإرشاد والتعليم ، وهو دليل أيضا على ملازمة التسبيح والتحميد أو أداء الصلوات المفروضة. ويلاحظ أنه تعالى قدم التوبة والمغفرة على العمل ، فإنه لا يقبل العمل إلا بعد التوبة الخالصة ، والتوبة قد تكون من خلاف الأولى الذي هو ذنب إذا قيس مع درجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يعد شيئا في حق غيره.

ثم عاد البيان إلى توضيح سبب مجادلة المشركين في آيات الله ، فقال تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ ، إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ﴾ أي إن الذين يناقشون ويجادلون في آي القرآن ، ويدفعون الحق بالباطل ، بغير برهان ولا حجة أتتهم من الله ، ما في قلوبهم إلا تكبر وتعاظم عن قبول الحق والتفكر فيه ، وطمع أن يغلبوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وتكون لهم الرياسة والنبوة بعده ، ولكن ما هم ببالغي ذلك ، ولا بحاصل لهم ، ولا محققي المراد ، بل إن راية الحق ستظل مرفوعة ، وقول المبطلين وفعلهم موضوع ذليل. والمعنى بإيجاز : إن سبب تكذيب المشركين هو ما تنطوي عليه نفوسهم من الكبر والحسد ، وما هم بمحققي الآمال ولا بالغي المراد.

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي إن طريق العصمة من باطل هؤلاء المجادلين المستكبرين هو الاستعاذة بالله من شرهم ، واللجوء إليه والاستعانة به لدفع كيدهم ، فهو السميع لأقوالهم ، البصير بأفعالهم ، لا تخفى عليه خافية ، وهو لهم بالمرصاد ، وسيقهرون عما قريب.

فقه الحياة أو الأحكام :

يؤخذ من الآيات ما يأتي :

١ ـ إن الله تكفل بنصر عباده المرسلين وأوليائه المؤمنين في الدنيا والآخرة ، قال السّدّي : ما قتل قوم قط نبيا أو قوما من دعاة الحق من المؤمنين إلا بعث الله عَزَّوَجَلَّ من ينتقم لهم ، فصاروا منصورين فيها ، وإن قتلوا.

٢ ـ قال مجاهد والسدي : تشهد الملائكة للأنبياء بالإبلاغ ، وعلى الأمم بالتكذيب ، وقال قتادة : الملائكة والأنبياء.

٣ ـ إن الإكرام العظيم والتشريف الكامل عند حضور الجمع العظيم من أهل المشرق والمغرب يكون أتم وأبهج وأمتع.

٤ ـ قد يكون النصر والتكريم بسبب الدفاع عن المسلم ، جاء في الحديث الثابت الذي رواه البيهقي عن أبي الدرداء ، يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «من ردّ عن عرض أخيه المسلم ، كان حقا على الله عَزَّوَجَلَّ أن يردّ عنه نار جهنم ، ثم تلا : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال فيما رواه أحمد وأبو داود عن معاذ بن أنس : «من حمى مؤمنا من منافق يغتابه ، بعث الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة ملكا يحميه من النار ، ومن ذكر مسلما بشيء يشينه به ، وقفه الله عَزَّوَجَلَّ على جسر من جهنم حتى يخرج مما قال».

٥ ـ من أنواع نصر الرسل في الدنيا والآخرة : إيتاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

التوراة والنبوة ، وسميت التوراة ﴿هُدىً﴾ بما فيها من الهدى والنور. ثم جعل الله التوراة ميراثا لبني إسرائيل ، وموعظة لأصحاب العقول.

٦ ـ أمر الله نبيه بأمور ثلاثة : الصبر على أذى المشركين ، والاستغفار للذنب الصغير أو ما هو خلاف الأولى ، أو ما صدر منه قبل النبوة أو محض التعبد ، والتسبيح المقرون بالتحميد بالشكر له والثناء عليه ، أو المواظبة على صلاة الفجر وصلاة العصر ، قيل : هي صلاة كانت بمكة قبل أن تفرض الصلوات الخمس : ركعتان غدوة وركعتان عشية. وبعد نسخ ذلك لا بد من المواظبة على الصلوات الخمس. والأصح حمل الاستغفار على التوبة عن ترك الأولى والأفضل ، أو على ما كان قد صدر عنه قبل النبوة.

٧ ـ إن مجادلة المشركين في آيات الله هي بغير حجة عقلية أو نقلية ، ودافعهم إليها الكبر عن اتباع الحق ، وقصدهم إبطال آيات الله ، وإثارة الشبهات حولها ، ولكن لن يحقق الله آمالهم. وما على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأتباعه إلا الاستعاذة بالله من شر الكفار ، والاعتصام به ، والاستعانة بعزته وقدرته.

من دلائل وجود الله وقدرته وحكمته

﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (٥٩) وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ

داخِرِينَ (٦٠) اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٦١) ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَالسَّماءَ بِناءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٦٥)﴾

الإعراب :

﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ مبتدأ أو خبر.

﴿قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ قَلِيلاً﴾ : صفة مصدر محذوف ، تقديره : تذكرا قليلا تتذكرون ، و ﴿ما﴾ : زائدة ، والمعنى : لا تذكّر لهم ، لأنه قد يطلق لفظ القلة ، ويراد بها النفي ، كقولك : قلما تأتيني ، وتريد : ما تأتيني.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ اسم إن وخبرها ، واللام لام المزحلقة.

البلاغة :

﴿الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ﴾ بينهما طباق ، وكذا بين ﴿اللَّيْلَ﴾ و ﴿النَّهارَ﴾.

﴿وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ﴾ استعارة ، استعار الأعمى للكافر ، والبصير للمؤمن.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ تأكيد بإن واللام.

﴿وَالنَّهارَ مُبْصِراً﴾ مجاز عقلي ، من إسناد الشيء إلى زمانه ، وهو إسناد الإبصار إلى وقته.

﴿صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ جناس ناقصلى الله عليه وآله وسلم.

﴿لا يَعْلَمُونَ تَتَذَكَّرُونَ يُؤْمِنُونَ لا يَشْكُرُونَ تُؤْفَكُونَ يَجْحَدُونَ﴾ سجع وتوافق الفواصل في الحرف الأخير.

المفردات اللغوية :

﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ أي إن خلقها مع عظمها أولا في ابتداء خلق الكون من غير أصل : أكبر وأعظم من خلق الناس مرة ثانية في حال الإعادة للبعث ، فالقادر على الأكبر قادر على الأصغر. ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لفرط غفلتهم واتباعهم أهواءهم. ﴿وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ﴾ الغافل والمستبصر. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ أي ولا يستوي المحسن والمسيء ، و ﴿لَا﴾ زائدة في قوله : ﴿وَلَا الْمُسِيءُ﴾ وزيادتها ، لأن المقصود نفي مساواة المسيء للمحسن فيما له من الفضل والكرامة. ﴿قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون أيها الناس ، والمراد أن تذكرهم قليل جدا في حكم المعدوم ، فكأنه لا تذكر لهم. وقراءة ﴿ما تَتَذَكَّرُونَ﴾ بالتاء لتغليب المخاطب أو الالتفات ، وقرئ بالياء : «يتذكرون».

﴿لا رَيْبَ فِيها﴾ لا شك في مجيئها ، لوضوح الدلالة على حدوثها وإمكانها. ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدّقون بها لقصور نظرهم على ظاهر المحسوسات التي يحسون بها. ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ادعوني أثبكم ، بقرينة ما بعده : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ صاغرين أذلاء ، ويصح أن يراد بقوله : ﴿ادْعُونِي﴾ الدعاء والسؤال ، ويكون المراد بقوله ﴿عِبادَتِي﴾ الدعاء.

﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ ، لتستريحوا فيه ، بأن خلق الليل باردا مظلما ليؤدي إلى ضعف الحركات ، وهدوء الحواس. ﴿وَالنَّهارَ مُبْصِراً﴾ يبصر فيه أو به ، وإسناد الإبصار إليه مجاز. ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ لا يوازيه فضل. ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ ، الله ، فلا يؤمنون ، لجهلهم بالمنعم ، وتكرار الناس لتخصيص الكفر بهم.

﴿ذلِكُمُ﴾ المخصوص بالأفعال المقتضية للألوهية والربوبية. ﴿اللهُ رَبُّكُمْ ، خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبار مترادفة يخصص اللاحق منها السابق ويقرره. ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن عبادة الله والإيمان به إلى عبادة غيره. ﴿كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي مثل إفك هؤلاء وانصرافهم إلى عبادة الأصنام يؤفك ويصرف كل من جحد بآيات الله ومعجزاته ولم يتأملها.

﴿قَراراً﴾ مستقرا. ﴿وَالسَّماءَ بِناءً﴾ أي سقفا قائما ثابتا مثل القبة في أبنية العرب. ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ خلقكم في تناسب واستعداد لمزاولة أعمال الحياة. ﴿الطَّيِّباتِ﴾ اللذائذ. ﴿فَتَبارَكَ اللهُ﴾ تقدس وتنزه. ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ المنفرد بالحياة الذاتية غير المستمدة من آخر. ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾

أي هو الواحد ، إذ لا موجود يساويه أو يدانيه في ذاته وصفاته. ﴿فَادْعُوهُ﴾ فاعبدوه. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ مخلصين له الطاعة ، الخالية من الشرك والرياء.

المناسبة :

بعد الرد على المجادلين في آيات الله بتعريفهم أن جدلهم بغير سلطان ولا حجة ، وكان من جدلهم إنكار البعث ، ذكر الله تعالى في هذه الآيات وما يليها عشرة أدلة على وجود الله وقدرته وحكمته ، للدلالة على إمكان يوم القيامة ووجوده بالفعل ، منها هنا خلق السموات والأرض ، وتعاقب الليل والنهار ، وجعل الأرض قرارا والسماء بناء ، وخلق الإنسان في أحسن صورة ، ورزقه من الطيبات ، واتصافه تعالى بالحياة الذاتية والوحدانية ، وكان يردف بعض هذه الأدلة بالأمر بعبادة الله وطاعته ، والإخلاص فيها.

التفسير والبيان :

١ . ﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي إن خلق السموات والأرض وما فيهما من عوالم وأفلاك وكواكب وذخائر أكبر وأعظم من خلق نفوس الناس بدءا وإعادة ، فمن قدر على ذلك ، فهو قادر على ما دونه ، بطريق الأولى والأحرى ، عملا بمقاييس الناس وتقديراتهم ، وإلا فالبدء والإعادة سواء على الله تعالى ، فكيف ينكرون البعث؟ كما قال سبحانه : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس ٣٦ / ٨١] وقال سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ، بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى ، بَلى ، إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٣٣].

ولكن أكثر الناس لا يعلمون بعظيم قدرة الله ، ولا يتفكرون ولا يتأملون بهذه الحجة الدامغة. وهذا أول دليل على قدرة الله تعالى.

ثم ذكر الله تعالى مثلا للغافل والمجادل بالباطل ، وشبهه بالأعمى ، ومثلا للمتأمل المفكر المجادل بالحجة والبرهان ، وشبهه بالبصير ، لاستبصاره ، فقال :

﴿وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ﴾ أي لا يتساوى الذي يجادل بالباطل ، والذي يجادل بالحق ، ولا يتساوى الكافر الذي لا يتأمل حجج الله وبيناته فيتدبرها ، والمؤمن الذي يتفكر فيها ويتعظ بها ، فالأول شبيه بالأعمى الذي تعطلت عنده حاسة البصر ، والثاني شبيه بالبصير الذي تفتحت عيناه ، فتأمل في الكون واتعظ ، وهذا تشبيه بالمحسوسات ، وبينهما فرق عظيم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، وَلَا الْمُسِيءُ ، قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي وكذلك لا يستوي المحسن بالإيمان والعمل الصالح ، والمسيء بالكفر وارتكاب المعاصي ، فما أقل ما يتذكر كثير من الناس ويتعظ بهذه الأمثال ، ويدرك الفرق الواضح بين المؤمنين الأبرار المطيعين لربهم ، وبين الكفرة الفجار المخالفين أمر ربهم.

وبعد تقرير الدليل الدال على إمكان وجود القيامة ، أردفه بالإخبار عن وقوعها حتما ، فقال تعالى :

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن يوم القيامة آت لا ريب في مجيئه ووقوعه وحصوله ، فآمنوا بذلك إيمانا قاطعا لا شك فيه ، ولكن أكثر الناس وهم الكفار لا يصدقون بالبعث ، بل يكذبون بوجوده ، لقصور أفهامهم ، وضعف عقولهم عن إدراك الحجة.

ولما أثبت الله تعالى أن القيامة حق وصدق ، أوضح طريق النجاة فيها وهو طاعة الله تعالى ، فقال :

﴿وَقالَ رَبُّكُمُ : ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي

﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ أي وأخبر الله أنه إن دعاه العبد وعبده بحق ، استجاب له ، فإن «الدعاء مخ العبادة» كما في الحديث الآتي تخريجه ، فالدعاء في نفسه عبادة ، والدعاء : هو السؤال بجلب النفع ودفع الضر. ودعاء غير الله لا يفيد شيئا ، فإن القادر على إجابة الدعاء هو الله ، والله سبحانه هو الذي أمر عباده بدعائه ، ووعدهم بالإجابة ، ووعده الحق. وإن الذين يتكبرون ويتعظمون عن دعاء الله وعبادته وحده ، سيدخلون جهنم صاغرين أذلاء.

والآية اشتملت على أمر العبادة بالدعاء والتكفل لهم بالإجابة فضلا من الله وكرما ، وهذا وعد ، كذلك اشتملت أيضا على وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله ، فالله هو الكريم الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، ويغضب على من لم يطلب من فضله العظيم وملكه الواسع ما يحتاج إليه من أمور الدنيا والآخرة.

أخرج الإمام أحمد والبخاري في الأدب والحاكم وأصحاب السنن (الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه) وغيرهم عن النعمان بن بشير ﷺ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إن الدعاء هو العبادة» ثم قرأ : ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ..﴾ الآية. وأخرج الترمذي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «الدعاء مخ العبادة» لكنه ضعيف وفي حديث آخر صحيح أخرجه الحاكم عن ابن عباس قال : «أفضل العبادة الدعاء».

وأخرج أحمد والحاكم عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «من لم يدع الله ﷻ غضب عليه» وفي رواية أخرى لأحمد والبزار : «من لم يسأل الله يغضب عليه».

ثم تابع الله تعالى إيراد أدلة أخرى على قدرته ، والتذكير بنعمته على عباده ، فقال :

٢ ـ ٣ : ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً﴾ أي إن الله تعالى أوجد تعاقب الليل والنهار ، فجعل الليل باردا مظلما للسكون والنوم

والراحة وتجديد النشاط والحيوية من عناء النهار ، وجعل النهار مضيئا بالشمس لإبصار الحوائج ، وطلب المعايش ، ومزاولة الصناعة والتجارة والزراعة ، والتنقل بالأسفار وزيارة الأقطار ، وغير ذلك من مصالح العباد.

ويلاحظ أن ﴿جَعَلَ﴾ هنا بمعنى : خلق ، لأنها متعدية إلى مفعول واحد ، فإذا لم تكن بمعنى : خلق عديت إلى مفعولين مثل ﴿إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف ٤٣ / ٣].

﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ أي إن الله تعالى بهذه النعمة وغيرها مما لا يحصى هو المتفضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون النعم ولا يعترفون بها ، إما لجحودهم لها مثل الكفار ، وإما لإهمالهم النظر وما يجب من شكر المنعم ، مثل الجهال ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج ٢٢ / ٦٦]. ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٣٤]. ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات ١٠٠ / ٦]. ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ ٣٤ / ١٣].

ثم ذكر الله تعالى أنه الخالق وحده ، فتجب عبادته وحده ، فقال :

٤ ـ ٥ : ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ؟﴾ أي ذلكم الذي فعل كل هذا المذكور وأنعم بهذه النعم هو الله المربي المدبر ، فلا رب سواه ، وهو خالق الأشياء كلها ، لم يعاونه في الخلق أحد ، وهو الإله الواحد الذي لا إله سواه ، فكيف تنقلبون عن عبادته ، وتنصرفون عن توحيده ، وتعبدون غيره من الأصنام وغيرها مما لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولا يخلق شيئا ، بل هو مخلوق؟!

وهذا الضلال مرض قديم ، فقال تعالى :

﴿كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي مثل هذا الإفك

والضلال بعبادة غير الله ، ضل وأفك الجاحدون لآيات الله ، المنكرون لتوحيده ، وصرفوا عن اتباع الصراط القويم ، من غير حجة ولا برهان ، بل بمجرد الجهل والهوى.

ثم أضاف الله تعالى دليلا آخر على قدرته وحكمته ، فقال :

٦ ـ ٧ : ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَالسَّماءَ بِناءً﴾ أي إن الله هو الذي جعل الأرض موضع استقرار وثبات ، تستقر عليها المباني والأمتعة ، ويحيى فيها الأشخاص ويموتون ، ويمشون ويتصرفون في أنحائها ، وجعل أيضا السماء سقفا للعالم محفوظا قائما ثابتا أيضا ، لا ينهدم ولا يتصدع ، وزيّنه بالكواكب والنجوم.

وبعد بيان بعض دلائل الآفاق والأكوان (وهي كل ما هو غير الإنسان من هذا العالم) وهي اثنان (أحوال الليل والنهار ، وأحوال الأرض والسماء) ذكر الله تعالى دلائل الأنفس على وجوده وقدرته وهي ثلاثة (إحداث صورة الإنسان ، وتحسينها ، والرزق من الطيبات) فقال :

٨ ـ ٩ : ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ﴾ أي وخلقكم في أحسن صورة ، وأجمل شكل ، وأبدع تقويم في انتصاب القامة ، وتناسب الأعضاء ، والتهيؤ لمزاولة مختلف أنواع المكاسب والمعاشات ، ورزقكم من طيبات الرزق ولذائذه من الطعام والشراب.

﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ أي ذلكم المتصف بهذه الصفات الجليلة ، المنعم بهذه النعم العظيمة ، هو الرب الذي لا تصلح الربوبية لغيره ، فتقدس وتنزه الله رب العالمين من الإنس والجن عن صفات النقص وعما لا يليق به من الشريك والولد والصاحبة.

وبعد إثبات توحيد الربوبية أثبت توحيد الألوهية ، فقال تعالى :

١٠ . ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي إن هذا الرب المدبر المتصرف في الكون هو الحي حياة ذاتية ، الباقي الذي لا يفنى ، الأول والآخر والظاهر والباطن ، المنفرد بالألوهية ، فلا تصلح الألوهية لسواه ، فاعبدوه مخلصين له الطاعة والعبادة ، موحدين له ، مقرين بأنه لا إله إلا هو.

وهو سبحانه المستحق الحمد والثناء والشكر على نعمه ، فقال آمرا ومعلما عباده : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أي إنه صاحب الحمد ، المستحق الشكر والثناء ، رب العالمين من الملائكة والإنس والجن. والجملة خبر فيها إضمار أمر ، أي ادعوه واحمدوه.

روى ابن جرير عن ابن عباس قال : «من قال : لا إله إلا الله ، فليقل على أثرها : الحمد لله رب العالمين» ثم قرأ هذه الآية : ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾.

وروى أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن عبد الله بن الزبير قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في دبر كل صلاة : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون».

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ . إثبات البعث والاحتجاج على منكريه ، فإن خلق السموات والأرض أكبر وأعظم من إعادة خلق الناس ، والقادر على الأكبر قادر على الأصغر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك.

٢ ـ لا تساوي إطلاقا بين المؤمن والكافر والضال والمهتدي ، والذي يعمل الصالحات والذي يعمل السيئات ، كما لا تساوي بين البصير والأعمى ، ولكن لا تذكر ولا اتعاظ ولا اعتبار.

٣ ـ إن الساعة آتية لا ريب فيها ، فكما أن القيامة ممكنة الوجود ، فهي واقعة فعلا وحادثة حتما ، ولكن أكثر الناس لا يصدقون بذلك ، وعندها يبين الفرق ما بين الطائع والعاصي.

٤ ـ لا ينتفع أحد في يوم القيامة الذي هو حق وصدق إلا بطاعة الله تعالى ، وأشرف أنواع الطاعات : الدعاء والتضرع ، جاء في الحديث المتقدم : «الدعاء هو العبادة» فما على الناس إلا توحيد الله وعبادته ، والله ـ تفضلا وكرما ـ يتقبل العبادة ويغفر للعابدين. جاء في الحديث عن أنس بن مالك فيما رواه الترمذي وابن حبان : «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها ، حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع». والشسع : زمام النعل.

٥ ـ من إحسان الله العظيم أنه ذكر الوعيد الشديد على ترك الدعاء ، في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾.

٦ ـ الله خلق الليل للسكن والراحة ، وخلق النهار مضيئا لإبصار الحوائج فيه والتصرف في طلب المعايش ، والله ذو الفضل العظيم على عباده ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون فضله وإنعامه.

٧ ـ الأدلة على وحدانية الله وقدرته بيّنة واضحة ، فهو الله المربي والمدبر ، وخالق كل شيء ، والواحد الأحد ، فمن العجب كيف ينصرف الناس عن الإيمان بعد توافر أدلته؟ وكما يصرف هؤلاء عن الحق مع قيام الدليل عليه يصرف عن الحق الجاحدون بآيات الله تعالى.

٨ ـ الله تعالى خلق الأرض لعباده مستقرا لهم في حياتهم وبعد الموت ، وخلق السماء سقفا محفوظا ثابتا ، وخلق الناس في أحسن صورة وتقويم.

٩ ـ والله هو رازق الطيبات اللذائذ ، وهو الحي الباقي الذي لا يموت ، فما على الناس إلا عبادته بإخلاص ، وحمده وشكره والثناء عليه.

١٠ ـ يلاحظ أن الآيات انتهت بنهايات قوية مؤثرة تناسب المقام : وهي ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ لا يُؤْمِنُونَ لا يَشْكُرُونَ قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ يَجْحَدُونَ فَتَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾.

النهي عن عبادة غير الله وسبب النهي

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَمَّا جاءَنِيَ الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨)﴾

المفردات اللغوية :

﴿تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ تعبدون. ﴿الْبَيِّناتُ﴾ الحجج ودلائل التوحيد أو الآيات القرآنية ، فإنها مقوّية لأدلة العقل ، منبهة عليها. ﴿أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أنقاد له ﴿نُطْفَةٍ﴾ مني. ﴿عَلَقَةٍ﴾ دم غليظ. ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أطفالا ، والإفراد لإرادة الجنس. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا

﴿أَشُدَّكُمْ﴾ أي لتصلوا إلى تكامل قوتكم من الثلاثين إلى الأربعين سنة ، واللام متعلقة بمحذوف تقديره : ثم يبقيكم. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل الشيخوخة أو بلوغ الأشد. ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى﴾ أي ويفعل ذلك لتبلغوا وقتا محددا ، هو وقت الموت. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في ذلك من الحجج والعبر ودلائل التوحيد ، فتؤمنوا. ﴿قَضى أَمْراً﴾ أراد إيجاد شيء. ﴿فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ﴾ بتقدير أن ، أي يوجد عقب الإرادة التي هي معنى القول المذكور. والفاء الأولى للدلالة على أن ذلك نتيجة ما سبق ، من حيث إنه يقتضي قدرة ذاتية غير متوقفة على عدّة أو مادّة.

سبب النزول :

نزول الآية (٦٦):

﴿قُلْ : إِنِّي نُهِيتُ ..﴾ : أخرج جويبر عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة قالا : يا محمد ، ارجع عما تقول بدين آبائك ، فأنزل الله : ﴿قُلْ : إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الآية.

المناسبة :

بعد إيراد دلائل القدرة والتوحيد وصفات الجلال والعظمة ، نهى الله عن عبادة غيره ، بقول لين لطيف ، لصرف المشركين عن عبادة الأوثان ، ثم أبان سبب النهي وهو البينات التي جاءت النبي من ربه ، من دلائل الآفاق والأنفس ، أما الأولى فهي أربعة : الليل والنهار والأرض والسماء ، وأما الثانية فذكر منها سابقا ثلاثة وهي : تكوين الصورة ، وحسن الصورة ، ورزق الطيبات. وذكر منها هنا كيفية تكون الإنسان ومراحل تدرجه وأطوار حياته من الاجتنان إلى الولادة والطفولة ، إلى الشباب والكهولة ، ثم الشيخوخة ، ثم الموت.

التفسير والبيان :

﴿قُلْ : إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، لَمَّا جاءَنِي الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي﴾ قل أيها الرسول لمشركي قومك في مكة وغيرها : إن الله ينهى أن يعبد

حد من غير الله من الأصنام والأنداد والأوثان ، حين جاءتني الأدلة النقلية والعقلية من عند ربي ، وهي آي القرآن ، وما أودع في العقول السليمة من البراهين الدالة على التوحيد ، وأمرت أن أستسلم وأنقاد وأخضع لله رب العالمين ، وأخلص له ديني. ومن الآيات التي تنهى عن عبادة الأوثان قوله تعالى : ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ، وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات ٣٧ / ٩٥ ـ ٩٦].

ثم ذكر الله تعالى من دلائل الأنفس ما يدل على توحيد الله وهو كيفية تكون الإنسان ومراحل نشأته ، فقال :

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ، وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى ، وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إن الله هو الذي خلق أباكم الأول آدم من التراب ، وجعل ذريته أيضا من تراب ، إذ كل مخلوق من المني ناشئ من الدم ، والدم من الغذاء ، والغذاء من النبات ، والنبات من الماء والتراب ، فثبت أن كل إنسان متكون من التراب ، ثم صيّر الله ذلك التراب نطفة (منيا) ثم علقة (قطعة دم متجمدة) ثم ولدتم وأخرجتم أطفالا ، ثم وصلتم إلى بلوغ الأشد أي مرحلة اكتمال القوة والعقل ، ثم تصيرون شيوخا (والشيخ : من جاوز الأربعين).

ومن الناس من يتوفى من قبل الشيخوخة أو الشباب أو الولادة ، وقد فعل ذلك لتبلغوا الأجل المحدود وهو وقت الموت أو يوم القيامة ، واللام لام العاقبة أو الصيرورة ، ولكي تعقلوا ما في هذا التدرج والتطور في المراحل المختلفة من دليل دال على قدرة الله البالغة على البعث وغيره ، وعلى توحيد ربكم ، في خلقكم على هذه الأطوار :

طور الاجتنان ، وطور الطفولة ، وطور بلوغ الأشد ، وطور الشيخوخة ،

ففي هذا التغير والانتقال دلالة على وجود الله ، ثم أتبع ذلك بدليل آخر من التغير والانتقال فقال:

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي وإن الله هو القادر على الإحياء والإماتة ، والمتفرد بذلك لا يقدر عليه أحد سواه ، فإذا قضى وقدر أمرا من الأمور التي يريدها ، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي يحدث فور الإرادة من غير توقف على شيء ، ولا معاناة ولا كلفة. وهذا أقصى ما يمكن به تقريب الخلق إلى الأذهان ، فإن المخلوق يوجد بسرعة فائقة جدا بمجرد تعلق الإرادة به.

فقه الحياة أو الأحكام :

أوضحت الآيات أمورا ثلاثة هي :

١ ـ النهي الجازم عن عبادة غير الله بعد قيام الأدلة على وجود الله وتوحيده ، مما صرح به القرآن في آياته ، ومما أرشد إليه العقل الصحيح في تفكيره ، والعبادة تقتضي الانقياد التام والخضوع وإخلاص الدين لله رب العالمين ، فلا أمل في عبادة الأصنام والأوثان وغيرها من أنواع الشرك. والخلاصة : نهى تعالى عن عبادة الأوثان ، ثم أمر بالاستسلام لله تعالى ، ثم أقام الدليل على الوحدانية والألوهية فيما ، مع العلم بأن والتي أصنامهم عارية عن شيء منهما بدليل تدرج ابن آدم.

٢ ـ بيان مراحل تطور الإنسان وتدرجه في التكوين والخلقة ، فأصله من تراب ، ثم يصبح نطفة فعلقة فمضغة ، ثم يولد طفلا ، ثم يشب ويقوى بدنه وعقله ، ثم يهرم ويشيخ ، وقد يموت من قبل هذه الأحوال ، ثم يحدث موت الكل. والإخبار عن تلك المراحل الانتقالية ليعقل الإنسان أنها ترشده وتعلمه أن لا إله إلا الله. آمنت بالله وحده.

٣ ـ التنبيه على قدرة الله في الإحياء والإماتة ، وعلى سرعة إنجاز الخلق والتكوين بمجرد إرادة الله الفعل.

جزاء المجادلين بالباطل في آيات الله

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَبِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكافِرِينَ (٧٤) ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦)﴾

الإعراب :

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ بدل من ﴿الَّذِينَ﴾ الأولى ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو منصوب على الذم.

﴿إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ السَّلاسِلُ﴾ : مرفوع معطوف على ﴿الْأَغْلالُ﴾ وتقديره : إذ الأغلال والسلاسل في أعناقهم. ومنهم من وقف على ﴿أَعْناقِهِمْ﴾ وابتدأ ﴿وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ﴾ وتقديره : والسلاسل يسحبون بها في الحميم ، فحذف الجار والمجرور. وقرئ «والسلاسل يسحبون» بنصب اللام وفتح ياء الفعل ، على أنه مفعول ﴿يُسْحَبُونَ﴾ أي يسحبون السلاسل. وقرئ «والسلاسل» بالجر ، بالعطف على أعناقهم ، وهي قراءة ضعيفة ، لأنه يصير المعنى : الأغلال في الأعناق والسلاسل ، ولا معنى للأغلال في السلاسل.

البلاغة :

﴿بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ التفات عن الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في التوبيخ. ويوجد جناس ناقص بين ﴿تَفْرَحُونَ﴾ و ﴿تَمْرَحُونَ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿يُجادِلُونَ﴾ كرر ذم المجادلة لتعدد المجادل أو المجادل فيه ، أو للتأكيد ﴿آياتِ اللهِ﴾ القرآن ﴿أَنَّى﴾ كيف ﴿يُصْرَفُونَ﴾ يبعدون عن الإيمان بالله. ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ﴾ بالقرآن أو بجنس الكتب السماوية ﴿وَبِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا﴾ من سائر الكتب والوحي والتوحيد والبعث والشرائع ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عقوبة تكذيبهم.

﴿إِذِ الْأَغْلالُ إِذِ﴾ : ظرف للفعل المتقدم ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بمعنى إذا للاستقبال ، أي ليعلمون إذ الأغلال ، وعبر ب ﴿إِذِ﴾ التي هي ظرف للماضي عن المستقبل ، لتيقن وقوع الأمر المخبر به وكونه مقطوعا به و ﴿الْأَغْلالُ﴾ : جمع غل : وهو القيد الذي يوضع في العنق ﴿يُسْحَبُونَ﴾ يجرّون بعنف بالسلاسل ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ جهنم ، وهي الماء الحار ﴿يُسْجَرُونَ﴾ يحرقون ويوقدون ، يقال : سجّر التنور : ملأه بالوقود ، ومنه ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ المملوء ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ : أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ يقال لهم توبيخا وتقريعا : أين الأصنام التي كنتم تعبدون في الدنيا ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ غابوا واضمحلوا ، فلا نراهم ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً﴾ أنكروا عبادتهم إياها ، ثم أحضرت ﴿كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكافِرِينَ﴾ أي مثل إضلال هؤلاء المكذبين يضل الله الكافرين ، حتى لا يهتدوا إلى شيء ينفعهم في الآخرة.

﴿ذلِكُمْ﴾ العذاب ﴿تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ تبطرون وتتكبرون ﴿بِغَيْرِ الْحَقِ﴾ وهو الشرك والطغيان وإنكار البعث ﴿وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ تختالون أشرا وبطرا وتتوسعون في الفرح ﴿أَبْوابَ جَهَنَّمَ﴾ الأبواب السبعة المقسومة لكم ﴿خالِدِينَ فِيها﴾ مقدّرا لكم الخلود فيها ﴿مَثْوَى﴾ مأوى.

المناسبة :

عاد الحق تعالى في هذه الآيات إلى ذم المجادلين في آيات الله ، مبينا عظيم جرمهم في تكذيب القرآن وجزاءهم على ذلك ، فليس فيه تكرار ، إذ السابق لبيان منشأ الجدل وسببه ، وهذا تعجيب من حال المجادلين وآرائهم الفاسدة ، مع

بيان عاقبتهم ، والظاهر ـ كما ذكر أبو حيان ـ أنها في الكفار المجادلين في رسالة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والكتاب الذي جاء به.

التفسير والبيان :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ أي ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين المشركين المجادلين بالباطل في آيات الله الواضحة الموجبة للإيمان بها ، كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال؟ مع قيام الأدلة الدالة على صحتها ، وأنها في نفسها موجبة للتوحيد.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَبِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي إنهم هم الذين كذبوا بالقرآن وبالذي أرسلنا به الرسل من التوحيد وإخلاص العبادة لله والشرائع الصالحة لحياة الإنسان في الدنيا ، والتبرؤ من الشرك والوثنية ، والإيمان بالبعث ، ثم هددهم وأوعدهم بقوله : ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم ووبال كفرهم.

ثم ذكر مضمون التهديد الشديد والوعيد الأكيد بقوله :

﴿إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ ، وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي فسوف يعلم هؤلاء المكذبون حين تجعل القيود في أعناقهم ، ويسحبون بالسلاسل في الحميم : وهو الماء المتناهي في الحرارة ، فتتقطع جلودهم وتنسلخ لحومهم ، ثم يحرقون في النار التي توقد بهم وتحيط بهم ، كما قال تعالى : ﴿هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ، يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٤٣ ـ ٤٤] وقال سبحانه بعد ذكر أكلهم الزقوم وشربهم الحميم : ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات ٣٧ / ٦٨] وقال عَزَّوَجَلَّ : ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ. ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ. ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ. إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان ٤٤ / ٤٧ ـ ٥٠].

ثم يسألون سؤال تقريع وتبكيت وتوبيخ عن أصنامهم المعبودة ، فقال تعالى : ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ : أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ؟ قالُوا : ضَلُّوا عَنَّا ، بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً ، كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكافِرِينَ﴾ أي يقال لهم من قبل الملائكة تقريعا لهم وتوبيخا : أين الأصنام والشركاء التي كنتم تعبدونها من دون الله ، ما لهم لا ينقذونكم مما أنتم فيه ، وينصرونكم اليوم وقت المحنة؟

قالوا مجيبين : غابوا عنا وذهبوا فلم ينفعونا ، وفقدناهم فلا نراهم ، والحق أننا لم نكن نعبد شيئا ، أي تبينا أننا لم نكن نعبد شيئا ينفع ، لأنه لا يبصر ولا يسمع ، ولا يضر ولا ينفع ، وذاك الذي صدر عنهم اعتراف صريح بأن عبادتهم إياها كانت باطلة.

ومثل ذلك الضلال يضل الله الكافرين حيث عبدوا هذه الأصنام التي أوصلتهم إلى النار ، أي هكذا يتبين بطلان جميع أعمال الكافرين ، وتنقطع العلائق والصلات بين العابدين والمعبودين.

ثم أبان الله تعالى سبب تعذيبهم فقال :

﴿ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي ذلكم العذاب والإضلال بسبب ما كنتم تظهرون في الدنيا من الفرح بمعاصي الله ، والسرور بمخالفة رسله وكتبه ، وبسبب ما كنتم تبطرون وتأشرون وهو جزاء المرح بغير الحق وهو الشرك وعبادة الأوثان.

ثم أوضح لهم نوع الجزاء تبكيتا وتوبيخا وتيئيسا لهم من تفادي العذاب ، فقال :

﴿ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ ، خالِدِينَ فِيها ، فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي ادخلوا أبواب جهنم السبعة المقسومة لكم ، كما قال تعالى : ﴿لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ ، لِكُلِ

بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر ١٥ / ٤٤] وإنكم مخلدون فيها أبدا على الدوام ، فبئس المنزل والمأوى الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه.

فقه الحياة أو الأحكام :

يؤخذ من الآيات ما يأتي :

١ ـ من العجب العجاب أن المشركين الذين يجادلون في آيات الله بغير حق ويكذبون بها يصرفون عن الهدى إلى الضلال ، وعن الحق إلى الباطل.

٢ ـ سيعلمون عما قريب بطلان ما هم فيه إذا دخلوا النار ، وغلّت أيديهم إلى أعناقهم ، وسحبوا بالسلاسل في الحميم ، أي الماء المسخن بنار جهنم ، وأحاطت بهم النار إحاطة تامة.

٣ ـ تقول لهم الملائكة بعد دخولهم النار تقريعا وتوبيخا : أين أصنامكم التي كنتم تعبدونها من دون الله ، ما لكم لا تنصرون بها اليوم؟

فأجابوا : لقد هلكوا وذهبوا عنا ، وتركونا في العذاب ، فلا نراهم ولا نستشفع بهم. ثم اعترفوا بأن عبادتهم الأصنام كانت باطلة ، فإنها ليست بشيء ، لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ، وهكذا تبين لهم أنهم لم يكونوا شيئا ، كما تقول : حسبت أن فلانا شيء ، فإذا هو ليس بشيء ، إذا جربته ، فلم تجد عنده خيرا [(١)]. وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم قالوا : ﴿وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٣].

٤ ـ قال الله تعالى عقب هذا الاعتراف : ﴿كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكافِرِينَ﴾ أي كما فعل بهؤلاء من الإضلال ، يفعل بكل كافر ، وهو إضلال لا توفيق فيه عن

---

(١) تفسير الرازي : ٢٧ / ٨٧

طريق الجنة بعد اختيارهم الكفر وإصرارهم عليه ، لا عن الحجة ، إذ قد هداهم في الدنيا إليها.

٥ ـ ذلكم العذاب وسببه هو ما كانوا يفرحون به من المعاصي ، ويظهرون في الدنيا من السرور بالمعصية وكثرة المال والأتباع والصحة ، وهو أيضا بسبب بطرهم وتكبرهم عن اتباع الحق وقبوله ، واختيارهم الشرك وعبادة الأصنام.

٦ ـ ويقال لهم يوم القيامة : ادخلوا أبواب جهنم السبعة المقسومة لكم ، فبئس المأوى مأوى المتكبرين عن آيات الله واتباع دلائله على توحيده وقبول شرائعه.

الصبر والنصر

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)﴾

الإعراب :

﴿فَإِمَّا﴾ إن الشرطية مدغمة ، وما : زائدة تؤكد معنى الشرط أول الفعل ، والنون تؤكد آخره ، وقد لحقت الفعل بناء على وجود «ما» ولا تلحقه النون مع «إن» وحدها. وجواب الشرط محذوف مثل : فذاك.

البلاغة :

﴿أَرْسَلْنا رُسُلاً﴾ جناس الاشتقاق.

﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ طباق السلب.

المفردات اللغوية :

﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ﴾ بالعذاب وهلاك الكافرين ﴿حَقٌّ﴾ كائن لا محالة ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي بعض ما نعدهم به من العذاب في الدنيا بالقتل والأسر ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن تراه أي قبل رؤية تعذيبهم ﴿فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ﴾ للعذاب الشديد يوم القيامة ، فنجازيهم بأعمالهم ، وهو جواب ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾. وهو يدل على شدة العذاب للاقتصار على ذكر الرجوع.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً ..﴾ قيل : إن عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، وروي أنه تعالى بعث ثمانية آلاف نبي : أربعة آلاف نبي من بني إسرائيل ، وأربعة آلاف من سائر الناس.

والمذكور قصتهم : أشخاص معدودة.

﴿وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ لأنهم عبيد مربوبون لله ، والمعجزات عطايا من الله بحسب حكمته ﴿فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللهِ﴾ بنزول العذاب على الكفار في الدنيا والآخرة ﴿قُضِيَ بِالْحَقِ﴾ بين الرسل ومكذبيهم ، بإنجاء المحق وتعذيب المبطل ﴿وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي ظهرت خسارة المعاندين باقتراح الآيات ، بعد وجود ما يغنيهم عنها.

المناسبة :

كان الكلام من أول السورة إلى هنا في تزييف طريقة المجادلين في آيات الله ، ثم أمر الله تعالى هنا رسوله بالصبر على أذاهم وتكذيبهم ، ووعده بالنصر عليهم ، وإنزال العذاب على أعدائه.

التفسير والبيان :

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ أي فاصبر أيها الرسول على تكذيب بعض قومك ، فإن وعد الله بالنصر عليهم والانتقام منهم كائن لا محالة ، إما في الدنيا ، وإما في الآخرة.

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ﴾ أي إن نرك في حياتك أيها الرسول بعض ما نعدهم به من العذاب ، كالقتل والأسر يوم بدر ، ثم فتح مكة وسائر جزيرة العرب ، فذاك ما يستحقونه ، وقد تحقق ذلك في

حياته صلى الله عليه وآله وسلم. أو نتوفينك قبل إنزال العذاب بهم ، فإلينا مصيرهم يوم القيامة ، فنذيقهم العذاب الشديد حينئذ ، ونجازيهم على أعمالهم.

ونظير الآية : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ ، ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ، أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ ، فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٤٢].

ثم قال الله تعالى مسليا رسوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ ، مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ أي ولقد أرسلنا رسلا وأنبياء كثيرين من قبلك إلى أقوامهم ، منهم من أنبأناك بأخبارهم وما لقوه من قومهم وهم خمسة وعشرون ، ومنهم من لم نقصص عليك خبره ، وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف ، كما قال تعالى : ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ، وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ..﴾ [النساء ٤ / ١٦٤].

وأخرج الإمام أحمد عن أبي ذرّ قال : «قلت : يا رسول الله ، كم عدد الأنبياء؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، الرسل من ذلك ثلاث مائة وخمسة عشر ، جمّا غفيرا». والذين ذكرهم الله في القرآن من الرسل قريب من خمسة وعشرين رسولا.

﴿وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ أي ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بمعجزة خارقة للعادة إلا أن يأذن الله له في ذلك ، فيستدل حينئذ على صدقه فيما جاءهم به. والمراد بالآية : المعجزة الدالة على نبوته. وكان أقوام الأنبياء يقترحون على الأنبياء إظهار المعجزات عنادا وتعنتا.

﴿فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ ، وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي إذا حان الوقت المعين لعذابهم في الدنيا أو في الآخرة ، قضي بالعدل فيما بينهم ، فينجي الله بقضائه الحق عباده المرسلين المحقين والذين آمنوا معهم ، ويهلك الكافرين الذين

يتبعون الباطل ويعملون به.

فما عليك يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلا الصبر ، تأسيا بالأنبياء قبلك ، وإذا جاء أمر الله بالفصل بينك وبين قومك ، قضي بينكم بالحق ، فنصرت ، وخسر المبطلون من ملأ قريش الذين يصدّون عن دعوتك.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على أمور أربعة :

١ ـ الأمر بالصبر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم تسلية له ، وإعلامه بأن الله سينتقم له من قومه المكذبين لرسالته ، إما في حياته ، أو في الآخرة. وأمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مأمورة مثله بالصبر.

٢ ـ أرسل الله تعالى للأمم المتقدمة رسلا وأنبياء كثيرين ، منهم من أخبر الله نبيه بأخبارهم وما لقوا من قومهم كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، ومنهم من لم يخبره الله بهم.

٣ ـ ليس لنبي من قبل نفسه أن يأتي بآية بيّنة أو معجزة لإثبات نبوته وصدقه ، إلا بإذن من الله وتيسير له بذلك ، فإن المعجزة وهي الأمر الخارق للعادة لا يستطيعها إلا من اتصف بالقدرة الإلهية ، وهو الله وحده الذي يظهر المعجز على يد نبي أو رسول لما يرى من الحكمة والصلاح.

٤ ـ إذا جاء الوقت المسمى لعذاب المكذبين برسالة النبي في الدنيا أو في الآخرة ، أهلكهم الله في الدنيا ، وخسر في الآخرة المبطلون الذين يتبعون الباطل والشرك ، وهذا وعيد شديد لهم.

وإنما يؤخر الله عنهم العذاب أحيانا ليترك الفرصة والمجال لإسلام من علم الله إسلامه منهم ، ولمن في أصلابهم من المؤمنين.

دلائل أخرى كثيرة على وجود الله ووحدانيته

﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللهِ تُنْكِرُونَ (٨١)﴾

الإعراب :

﴿فَأَيَّ آياتِ اللهِ تُنْكِرُونَ فَأَيَ﴾ : استفهام ، وهي منصوب ب ﴿تُنْكِرُونَ﴾ والاستفهام إنما ينصب بما بعده ، لأن له صدر الكلام. وهو استفهام توبيخ. وتذكير ﴿فَأَيَ﴾ أشهر من تأنيثه ، وهنا جاءت على اللغة المستفيضة ، وقولك «فأية آيات الله» قليل ، لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة : غريب ، وهي في ﴿فَأَيَ﴾ أغرب ، لإبهامه.

المفردات اللغوية :

﴿الْأَنْعامَ﴾ هي الإبل والبقر والغنم والمعز ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تَأْكُلُونَ﴾ منها ما يؤكل كالغنم ، ومنها ما يؤكل ويركب كالإبل ﴿وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ﴾ كالألبان والجلود والأصواف والأوبار ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ بالمسافرة عليها وحمل الأثقال إلى البلاد ، والحاجة : الأمر المهم ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ السفن في البحر ، وإنما قال : ﴿عَلَى الْفُلْكِ﴾ ولم يقل : في الفلك ، كما في قوله تعالى : ﴿قُلْنَا : احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هود ١١ / ٤٠] للمزاوجة والمطابقة بينها وبين ما قبلها وهو : ﴿وَعَلَيْها﴾ ولأن راكب السفينة يستعليها ، فيصح كونه فيها ، لأنها وعاء له ، ويصح كونه عليها لاستعلائها.

﴿وَيُرِيكُمْ آياتِهِ﴾ دلائله الدالة على كمال قدرته وفرط رحمته ووحدانيته ﴿فَأَيَّ آياتِ اللهِ﴾ الدالة على ما ذكر من تلك الآيات ﴿تُنْكِرُونَ﴾ فإنها لوضوحها وظهورها لا تقبل الإنكار.

المناسبة :

بعد الإطناب في وعيد المكذبين المجادلين في آيات الله ، بما فيه العبرة والكفاية ، عاد الحق تعالى إلى إيراد دلائل أخرى تدل على وجود الله ووحدانيته ، ويصلح تعدادها نعما على العباد ، ثم أجمل في الإحالة على أدلة كثيرة تحيط بالناس.

التفسير والبيان :

يمتن الله تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام ذات المنافع الكثيرة والدالة على قدرة الله فقال :

﴿**اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها ، وَمِنْها تَأْكُلُونَ**﴾ أي إن الله تعالى هو الذي خلق لأجلكم الأنعام ، وهي الإبل والبقر والغنم الشامل للمعز ، لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها ، فالإبل : تركب وتؤكل وتحلب ويحمل عليها الأثقال في الأسفار ، والبقر : تؤكل ويشرب لبنها ، ويحرث عليها الأرض ، والغنم تؤكل ويشرب لبنها ، والجميع تتناسل وتجز أصوافها وأشعارها وأوبارها ، فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة ، لذا قال تعالى :

﴿**وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ ، وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ، وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ**﴾ أي ولكم فيها منافع أخر غير الركوب والأكل ، كأخذ الوبر والصوف والشعر والزبد والسمن والجبن وغير ذلك مما يستعمل للثياب والأمتعة والمأكولات ، ولتحمل أثقالكم إلى البلاد النائية بيسر وسهولة ، وعلى الإبل في البر ، وعلى السفن في البحر تحملون وتنقلون من بلد إلى آخر ، ومن موضع إلى آخر ، وقد قيل : «الجمل سفينة الصحراء». ويلاحظ أنه تعالى قرن بين الامتنان بنعمة الركوب في البر ، ونعمة الامتنان بركوب البحر.

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ : مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ، وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ..﴾ إلى أن قال : ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ ، وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ..﴾ [الأنعام ٦ / ١٤٣ ـ ١٤٤] وقوله سبحانه : ﴿وَالْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَمَنافِعُ وَمِنْها تَأْكُلُونَ ، وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ، وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل ١٦ / ٥ ـ ٧].

ولما ذكر الله هذه الدلائل الكثيرة الدالة على قدرة الله التي لا تنكر قال :

﴿وَيُرِيكُمْ آياتِهِ ، فَأَيَّ آياتِ اللهِ تُنْكِرُونَ﴾ أي إن الله تعالى يري عباده عيانا هذه الآيات والبراهين التي عددها في الآفاق والأنفس ، والتي هي كلها ظاهرة باهرة دالة على كمال قدرته ووحدانيته ، فما الذي تنكرونه منها؟ وهي كلها ظاهرة واضحة ، بحيث لا ينكرها ذو بصيرة نيّرة إن كان منصفا ، أي إنكم في الواقع لا تقدرون على إنكار شيء من آياته ، إلا أن تعاندوا وتكابروا ، كما قيل :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

والسبب في إدخال اللام على ﴿لِتَرْكَبُوا﴾ و ﴿لِتَبْلُغُوا﴾ وعدم دخولها على البواقي : هو الاهتمام بجل المنافع وهو الركوب والحمل عليها ، وأما الأكل والانتفاع بالأوبار والأشعار فهو غرض أقل وأبسط.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه ادلة أخرى على كمال قدرة الله ووحدانيته ، وتشير إلى عظم نعم الله على عباده ، وهي تتمثل في خلق الأنعام للأكل والركوب ، والانتفاع بها في منافع كثيرة للثياب والأمتعة والمأكولات ، وحمل الأثقال ، والتنقل عليها في الأسفار وقطع المسافات ، سواء في البر والبحر.

وتتمثل أيضا في إظهار الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله وقدرته ، فكيف يسوغ لإنسان عاقل إنكار هذه الآيات الباهرة؟

وإذا كنتم أيها المشركون لا تنكرون أن هذه الأشياء من الله ، فلم تنكرون قدرته على البعث والنشر؟! ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها ، رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها﴾ [النازعات ٧٩ / ٢٧ ـ ٢٨]؟! وإن تلك الآيات كثيرة لا يمكن إنكار شيء منها عقلا.

تهديد المكذبين المجادلين في آيات الله وتركهم الشرك حين رؤية العذاب

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ (٨٥)﴾

الإعراب :

﴿كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَيْفَ﴾ : خبر مقدم لكان و ﴿عاقِبَةُ﴾ : اسمها المؤخر ، و ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ صلة الموصول.

﴿فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ما الأولى : نافية أو استفهامية منصوبة بأغنى ، والثانية : موصولة أو مصدرية مرفوعة به.

﴿فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ مِنَ﴾ : للتبيين ، أي تبيين «ما» أي فرحوا بالشيء الذي عندهم من العلم. أو تبيين «البينات» وفي الآية تقديم وتأخير ، والتقدير : فلما جاءتهم رسلهم بالبينات من العلم ، فرحوا بما عندهم. والأوجه هو الأول.

﴿سُنَّتَ اللهِ﴾ منصوب على المصدر ، بفعل مقدر من لفظه ، أي سن الله ذلك سنة ماضية في العباد ، وهي من المصادر المؤكدة بمنزلة «وعد الله» وما أشبهه من المصادر المؤكدة.

البلاغة :

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ..﴾؟ استفهام للإنكار ، إنكار عدم السير المترتب عليه النظر السليم.

المفردات اللغوية :

﴿كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ..﴾ استئناف مبين لحالهم ﴿وَآثاراً فِي الْأَرْضِ﴾ ما أبقوه من القصور والمصانع والحصون ونحوها ﴿بِالْبَيِّناتِ﴾ بالمعجزات والآيات الواضحات ﴿فَرِحُوا﴾ أي الكفار فرح استهزاء وضحك ، متنكرين له ﴿بِما عِنْدَهُمْ﴾ عند الرسل ﴿مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي واستحقروا علم الرسل ، والمراد بالعلم : عقائدهم الزائغة وشبههم الداحضة ، وسماها علما على زعمهم تهكما بهم ، والآية كقوله تعالى : ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [النحل ١٦ / ٦٦] أي تكامل واستحكم علمهم بأحوالها في الآخرة ، وهو تهكم بهم لفرط جهلهم بها ، وعلمهم : هو قولهم : لا نبعث ولا نعذب ، وما أظن الساعة قائمة ، ونحوها.

﴿وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ أي نزل بهم ما هزئوا به من العذاب ، وهذا يؤيد أن المراد بفرحهم : استهزاؤهم بالرسول وضحكهم منه ﴿بَأْسَنا﴾ شدة عذابنا ﴿وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ يعنون الأصنام ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ﴾ أي لم يصح ولم يستقم ، لامتناع قبوله ﴿سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ﴾ أي سن الله ذلك سنة ماضية في العباد أو الأمم ألا ينفعهم الإيمان وقت نزول العذاب ﴿وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ﴾ تبين خسرانهم لكل أحد ، وهم خاسرون في كل وقت قبل ذلك. و ﴿هُنالِكَ﴾ أي وقت رؤيتهم البأس ، وهو اسم مكان أستعير للزمان.

وسبب ترادف الفاءات هو كما أبان الزمخشري : أما قوله تعالى : ﴿فَما أَغْنى عَنْهُمْ﴾ فهو نتيجة لقوله : ﴿كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾. وأما قوله : ﴿فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ﴾ فهو كالتفسير

والبيان لقوله تعالى : ﴿فَما أَغْنى عَنْهُمْ﴾ كقولك : رزق زيد المال ، فمنع المعروف ، فلم يحسن إلى الفقراء. وقوله : ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا﴾ تابع لقوله : ﴿فَلَمَّا جاءَتْهُمْ﴾ كأنه قال : فكفروا ، فلما رأوا بأسنا آمنوا ، لأن رؤية البأس مسببة عن مجيء الرسل. وكذلك ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ﴾ تابع لإيمانهم لما رأوا بأس الله ، وامتناع نفع الإيمان مسبب عن رؤية البأس [١].

المناسبة :

اشتملت السورة على فصلين : فصل في دلائل الألوهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة ، وفصل في التهديد والوعيد ، وهذه الآيات التي ختمت بها السورة متعلقة بالفصل الثاني في تهديد الكفار الذين يجادلون في آيات الله ، المتكبرين على رسله المكذبين لهم ، اغترارا منهم بدنياهم وأموالهم وأولادهم ، وطلبا للرياسة والجاه ، وهو تهديد يبين نهاية من هم أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا ، فلم ينفعهم شيء من ذلك حين حلول بأس الله ، بل إن إيمانهم بالله وتركهم الشرك حين رؤية البأس لم ينفعهم أيضا.

التفسير والبيان :

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ، وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ ، فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي أفلم يسر في البلاد هؤلاء المجادلون في آيات الله من المشركين ، فينظروا في أسفارهم كيف كان مصير الأمم السابقة التي عصت الله ، وكذبت رسلها ، ويشاهدوا آثارهم الموجودة في ديارهم التي تدل على ما نزل بهم من عقوبة وعذاب شديد ، مع أنهم كانوا أكثر من مشركي قريش عددا ، وأقوى منهم أجسادا ، وأوسع منهم أموالا ، وأبقى في الأرض آثارا بالعمائر والمصانع والحصون والمزارع والسدود ، ونحو ذلك من مظاهر الحضارة والعمران والفن والعلوم.

---

(١) الكشاف : ٣ / ٦٢

فلما حل بهم العذاب لم يغن عنهم كل ما عملوه في دنياهم من مكاسب وجاه ، ولم ينفعهم ما لهم ولا أولادهم ، ولا رد عنهم أمر الله ، أو نزول العذاب الشديد بهم ، ولا أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم.

﴿فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ ، فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ، وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ أي فلما جاءت الرسل بالحجج الواضحات والمعجزات الظاهرات إلى تلك الأمم المكذبة ، لم يلتفتوا إليهم ، ولا أقبلوا عليهم ، واستغنوا بما عندهم من العلم ، أي الشبهات الداحضة والدعاوي الزائغة التي ظنوها علما نافعا لهم ، مثل قولهم : ﴿وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية ٤٥ / ٢٤] وقولهم : ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا﴾ [الأنعام ٦ / ١٤٨] وقولهم : ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس ٣٦ / ٧٨] وفرحوا بهذه الترهات والأباطيل ، لأنهم كما قال تعالى : ﴿يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ [الروم ٣٠ / ٧].

ولكن نزل وأحاط بهم ما كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه وهو العذاب ، استهزاء وسخرية ، أي نزل بالكفار عقاب استهزائهم برسالات الرسل.

وقد سمى الله تعالى ما عندهم من العقائد الزائفة والشبه الداحضة «علما» تهكما بهم واستهزاء منهم ، كما تقدم.

ثم صوّر تعالى ما يكون من شأن الإنسان حين تطبيق العقاب عليه ، فقال :

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا ، قالُوا : آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ ، وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أي فلما عاينوا وقوع العذاب بهم ، صدقوا بالله ووحدوه ، وكفروا بمعبوداتهم الباطلة التي اتخذوها شركاء لله ، وهي الأصنام التي كانوا يعبدونها ، ولكن لم ينفعهم ذلك الإيمان ، ولم تنفعهم المعذرة ، كما قال تعالى :

﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا﴾ أي لم يصح ولم يستقم أن إيمانهم ينفعهم عند معاينة عذابنا ، لأن ذلك الإيمان ليس بالإيمان النافع لصاحبه ، فهو

إيمان اضطراري عن إكراه ، وإنما ينفع الإيمان الاختياري ، لا الإيمان الاضطراري ، لأنه عند معاينة الأمر الحتمي لا يبقى للتكليف مجال ، فالكل يؤمن حينئذ ، وهكذا لا ينفع الإيمان عند رؤية العذاب أو الموت أو الغرق أو في الآخرة ، ولم يكن الشخص آمن في الدنيا.

وهذا كما فرعون حين أدركه الغرق : ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فقال الله تعالى : ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ، وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس ١٠ / ٩٠ ـ ٩١] فلم يقبل الله منه إيمانه.

ثم ذكر الله تعالى حكما عاما ، فقال :

﴿سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ ، وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ﴾ أي إن هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا يقبل ، وإن الله سبحانه سن هذه السنة في الأمم كلها أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب.

وخسر الكفار وقت رؤيتهم بأس الله ومعاينتهم لعذابه ، والكافر خاسر في كل وقت ، ولكنه يتبين لهم خسرانهم إذا رأوا العذاب. جاء في الحديث الثابت : «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» [(١)] أي فإذا غرغر ، وبلغت الروح الحنجرة ، وعاين الملك ، فلا توبة حينئذ ، ولهذا قال تعالى هنا : ﴿وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ﴾ وقال : ﴿وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر ٤٠ / ٧٨]. فليحذر الكافر والمقصر ، وليتدارك الأمر قبل فوات الأوان ، ولات ساعة مندم.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ إن آثار تدمير الأمم الغابرة بسبب كفرهم وتكذيبهم الرسل عبرة

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر.

للمعتبر ، فلو سار الناس في نواحي الأرض ، لعرفوا أن عاقبة المتكبرين المتمردين ، ليست إلا الهلاك والبوار والدمار ، مع أنهم كانوا أكثر عددا ومالا وجاها من هؤلاء المتأخرين ، والدنيا كلها فانية ذاهبة ، فلا يغترن أحد بمال ولا جاه ولا سلطان.

٢ ـ كان سبب تدمير أولئك الأقوام في الماضي هو تكذيبهم رسلهم الذين جاءوهم بالمعجزات والآيات الواضحات ، وفرحهم بعقائدهم الزائفة وشبههم الباطلة ، مثل قولهم : لن نعذب ولن نبعث ، واستهزاؤهم بما جاء به الرسل ، فأحدق بهم العقاب من كل جانب.

٣ ـ لقد آمن هؤلاء المشركون بالله وحده ، وكفروا بالأوثان التي أشركوها في العبادة مع الله ، عند رؤية العذاب.

٤ ـ ولكن الإيمان بالله عند معاينة العذاب ، وحين رؤية البأس لا ينفع ولا يفيد صاحبه.

٥ ـ سنّ الله عَزَّوَجَلَّ في الكفار أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب ، وأضحى عدم قبول الإيمان حال اليأس من النجاة سنة الله المطردة في كل الأمم.

٦ ـ والغاية أن يحذر أهل مكة وغيرهم من المشركين سنة الله في إهلاك الكفرة ، وأن يعلموا أن الإيمان وقت رؤية الهلاك لا ينفع ، وأن ما يدّعونه من علم وحضارة لا يغني عن دين الله ورسالة الأنبياء ، فشريعة الله هي الأصح.

٧ ـ ليعلم أولئك الذين يصفون شريعة الإسلام بالهمجية والوحشية والقسوة ، وهم الذين احتضنوا أفكار الغرب غير الدينية ، وآمنوا بالقوانين الوضعية الحديثة ، وأحلوها محل شريعة الله تعالى ، ليعلموا أنهم جهلة بهذه الشريعة ، وأنهم كفروا بالإسلام من حيث لا يشعرون ، وأن بواعث تحضّرهم ،

وادعاءهم إرادة التقدم والمدنية والأخذ بمعطيات الحضارة الحديثة يؤدي لهدم شرع الله تعالى. ولو فهموا هذا الشرع بدقة لحقق لهم كل ما يريدون ضمن ضوابط شاملة ، ولم يتورطوا بوصف الشريعة الإسلامية بأنها من الشرائع البدائية أو التقليدية في أنظمة المعاملات المدنية أو الجنائية أو قواعد الإثبات ، فإن التزام قواعد الشريعة خير وأحكم وأمنع مما يعيش به مجتمع القرن العشرين من فقد الأمن وكثرة الجريمة وانحلال القيم والأخلاق ، وإن قواعد الإثبات فيها أولى من إعطاء حرية الإثبات المطلقة لتقدير القاضي وقناعته الشخصية ، فذلك قد يؤدي إلى إهدار الحقوق ، وتجريم البريء.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فصّلت أو : السجدة

مكيّة ، وهي أربع وخمسون آية.

تسميتها :

سمّيت سورة فصلت لافتتاحها بقوله تعالى : ﴿كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ ..﴾ وقد فصّل الله تعالى فيها الآيات ، وأوضح الأدلة والبراهين على وجوده وقدرته ووحدانيته ، من خلقه هذا الكون العظيم وتصرفه فيه. وتسمى أيضا حم ، السجدة لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند قراءة أولها على زعماء قريش حتى انتهى إلى السجدة منها ، سجد.

مناسبتها لما قبلها :

تظهر مناسبتها لما قبلها وهي سورة غافر من وجهين :

الأول ـ افتتاح كلتيهما بوصف الكتاب الكريم وهو القرآن العظيم.

الثاني ـ اشتراكهما في تهديد ووعيد وتقريع المشركين المجادلين في آيات الله في مكة وغيرها ، ففي آخر السورة المتقدمة توعدهم بقوله : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [٨٢] ، وفي القسم الأول من هذه السورة هددهم مرة أخرى بقوله : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ : أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾ [١٣]. وهذا كله مناسب لآخر سورة المؤمن من عدم انتفاع مكذّبي الرّسل حين رؤية العذاب ، كما

أن قريشا لم ينتفعوا حينما حلّ بصناديدهم القتل والأسر والنهب والسّبي ، واستؤصلوا مثلما حلّ بعاد وثمود من استئصال.

مشتملاتها :

موضوع هذه السورة مثل موضوع باقي السّور المكية وهو إثبات أصول العقيدة : «الوحدانية ، الرّسالة والوحي ، البعث والجزاء».

ابتدأت بوصف القرآن العظيم بأنه المنزّل من عند الله بلسان عربي مبين ، والذي يبيّن أدلة قدرة الله وتوحيده ، وكونه المبشّر المنذر ، والذي يثبت صدق النّبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاء به من عند ربّه.

وأبانت موقف المشركين وإعراضهم عن تدبّره ، وقررت حقيقة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأنه بشر خصّه الله تعالى بالوحي المتضمن إعلان وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ ، وإيضاح جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين الذين عملوا الصالحات.

ثم أنكرت على المشركين الكفر ، وأقامت الأدلة على وحدانية الله من خلق السموات والأرض ، وأنذرتهم بإنزال عقاب مماثل لعقوبة الأمم الغابرة ، كعاد وثمود الذين أهلكوا ودمرت ديارهم بسبب تكذيب رسل الله ، ولكن بعد إنجاء المؤمنين المتّقين.

وحذّرت من حساب القيامة ، وأخبرت بأن أعضاء الإنسان تشهد عند الحشر على أصحابها ، وأن قرناء السوء زيّنوا لهم أعمالهم ، وأنّهم هم صدّوا عن سبيل الله ودينه ، وقالوا : ﴿**لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾ وطلبوا إهانة من أضلوهم ليكونوا من الأسفلين.

وفي مواجهة أولئك أشاد تعالى بأهل الاستقامة وبشّرهم بالجنة والكرامة ، ووصف من يلقّى الجنة وهم الصابرون على طاعة الله تعالى.

ثم عاد الله تعالى إلى إيراد أدلة أخرى من إيجاد العالم العلوي والسفلي على وجود الله ووحدانيته وقدرته ، وبيان إحكام القرآن وكونه كتاب هداية وشفاء ورحمة ، وأن من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها دون جور ولا ظلم.

وأعقب ذلك التعريف بعلم الله المحيط بكل شيء ، والإشارة لعظيم قدرته ، والكشف عن طبع الإنسان من التّكبر عند الرّخاء ، والتّضرع عند الشدة والعناء.

وختمت السورة بوعد الله أن يطلع الناس في كل زمان على بعض أسرار الكون والتّعرف على آيات الله في الآفاق والأنفس الدالة على الوحدانية والقدرة الإلهية ، ثم ذكرت أن المشركين يشكون في البعث والحشر ، ولكن الله محيط بهم وبكل شيء ، وذلك ردّ حاسم عليهم.

فضلها :

أخرج الإمام العالم عبد بن حميد في مسنده وأبو يعلى والبغوي وغيرهم عن جابر بن عبد الله ﷺ قال : «اجتمعت قريش يوما ، فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذي قد فرّق جماعتنا ، وشتّت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليكلمه ولننظر ماذا يردّ عليه. فقالوا : ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة.

فقالوا : ائته يا أبا الوليد ، فأتاه عتبة فقال : يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال عتبة : إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك ، فقد عبدوا الآلهة التي عبت ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم ، فتكلّم حتى نسمع قولك ، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك ، فرّقت جماعتنا ، وشتّت أمرنا ، وعبت ديننا وفضحتنا في العرب ، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرا ، وأن

في قريش كاهنا ، والله ، ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفاني.

أيها الرّجل ، إن كان إنما بك الحاجة ، جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا واحدا ، وإن كان إنما بك الباءة [١] ، فاختر أي نساء قريش شئت ، فلنزوجك عشرا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

فرغت؟ قال : نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، حم ، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ..﴾. حتى بلغ. : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا ، فَقُلْ : أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾ فقال عتبة : حسبك حسبك ، ما عندك غير هذا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا.

فرجع إلى قريش ، فقالوا : ما وراءك؟ قال : ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمون به إلا كلمته ، قالوا : فهل أجابك؟ قال : نعم ، لا ، والذي نصبها بنية (أي الكعبة) ما فهمت شيئا مما قاله غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، قالوا : ويلك ، يكلّمك الرجل بالعربية ، لا تدري ما قال ، قال : لا والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة».

وفي رواية البغوي : «والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالا ، ولكني أتيته ، وقصصت عليه القصة ، فأجابني بشيء ، والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، وقرأ السورة إلى قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾».

وفي رواية محمد بن إسحاق في سيرته : «قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد؟

---

(١) الميل إلى النساء.

قال : ورائي أني سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها لي ، خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب ، فملكه ملككم ، وعزّه عزّكم ، وكنتم أسعد الناس به. قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم».

القرآن الكريم وإعراض المشركين عنه وبشرية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

﴿حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤) وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)﴾

الإعراب :

﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، كِتابٌ تَنْزِيلٌ﴾ : مبتدأ ، و ﴿مِنَ الرَّحْمنِ﴾ : صفة له ، و ﴿كِتابٌ﴾ : خبره ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أي هذا تنزيل.

﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا قُرْآناً﴾ : حال وعامله : ﴿فُصِّلَتْ﴾ أو منصوب بفصلت أو منصوب على المدح ، أي أمدح قرآنا عربيا. و ﴿لِقَوْمٍ ..﴾ متعلق بفصلت.

﴿بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ حال من الآيات وعامله : ﴿فُصِّلَتْ﴾ أو حال من ﴿كِتابٌ﴾ لأنه قد وصف ، وعامله «هذا» إذا قدرت ، لما فيه من معنى التنبيه أو الإشارة ، أي هذا كتاب فصلت آياته.

﴿يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ .. إِنَّما﴾ : مرفوع بيوحى على أنه مفعول الفعل المبني للمجهول.

البلاغة :

﴿بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ بينهما طباق.

﴿وَقالُوا : قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ﴾ استعارة تصريحية ، شبّهوا إعراضهم عن القرآن ونفرتهم ومباعدتهم عنه وشدّة كراهيتهم بمن حجبت قلوبهم عن العلم ، وأسماعهم عن الفهم والإدراك.

المفردات اللغوية :

﴿حم﴾ للتنبيه على إعجاز القرآن وتحديه ، وعلى خطر ما يذكر في السورة من أحكام. ﴿فُصِّلَتْ﴾ بيّنت وميّزت أتمّ بيان وأوضح تفصيل للأحكام والقصص والمواعظ. ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب كله ، وفيه امتنان بسهولة قراءته وفهمه. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لقوم يفهمون ذلك ، وهم العرب.

﴿بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ صفة القرآن ، فهو مبشّر للعاملين به ، ومنذر للمخالفين له. ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن تدبّره وقبوله. ﴿فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تأمل وطاعة وقبول ، أي لا يقبلون ولا يطيعون. ﴿وَقالُوا﴾ للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أغطية ، جمع كنان ، كغطاء وأغطية ، والكنان : جعبة (أو خريطة) السهام ، والمراد أنها في أغطية سميكة متكاثفة. ﴿وَقْرٌ﴾ صمم أو ثقل سمع. ﴿حِجابٌ﴾ ستار أو ساتر يمنعنا عن التواصل ، والمراد: خلاف في الدين ، وقوله : ﴿وَمِنْ بَيْنِنا ..﴾ للدلالة على أن الحجاب مبتدأ منهم ومنه ، بحيث استوعب المسافة المتوسطة ، ولم يبق فراغ. ﴿فَاعْمَلْ﴾ على دينك. ﴿إِنَّنا عامِلُونَ﴾ على ديننا.

﴿أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي لست ملكا أو جنّيا لا يمكنكم الالتقاء به. ﴿أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾ أي إنما أدعوكم إلى التوحيد والاستقامة في العمل. ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ توجهوا إليه بالإيمان والطاعة. ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ اطلبوا المغفرة مما أنتم عليه من سوء العقيدة والعمل. ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ من فرط جهالتهم واستخفافهم بالله ، والويل : كلمة عذاب ، وهو كلمة تهديد لهم ، أو واد في جهنم. ﴿لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾ لبخلهم وعدم إشفاقهم على الخلق ، وذلك من أعظم الرّذائل. وفيه دليل على

أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ هُمْ﴾ الثانية تأكيد ، والجملة حالية مشعرة بأن امتناعهم عن الزكاة لاستغراقهم في طلب الدنيا وإنكارهم للآخرة. ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع ، ولا يمنّ به عليهم ، من المنّ.

التفسير والبيان :

﴿حم ، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ هذه الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وللدلالة على خطر ما يتلى بعدها ، هذا القرآن منزّل من الله تبارك وتعالى ذي الرحمة الواسعة لعباده ، فهو المنعم بعظائم النّعم ودقائقها ، إنه منزّل على عبده ونبيّه محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وتخصيص هذين الوصفين ﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ بالذّكر هنا للدلالة على أن هذا القرآن هو البلسم الشافي للأمم والأفراد والجماعات ، وهو الرّحمة الكبرى للعالم ، كما قال تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٠٧].

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿قُلْ : نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِ﴾ [النحل ١٦ / ١٠٢] ، وقوله سبحانه : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء ٢٦ / ١٩٢ ـ ١٩٥].

﴿كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وهو كتاب بيّنت آياته بيانا شافيا ، وأوضحت معانيه ، وأحكمت أحكامه : ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود ١١ / ١] ، وقد أنزلناه بلغة العرب ، ليسهل فهمه ، فمعانيه مفصّلة ، وألفاظه واضحة غير مشكلة ، وإنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون الذين يعلمون أن القرآن منزل من عند الله ، ويعلمون معانيه ، لنزوله بلغتهم ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا ، لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف ١٢ / ٢] ، وقال سبحانه : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٤].

﴿بَشِيراً وَنَذِيراً ، فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ، فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ أي إن هذا القرآن يبشّر المؤمنين أولياء الله بالجنة لاتّباعهم له وعملهم به ، وينذر الكافرين أعداء الله بالنار لمخالفتهم أحكامه ، وإصرارهم على التكذيب به حتى الموت ، ولكن أعرض أكثر الكفار المشركين عمّا اشتمل عليه من الإنذار ، وعن الإصغاء إليه ، فهم لا يسمعون آياته سماع تدبّر وانتفاع ، ولم يقبلوه ولم يطيعوا أحكامه ، لإعراضهم عنه ، بالرغم من بيانه ووضوحه.

ثم صرّحوا بأسباب ثلاثة لنفرتهم ومباعدتهم عنه ، كما حكى تعالى :

﴿وَقالُوا : قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ ، وَفِي آذانِنا وَقْرٌ ، وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ ، فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ﴾ أي وقال أولئك المشركون : قلوبنا في أغطية ، فهي لا تفقه ما تقول ، ولا يصل إليها قولك ودعوتك إلى الإيمان بالله وحده ، وترك عبادة الآباء والأجداد ، وفي آذاننا صمم وثقل سمع يمنعها من استماع قولك ، ومن بيننا وبينك ساتر يستر عنا رؤيتك ، ويمنعنا من إجابتك.

وهذه تمثيلات ثلاثة منهم لنبو قلوبهم عن إدراك الحق ، ومجّ أسماعهم له ، وامتناع المواصلة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قيل : إن أبا جهل استغشى على رأسه ثوبا وقال : يا محمد بيننا وبينك حجاب ، استهزاء منه.

فاعمل على دينك وطريقتك ، إننا عاملون على ديننا وطريقتنا ، لا نتابعك ، واعمل في هلاكنا وإبطال أمرنا ، فإنا عاملون في هلاكك وإبطال أمرك وفضّ الناس من حولك.

وأذكر هنا رواية أخرى لما ذكرت في فضل هذه السورة ، روي أن عتبة بن ربيعة ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليعظم عليه أمر مخالفته لقومه ، وليقبح عليه فيما بينه وبينه ، وليبعد ما جاء به ، فلما تكلّم عتبة ، قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حم ومرّ في صدرها حتى انتهى إلى قوله : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ : أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ

﴿صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾ فأرعد الشيخ ، ووقف شعره ، فأمسك على فم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده ، وناشده بالرّحم أن يمسك وقال حين فارقه :

«والله لقد سمعت شيئا ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، ولقد ظننت أن صاعقة العذاب على رأسي».

وبعد أن ذكروا أسباب إبائهم الإيمان بالله وحده ، أجيبوا بأن محمدا مجرد بشر لا يقدر على جبرهم على الإيمان ، فقال تعالى :

﴿قُلْ : إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ ، فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي قل أيها الرسول مجيبا قومك المكذبين المشركين عن شبهتهم : ما أنا إلا بشر كواحد منكم لو لا الوحي ، وإني لا أقدر أن أحملكم على الإيمان جبرا وقهرا ، فإني بشر مثلكم ، لكني أبلغكم ما أوحي إليّ به ، وخلاصة ذلك الوحي أمران : العلم والعمل ، أما العلم فأساسه معرفة التوحيد ، لأن الحق هو أن الله واحد ، وليس معه شريك من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرّقين ، وهو المراد بقوله : ﴿أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾ والحق يجب علينا أن نعترف به ، والعمل أساسه : الاستقامة والاستغفار والتوبة من الذنوب ، أي الطاعة وإخلاص العبادة ، وطلب العفو عن الذنوب السالفة ، ورأسها الشرك ، لذا أعقبه بتهديد المشركين ، فقال تعالى :

﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ﴾ أي الهلاك والدمار والخسارة للمشركين الذين أشركوا مع الله إلها آخر ، والذين تجرّدوا من حبّ الإنسانية والشفقة على خلق الله فلا يؤدون الزكاة ، ويمنعونها عن الفقراء ، ولا ينفقون في الطاعة ، وهم جاحدون الآخرة ، منكرون البعث والحساب والجزاء.

فالله تعالى أثبت الويل لمن اتّصف بصفات ثلاث :

أولها ـ أن يكون مشركا ، وهو ضدّ التوحيد.

وثانيها ـ كونه ممتنعا من أداء الزكاة ، وهو ضدّ الشفقة على خلق الله تعالى.

وثالثها ـ كونه منكرا للقيامة ، مستغرقا في طلب الدنيا ولذاتها.

وإنما ذكر الله تعالى هذه الأوصاف ، لأن الإيمان أساس العقيدة ، والشرك هدم لها ، ولأن الزكاة دليل الإيمان ، لأنها اقتطاع جزء من أحب الأشياء إلى النفس وهو المال قرين الروح ، لذا قيل : الزكاة قنطرة الإسلام ، فمن قطعها نجا ، ومن تخلّف عنها هلك. ومنع الزكاة قسوة على عباد الله ، وبذلها دليل على صدق النّية.

وأما الإيمان بالآخرة : فهو خلاصة الإيمان وهدفه وتقرير للمصير. وإنكار البعث والقيامة : تدمير لكل الأعمال في الدنيا ، وانصراف إليها وإعراض عن الآخرة.

وهذه الآية تهديد لمن يشرك بالله ، ويمنع الزكاة التي تطهّر النّفس من داء الشّح والبخل ، وينكر البعث والجزاء والحساب يوم القيامة وينصرف إلى الدنيا ولذاتها. ونحو الآية : ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها ، وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها**﴾ [الشمس ٩١ / ٩ ـ ١٠].

ثم أعقب وعيد الكفار بوعد المؤمنين للجمع المألوف في القرآن بين الترهيب والتّرغيب ، فقال تعالى :

﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ أي إن الذين صدقوا بالله ورسوله ، وعملوا بما أمر الله به وانتهوا عما نهى عنه ، لهم عند ربّهم أجر وثواب غير مقطوع ولا ممنوع ، ولا يمنّ عليهم به ، لأن المنّة بالتّفضل ، وأما

الأجر فحقّ أداؤه ، كما قال تعالى : ﴿عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود ١١ / ١٠٨] ، وقال سبحانه : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق ٨٤ / ٢٥]. قال السّدّي : نزلت في الزّمنى والمرضى والهرمى إذا ضعفوا عن الطاعة ، كتب لهم من الأجر كأصحّ ما كانوا يعملون فيه.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ وصف الله تعالى القرآن في مطلع هذه السورة بصفات عشر : هي كونه تنزيلا ، وكون ذلك التنزيل من الرحمن الرحيم ، وكونه كتابا ، وفصّلت آياته ، وكونه قرآنا ، وكونه عربيا ، ولقوم يعلمون ليفهموا منه المراد ، وبشيرا ، ونذيرا ، وكونهم معرضين عنه لا يسمعون ولا يلتفتون إليه.

٢ ـ ذهب أكثر المتكلمين إلى أنه يجب على المكلّف تنزيل ألفاظ القرآن على المعاني التي هي موضوعة لها بحسب اللغة العربية ، وحملها على معان أخر بغير هذا الطريق باطل قطعا.

٣ ـ ليس في القرآن الكريم لفظ غير عربي ، وهذا ردّ على من قال : اشتمل القرآن على سائر اللغات ، مثل ﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾ و ﴿سِجِّيلٍ﴾ من اللغة الفارسية ، و ﴿كَمِشْكاةٍ﴾ من لغة الحبشة ، و ﴿بِالْقِسْطاسِ﴾ من لغة الروم.

٤ ـ إن ألفاظ الإيمان والكفر والصلاة والزكاة والصوم والحج هي ألفاظ عربية لغوية ، لا شرعية ، وإنما خصصها الشرع ببعض أنواع مسمياتها ، فالإيمان مثلا خصصه الشرع بنوع معين من التصديق ، والصلاة خصصها الشرع بنوع معين من الدعاء ، وهكذا البواقي ، لقوله تعالى السابق : ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ وقوله المتقدم : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ﴾.

٥ ـ إن وصف القرآن بكونه ﴿عَرَبِيًّا﴾ في معرض المدح والتعظيم دليل على أن لغة العرب أفضل اللغات.

٦ ـ دلّ قوله تعالى : ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ على أنه لا يجوز أن يحصل في القرآن شيء غير معلوم ، لأن المعنى : إنما جعلناه عربيا ليصير معلوما.

٧ ـ دلّ قوله تعالى : ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ على أن الهادي من هداه الله ، وأن الضّال من أضلّه الله. وهذا بعد اختيار أصل الهداية وأصل الكفر والضّلال ، فليس المعنى : هو الجبر على الهداية أو الجبر على الضّلالة ، فإن المشركين أعرضوا عن القرآن بعد توافر موجبات ثلاثة للإيمان ، وهي : كون القرآن نازلا من عند الله الرّحمن الرّحيم ، وكونه عربيا ، وكونه بشيرا ونذيرا.

٨ ـ دلّت آية : ﴿وَقالُوا : قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ ..﴾ الآية على أن الكفار كانوا في غاية النّفرة والمباعدة عن القرآن باختيارهم وتصريحهم.

٩ ـ لا يختلف النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وغيره من الأنبياء عن سائر الناس إلا بإنزال الوحي عليهم ، فهم بشر عاديون كسائر البشر ، لكن اصطفاهم ربّهم للنّبوة والرسالة وتبليغ وحيه إلى الناس.

١٠ ـ إن مناط السعادة تعظيم أمر الله ، والشفقة على خلق الله ، ولقد أخلّ المشركون بالأمرين معا ، فكانوا أشقياء ، فهم لم يعظموا الله بتوحيده ، ولم يخلصوا العبادة والطاعة ، ولم يبادروا إلى الاستغفار من الشرك ، ولم يرحموا عباد الله بمنعهم الزكاة ، ولم ينفقوا في الطاعة ، ولم يستقيموا على أمر الله ، وأنكروا البعث والحشر والحساب والجزاء. وفيه دلالة على أن الكافر يعذب بكفره مع منع وجوب الزكاة عليه ، فإنه تعالى ألحق الوعيد الشديد له على أمرين : كونه مشركا ، وأنه لا يؤتي الزكاة ، فدلّ على أن لعدم إيتاء الزكاة من المشرك تأثيرا عظيما في زيادة الوعيد.

١١ ـ إن الذين آمنوا بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ، وأدّوا الفرائض والطاعات ، واجتنبوا المنكرات والمحظورات ، لهم عند ربّهم أجر وثواب لا ينقطع أبدا.

دليل وجود الله تعالى وكمال قدرته وحكمته

﴿قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَبارَكَ فِيها وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (١١) فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾

الإعراب :

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً﴾ الواو : واو الحال من ضمير ﴿خَلَقَ﴾ وتقديره : قل : أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين مجعولا له أندادا.

﴿سَواءً لِلسَّائِلِينَ سَواءً﴾ بالنصب على المصدر ، بمعنى (استواء) وتقديره : استوت استواء. وقرئ بالرفع (سواء) لأنه خبر لمبتدأ محذوف ، وتقديره : هي سواء ، وقرئ بالجر مجرورا على الوصف لأيام أو لأربعة والمشهور : النصب.

﴿طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ حال.

﴿قالَتا : أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ جمعها جمع العقلاء ، لأنه وصفها بالقول والطاعة ، مثل : ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ﴾ فقد وصفها بالسجود ، وهو من صفات العقلاء ، وجمعها جمع من يعقل.

﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ سَبْعَ سَماواتٍ﴾ : في موضع نصب على البدل من هاء ونون ﴿فَقَضاهُنَ﴾.

البلاغة :

﴿أَإِنَّكُمْ﴾ استفهام إنكاري ، ولام ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ لتأكيد الإنكار ، وتقديم الهمزة لصدارتها.

﴿فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ : ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ استعارة تمثيلية ، مثل تأثير قدرته في السموات والأرض بأمر السلطان أحد رعيته بتنفيذ شيء ، وامتثال الأمر بسرعة.

﴿طَوْعاً﴾ و ﴿كَرْهاً﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ﴾ الكفر به : إلحادهم في ذاته وصفاته. ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ في مقدار يومين أو بنوبتين ، وخلق في كل نوبة ما خلق في أسرع ما يكون. ﴿أَنْداداً﴾ شركاء ، جمع ندّ ، أي شريك. ﴿ذلِكَ﴾ الذي خلق الأرض في يومين. ﴿رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ خالق جميع ما وجد من الممكنات ومالكها ومربّيها ، و ﴿الْعالَمِينَ﴾ : جمع عالم : وهو ما سوى الله ، وجمع لاختلاف أنواعه تغليبا للعقلاء.

﴿وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ﴾ جبالا ثوابت ، وهو كلام مستأنف غير معطوف على ﴿خَلَقَ﴾ للفصل بما هو خارج عن صلة ﴿بِالَّذِي﴾. ﴿مِنْ فَوْقِها﴾ مرتفعة عليها. ﴿وَبارَكَ فِيها﴾ أكثر خيرها ، بأن خلق فيها أنواع النبات والحيوانات والمياه. ﴿وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها﴾ قسم فيها أقواتها للناس والبهائم. ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ في تمام أربعة أيام تمّ الجعل والتقدير ، أي في تتمة أربعة أيام باليومين المتقدمين.

﴿سَواءً لِلسَّائِلِينَ﴾ أي استوت الأربعة استواء لا تزيد ولا تنقص ، أي إنها أربعة أيام كاملة لا زيادة فيها ولا نقصان ، و ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : هذا الحصر للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها ، أو متعلق بقدر أي قدر فيها الأقوات للطالبين لها.

﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ﴾ قصد وعمد نحوها ، أي تعلقت إرادته بها. ﴿وَهِيَ دُخانٌ﴾ أي مادة غازية مظلمة ، تشبه الدخان في رأى العين. ﴿ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ أي ائتيا في الوجود ، إذا كان الخلق السابق بمعنى التقدير ، أو اخضعا لمرادي منكما من التأثير والتأثر ، حال كونكما طائعتين أو مكرهتين. ﴿قالَتا : أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ منقادين بالذات ، وفيه تغليب المذكر العاقل. قال البيضاوي : والأظهر أن المراد تصوير تأثير قدرته فيها ، وتأثرهما بالذات عنها ، وتمثيلهما بأمر المطاع ، وإجابة المطيع الطائع ، كقوله : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ﴾ خلقهنّ خلقا إبداعيا وصيّرهنّ وأكملهنّ وفرغ منهنّ ، والضمير يرجع إلى السماء ، لأنها في معنى الجمع الآيلة إليه. ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ فرغ منها في تمام يومين ، وهذا موافق لآيات خلق السموات والأرض في ستة أيام.

﴿وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها﴾ شأنها وما يتأتى منها من الطاعة والعبادة. ﴿بِمَصابِيحَ﴾ نجوم. ﴿وَحِفْظاً﴾ منصوب بفعل مقدر ، أي حفظناها حفظا من استراق الشياطين السمع ، بالشّهب ، أو من الآفات. ﴿ذلِكَ﴾ الخلق. ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ تقدير البالغ التمام في القدرة والعلم ، فهو القوي القادر في ملكه ، العليم بخلقه.

المناسبة :

بعد أن أمر الله تعالى بتوحيده في الألوهية والربوبية ، أردفه بما يدلّ على وجوده : وهو الخلق والتقدير للسموات والأرض في مدة قليلة ، وفي ذلك أيضا ما يدلّ على كمال قدرته وحكمته ، فمن كانت هذه صفته ، فكيف يسوغ جعل الأصنام والأوثان شركاء له في الألوهية والعبودية ، وهي عاجزة عن الخلق والتقدير؟!

التفسير والبيان :

﴿قُلْ : أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ، وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً؟ ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ قل أيها الرسول لقومك المشركين توبيخا وتقريعا : كيف تكفرون بالله الذي خلق الأرض في مقدار يومين ، قيل : هما يوم الأحد ويوم الاثنين ، أو في نوبتين نوبة جعلها جامدة بعد أن كانت كرة غازية ، ونوبة جعلها طبقات بذخائرها المائية والمعدنية.

وتجعلون له أمثالا وأضدادا مساوين له في القدرة من الملائكة والجنّ والأصنام والأوثان ، فذلك المتصف بالخلق والإبداع هو ربّ العالمين كلهم ، أي مربّي الإنس والجنّ ومالكهم وخالقهم ومدبّرهم ، فكيف تجعلون بعض مخلوقاته شركاء له في عبادته؟! ومن قدر على خلق هذه الأشياء العظيمة كيف يعقل الكفر به؟!

إنه تعالى خلق الأرض في يومين ، وتمّم بقية مصالحها في يومين آخرين ، وخلق السموات بأسرها في يومين آخرين. والمراد باليوم : الوقت مطلقا ، لا اليوم المعروف ، لأنه لم يكن هذا النظام قد وجد بعد.

والخلاصة : إن الآية إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره ، وهو الخالق لكل شيء ، القاهر لكل شيء ، المقتدر على كل شيء.

ثم أتمّ تعالى ما يقتضيه حسن العيش في الأرض بإيجاد ثلاثة أنواع فيها ، فقال :

١ . ﴿وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها﴾ أي جعل في الأرض جبالا ثوابت مرتفعة عليها ، فهي التي تحفظ الأرض من الاضطراب ، وتخزن المياه والمعادن ، وترشد إلى الطرق ، وتحفظ الهواء والسحاب ، وهذا كقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ﴾ [المرسلات ٧٧ / ٢٧].

٢ . ﴿وَبارَكَ فِيها﴾ أي جعل الأرض مباركة كثيرة الخير ، بما خلق فيها من منافع العباد ، إذ جعل تربتها مصدرا للخير والرزق بإنبات النباتات المختلفة فيها ، وإيداعها الثروة المعدنية والنفطية والمائية.

٣ . ﴿وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها﴾ أي قدّر فيها أرزاق أهلها ، وما يصلح لمعاشهم من الأشجار والمنافع ، وجعل في أقطارها ما يناسب سكانها من أطعمة ونباتات ، وأوجد في كل أرض ما لا يصلح في غيرها.

﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ﴾ أي إنه تعالى أتمّ معايش أهل الأرض في تتمة أيام أربعة باليومين المتقدّمين. وإنما ذكر هذه الأيام الأربعة للدلالة على أنها كانت مستغرقة بالأعمال من غير زيادة ولا نقصان ، وذلك في يومي الثلاثاء والأربعاء ، فهما مع اليومين السابقين أربعة.

فإتمام حوائج الأرض ومتطلباتها في أيام أربعة كاملة لأجل السائلين ، أي الطالبين للأقوات المحتاجين إليها ، أو جوابا على سؤال السائلين القائلين بطبيعتهم : في كم خلقت الأرض وما فيها؟ وإنما قال : ﴿سَواءً﴾ للدلالة على أن تلك الأيام الأربعة كانت متساوية غير مختلفة. وتخصيص الأرض بالأنواع الثلاثة : الرواسي والبركة وتقدير الأقوات إشارة إلى الاعتناء بأمر المخاطبين ، فكان الأجدر بهم ألا يحصل منهم كفر أو شرك.

ثم ذكر الله تعالى خلق السماء ، فقال :

﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ ، وَهِيَ دُخانٌ ، فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ : ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، قالَتا : أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ أي ثم عمد وقصد وتوجه توجّها كاملا إلى السماء حسبما تقتضي الحكمة ، وهي كتلة غازية مظلمة تشبه الدخان أو السحاب أو السديم (وهو عالم السديم في اصطلاح العلماء) فأمر بأن تكون بشمسها وقمرها ونجومها ، كما أمر بتكوين ما في الأرض من أنهار وثمار ونبات ، فتمّ خلقهما ، وأتت السماء والأرض منقادتين خاضعتين للأمر الإلهي طائعين أو مكرهين. وهذا هو المراد بقوله تعالى لتلك العوالم السماوية والأرضية : ائتيا طائعتين أو كارهتين ، فأجابتا بقولهما : أتينا طائعين. قيل : إن خلق السموات وما فيها تمّ في يوم الخميس والجمعة. وفائدة قوله تعالى : ﴿فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ..﴾ إظهار كمال القدرة والتقدير.

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية : ﴿فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ..﴾ : قال الله تبارك وتعالى للسموات : أطلعي شمسي وقمري ونجومي ، وقال للأرض : شققي أنهارك ، وأخرجي ثمارك ، قالتا : أتينا طائعين.

وبه يتبين أن قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ ، فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ..﴾ هو كناية عن إيجاد السماء والأرض. وإنما

خصص الاستواء بالسماء دون الأرض مع توجهه توجها كاملا لخلقهما هو رعاية السماء في مقابل تقدير الأرض.

والتوفيق بين هذه الآية : ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ ..﴾ وآية ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها﴾ [النازعات ٧٩ / ٣٠] ، المشعر بأن خلق الأرض حصل بعد خلق السماء : هو أن يقال ـ كما ذكر الرازي ـ : إنه تعالى خلق الأرض في يومين أولا ، ثم خلق بعدها السماء ، ثم بعد خلق السماء دحا الأرض أي بسطها ، فيزول التناقض [١]. ثم ناقش الرازي هذا الجواب واستشكله من وجوه.

وقال أبو حيان : والمختار عندي أن يقال : خلق السماء مقدم على خلق الأرض ، وتأويل الآية أن الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد ، بل الخلق عبارة عن التقدير ، وهو في حقّه تعالى حكمه أن سيوجد ، وقضاؤه بأن سيحدث كذا في مدة كذا : لا يقتضي حدوثه في ذلك الحال ، فلا يلزم تقديم إحداث الأرض على إحداث السماء [٢].

والمقصود بهذا أن المراد من خلق الأرض ، وجعل الرواسي فيها ، والمباركة فيها ، وتقدير أقواتها فيها هو التقدير ، أي قدر خلق الأرض والسماء ، ويكون الإتيان طوعا أو كرها بيانا لكيفية التكوين إثر بيان كيفية التقدير. وعلى كل حال يمكن فهم قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ﴾ بأن الترتيب في الذكر فحسب ، لا الترتيب في الواقع ، فإن خلق السماء كان في رأي أبي حيان قبل خلق الأرض.

والسبب في ذكر السماء مع الأرض وأمرهما بالإتيان ، والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين : هو أن الله قد خلق جرم الأرض أولا غير مدحوة أي غير

---

(١) تفسير الرازي : ٢٧ / ١٠٤ ـ ١٠٥

(٢) تفسير البحر المحيط : ٧ / ٤٨٧ ـ ٤٨٨

منبسطة ، ثم دحاها بعد خلق السماء ، كما قال : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها﴾ [النازعات ٧٩ / ٣٠] ، والمعنى : ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف ، ائت يا أرض مدحوة قرارا ومهادا لأهلك ، وائت يا سماء مقببة سقفا لهم ، ومعنى الإتيان : الحصول والوقوع.

ودحو الأرض وبسطها إنما هو بالنسبة لنظر الناظر وموقع الإنسان الذي يعيش عليها ، والحقيقة أن الأرض كرة منذ أول حدوثها.

وإتيان الأرض طائعة يدلّ على حركتها المستمرة الطائعة على وفق قانون الجاذبية الأرضية ، فهي مجذوبة إلى الشمس التي هي أصلها بحركة دورية دائمة طوعا لا قسرا ، وإتيان الأرض والسماء دليل على حركتهما ، فالأرض تدور حول نفسها وحول الشمس ، والشمس تدور حول نفسها وحول شموس أخرى أكبر منها.

وبعد أن ذكر الله تعالى تمام خلق الأرض ، ذكر كيفية تكوين السموات السبع وبيان نظامها ، فقال : ﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ ، وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها﴾ أي فأتمّ خلق السموات السبع وأحكمهنّ وفرغ منهن في مقدار يومين أو نوبتين سوى الأيام الأربعة التي خلق فيها الأرض ، فأصبح خلق السموات والأرض في أيام ستة كما قال تعالى : ﴿خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[1]. قال مجاهد : ويوم من الأيام الستّة كألف سنة مما تعدّون.

وأوحى في كل سماء أمرها ، أي جعل فيها النظام الذي تجري عليه الأمور فيها ، قال قتادة: أي خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها (مداراتها) وما فيها من الملائكة والبحار والبرد والثلوج.

---

(١) [الأعراف : ٥٤ ، يونس : ٣ ، هود : ٧ ، الفرقان : ٥٩ ، السجدة : ٤ ، ق : ٣٨ ، الحديد : ٤].

﴿وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً ، ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي وزيّنّا سماء الدنيا بكواكب منيرة مضيئة مشرقة على أهل الأرض ، متلألئة عليها كتلألئ المصابيح ، وخلقنا المصابيح زينة وحفظا من الشياطين الذين يسترقون السمع ، وحفظناها من الاضطراب في سيرها ، ومن اصطدام بعضها ببعض ، فهي تسير في نظام محكم وعلى منهج ثابت.

ذلك النظام البديع هو من ترتيب الله القادر على صنع كل شيء ، والذي يعلم كل شيء ، فهو القوي القاهر الذي غلب كل شيء وقهره ، وهو العليم بمصالح العباد وبحركاتهم وسكناتهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات على ما يأتي :

١ ـ أمر الله تعالى بتوبيخ الكفار المشركين والتّعجب من فعلهم وكفرهم بالله الذي هو خالق السموات والأرض ، واتّخاذهم الأضداد والشركاء من الأصنام وغيرها معبودات مع الله الذي خلقها وخلق جميع العوالم من الملائكة والإنس والجن وغيرهم ، وخلق الأرض في يومي الأحد والاثنين.

٢ ـ إن الخلق والتكوين والإبداع هو دليل قاطع على وجود الله وكمال قدرته وحكمته وعلمه الشامل.

٣ ـ والله تعالى أيضا هو الذي جعل في الأرض جبالا ثوابت مرتفعة عليها ، وبارك فيها بما خلق فيها من المنافع ، وقدّر أرزاق أهلها ومصالحهم ، وذلك في يومي الثلاثاء والأربعاء ، فذلك تمام الأيام الأربعة مع اليومين المتقدمين في خلق الأرض ، وهي أيام أربعة مستوية لا زيادة فيها ولا نقصان ، للسائلين وغير السائلين ، أي خلق الأرض وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل ، ويعطي من سأل ومن لا يسأل.

٤ ـ ثم عمد تعالى إلى السموات وهي في حالة دخان أي كتلة غازية مظلمة ، فنقلها من صفة الدخان إلى حال الكثافة ، وتمّ الأمر الإلهي للأرض والسماء بأن يجيئا بما خلق فيهما من المنافع والمصالح والخروج للخلق ، فاستجابتا للأمر وانقادتا له.

٥ ـ أكمل الله تعالى خلق السموات السبع وفرغ منهن في مقدار يومين هما يوما الخميس والجمعة ، سوى الأيام الأربعة التي خلق فيها الأرض ، فصار خلق السموات والأرض في أيام ستة ، كما قال تعالى ﴿خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

٦ ـ لم يكن خلق السموات خاليا من النظام ، وإنما نظم تعالى أمرها ، فخلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها ، وأوجد في كل سماء ملائكة ، وأودع فيها خزائن المطر ، وجعل لها نظاما بديعا تسير عليه دون توقّف ولا تعثّر ولا تصادم مع غيرها ، وجعل الكواكب مختصة بالسماء الدنيا ، وحفظها من كل اضطراب ومن الشياطين الذين يسترقون السمع.

٧ ـ ظاهر هذه الآية يدلّ على أن الأرض خلقت قبل السماء ، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿أَمِ السَّماءُ بَناها ، رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها ، وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها﴾ [النازعات ٧٩ / ٢٧ ـ ٣٠] ، وهذا يدلّ على خلق السماء أولا.

فقال ابن عباس : خلقت الأرض قبل السماء ، فأما قوله : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها﴾ فالدّحو غير الخلق ، فالله خلق الأرض ، ثم خلق السموات ، ثم دحا الأرض ، أي مدّها وبسطها. وأيّده ابن كثير قائلا : ففصل ها هنا في هذه الآيات ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء ، فذكر أنه خلق الأرض أولا ، لأنها كالأساس ، والأصل أن يبدأ بالأساس ، ثم بعده بالسقف ، كما قال عزّ وجلّ : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ، ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ ، فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ

سَماواتٍ﴾ [البقرة ٢ / ٢٩]. وأما آية دحو الأرض فكان بعد خلق السماء ، وأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنّص ، كما ذكر ابن عباس رضي الله عنه [١]. وهذا مفاد كلام الرازي المتقدم.

وقال مقاتل : خلق الله السموات قبل الأرض ، وتأويل قوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ﴾ : ثم كان قد استوى إلى السماء وهي دخان ، وقال لها قبل أن يخلق الأرض ، فأضمر فيه (كان) كما قال تعالى : ﴿قالُوا : إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف ١٢ / ٧٧] ، معناه : إن يكن سرق. وردّ عليه الرّازي بأن كلمة (ثم) تقتضي التأخير [٢].

تهديد المشركين بمثل صاعقة عاد وثمود

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (١٨)﴾

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤ / ٩٢

(٢) تفسير الرازي : ٢٧ / ١٠٥

الإعراب :

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ أَمَّا﴾ : حرف تفصيل فيه معنى الشرط ، لذا جاءت الفاء في ﴿فَهَدَيْناهُمْ﴾ الذي هو خبر المبتدأ ، الذي هو ﴿ثَمُودُ﴾. والأصل في الفاء أن تكون مقدّمة على المبتدأ ، إلا أنهم أخروها إلى الخبر ، لئلا يلي حرف الشرط فاء الجواب ، فهي في تقدير التقديم ، لذا جاز أن يعمل ما بعدها فيما قبلها ، مثل : ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ [الضحى ٩٣ / ٩ . ١٠] فنصب اليتيم والسائل بما بعد الفاء ، لأنها في تقدير التقديم.

ومن قرأ ﴿ثَمُودُ﴾ بالنصب ، نصبه بفعل مقدر ، يفسره هذا الظاهر ، تقديره : مهما يكن من شيء ، فهدينا ثمود فهديناهم. وقرئ «ثمود وثمود» بالصرف وترك الصرف ، فمن صرفه «ثمود» جعله اسم الحي ، ومن لم يصرفه «ثمود» جعله اسم القبيلة ، فلم يصرفه للتعريف والتأنيث.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ أن : مفسرة ، لأن مجيء الرسل بالوحي فيه معنى القول ، ولا : ناهية ، أو مصدرية ولا : ناهية ، أو مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن.

البلاغة :

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ بعد قوله : ﴿قُلْ : أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة ، إظهارا لعدم المبالاة بهم والاستخفاف بشأنهم ، ففي دعوتهم للإيمان خوطبوا اجتذابا لهم ، وفي حال إعراضهم عن الإيمان بعد البيان ، أهملوا.

﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي كفار مكة عن الإيمان بعد هذا البيان. ﴿أَنْذَرْتُكُمْ﴾ خوفتكم بنزول العذاب. ﴿صاعِقَةً﴾ عذابا شديدا يهلكهم كأنه صاعقة. ﴿مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾ أي مثل العذاب الذي أهلكهم. والصاعقة في الأصل : صيحة الهلاك أو قطعة النار النازلة من السماء مع رعد شديد. ﴿إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ إِذْ﴾ هنا : ظرف ﴿صاعِقَةً﴾ الثانية ، لأنها بمعنى عذاب ، أو حال منها لإضافتها ، وقد جاءهم هود وصالح داعيين إلى الإيمان بهما ، وبجميع الرسل ممن جاء.﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي من قبلهم ومن بعدهم ، فكأن الرسل جميعا قد جاءوهم.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ «أن» مفسرة بمعنى أي ، أو أنها مخففة من الثقيلة ، أصله : بأنه

لا تعبدوا ، أي بأن الشأن والحديث قولنا لكم : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾. ﴿لَوْ شاءَ رَبُّنا﴾ مفعول شاء محذوف ، أي لو شاء ربنا إرسال الرسل. ﴿لَأَنْزَلَ﴾ علينا. ﴿فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ أي فإذا أنتم بشر ، ولستم بملائكة ، فإنا لا نؤمن بكم وبما جئتم به. وقوله ﴿بِما أُرْسِلْتُمْ﴾ ليس إقرارا منهم بالإرسال ، وإنما هو على حسب كلام الرسل ، أي في زعمكم ، وفيه تهكم ، كما قال فرعون : ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٢٧] وقولهم : ﴿فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء الذين دعوا إلى الإيمان بهم.

﴿فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ﴾ أي فتعظموا فيها على أهلها بغير استحقاق. ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟﴾ أي لا أحد ، وهذا اغترار بقوتهم وعزيمتهم ، كان واحدهم يقلع الصخرة العظيمة من الجبل بيده ، ثم يجعلها حيث يشاء. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعلموا. ﴿أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي قدرة ، فإنه قادر بالذات ، مقتدر على ما لا يتناهى ، قوي على ما لا يقدر عليه غيره. ﴿وَكانُوا بِآياتِنا﴾ المعجزات. ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ينكرونها مع معرفتهم بأنها حق ، ﴿وَكانُوا﴾ معطوف على قوله : ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾.

﴿رِيحاً صَرْصَراً﴾ شديدة البرد ، تهلك بشدة بردها ، مأخوذ من الصرّ : وهو البرد الذي يصرّ ، أي يجمع ، أو هي شديدة الصوت في هبوبها ، من الصرير ، فهي باردة شديدة الصوت بلا مطر. ﴿نَحِساتٍ﴾ مشؤومات عليهم. ﴿عَذابَ الْخِزْيِ﴾ عذاب الذل. ﴿أَخْزى﴾ أشد ذلا.

﴿وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ﴾ بمنعه عنهم.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ﴾ أي بينا لهم طريق الهدى والحق ، بإرسال الرسل وبيان الحجج والأدلة. ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى﴾ أي فاختاروا الضلالة والكفر على الإيمان. ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ﴾ صاعقة من السماء فأهلكتهم ، والهون : المهين أو الذل. ﴿بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من اختيار الضلالة.

المناسبة :

بعد بيان إعراض عبدة الأوثان عن الإيمان بالله بالرغم من الأدلة الدالة على وجوده وتوحيده وقدرته من خلق السموات والأرض ، أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن ينذرهم بعذاب شديد مماثل للعذاب الذي نزل بعاد وثمود من قبلهم ، مع بيان سبب العذاب النازل بكل قبيلة على حدة.

التفسير والبيان :

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ : أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق : إن أعرضتم عن الإيمان بالله وبرسالتي ، ولم تتدبروا وتتفكروا في هذه المخلوقات الكونية العظيمة ، فإني أخوفكم بعذاب شديد قاتل في الحال مشابه لعذاب الأمم الماضية المكذبين بالرسل ، كعاد وثمود ونحوهما ممن فعل فعلهما.

﴿إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ عذبوا بعد أن جاءتهم الرسل المتقدمون الذين بلغتهم رسالاتهم وكلامهم والرسل المتأخرون الذين رأوهم بأنفسهم ، وأمروهم بعبادة الله وحده ، فكذبوهم وأدبروا عنهم ، وتذرعوا بأن الرسل ملائكة لا بشر كما قال تعالى :

﴿قالُوا : لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ، فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ أي قالوا لرسلهم : لو شاء ربنا إرسال الرسل لأرسل إلينا ملائكة ، ولم يرسل إلينا بشرا من جنسنا لا فضل لهم علينا ، فإنا بما أرسلتم به أيها البشر ـ في زعمكم ـ كافرون منكرون ، فلا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا.

ولا بأس من إعادة قصة عتبة هنا برواية أخرى مفيدة لمعرفة مدى تأثير القرآن وهذه الآيات بالذات في النفوس إذا تجردت عن الأهواء والعصبيات ، أخرج البيهقي في الدلائل وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال : «قال أبو جهل والملأ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم رجلا عالما بالسحر والكهانة والشعر ، فكلّمه ، ثم أتانا ببيان من أمره. فقال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت السحر والكهانة والشعر ، وعلمت من ذلك علما ، وما يخفى عليّ إن كان كذلك ، فأتاه ، فقال : يا محمد ، أنت خير أم هاشم ، أنت خير أم عبد المطلب؟ فلم يجبه ، قال : لم تشتم آلهتنا وتضللنا؟ إن كنت تريد

الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا ، وإن تك بك الباءة (الميل للنساء) زوجناك عشر نسوة تختارهن ، أيّ بنات من شئت من قريش ، وإن كان المال مرادك جمعنا لك ما تستغني به ، ورسول الله ساكت ، فلما فرغ ، قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، حم ، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ . إلى قوله . ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا ، فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾ ، فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم ، فرجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، فلما احتبس عنهم قالوا : لا نرى عتبة إلا قد صبأ ، فانطلقوا إليه ، وقالوا : يا عتبة ، ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت ، فغضب وأقسم لا يكلم محمدا أبدا ، ثم قال : والله لقد كلمته ، فأجابني بشيء ما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة ، ولما بلغ ﴿صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾ أمسكت بفيه ، وناشدته الرحم ، ولقد علمت أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب».

ثم بدأ الله تعالى بتفصيل ما حصل من قوم عاد وثمود ، بعد الإجمال ، فقال : ﴿فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَقالُوا : مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟﴾ أي فأما قوم عاد فتكبروا عن الإيمان بالله وتصديق رسله ، واستعلوا على من في الأرض بغير استحقاق ، وبغوا وعتوا وعصوا ربهم ، وقالوا : لا أحد أقوى منا ، حتى يقهرنا ، وقد كانوا ذوي أجسام طوال وقوة شديدة ، فاغتروا بأجسامهم حين تهددهم هود عليه السلام بالعذاب ، ومرادهم بهذا القول أنهم قادرون على دفع ما ينزل بهم من العذاب.

فرد الله عليهم موبخا ، فقال :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً؟ وَكانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ﴾ أي أو لم يعلموا ويتفكروا فيمن يبارزون بالعداوة؟ فإنه العظيم الذي

خلق الأشياء وما فيها من القوى ، وإن بطشه لشديد ، فهو قادر على أن ينزل بهم من أنواع عقابه ما شاء بقوله : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ وهم يعرفون مدى أحقية آياتنا وثبوتها ، ولكنهم يجحدون بها ويعصون الرسل ، وينكرون معجزاتهم والأدلة الدامغة التي هي حجة عليهم.

ثم ذكر الله تعالى نوع عقابهم ، فقال :

﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ ، لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى ، وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ﴾ أي فأرسلنا عليهم ريحا شديدة البرد وشديدة الصوت تحرق وتدمر ما أتت عليه في فترة أيام مشؤومات متتابعات ، كما قال تعالى : ﴿سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾ [الحاقة ٦٩ / ٧].

وغاية ذلك العذاب أن نذيقهم عذاب الذل والهوان في الدنيا بسبب استكبارهم ، وإن عذاب الآخرة أشد إهانة وإذلالا من عذاب الدنيا ، وهم لا يجدون ناصرا ينصرهم ولا دافعا يدفع عنهم العذاب ، لا في الآخرة ولا في الدنيا.

ثم فصل تعالى جناية ثمود ، فقال :

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى﴾ أي وأما قبيلة ثمود ، فبيّنا لهم طريق الحق والهدى والنجاة ، بإرسال الرسل إليهم ، وبيان الأدلة الكونية من مخلوقات الله على توحيدنا ، فاختاروا الكفر على الإيمان ، وآثروا العصيان على الطاعة ، وكذبوا رسولهم ، وعقروا ناقة الله التي هي دليل صدق نبيهم.

فكان عذابهم ما أخبر عنه تعالى :

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي فبعثنا عليهم

صيحة ورجفة وعذابا مهينا بسبب كسبهم وهو التكذيب والجحود. وقوله : ﴿صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ﴾ أي داهية العذاب الهوان.

﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي وأنقذنا من العذاب صالحا عليه السلام ومن معه من المؤمنين برسالته ، المتقين ربهم بإقامة فرائضه وترك معاصيه ، لم يمسهم سوء ، ولا نالهم من ذلك ضرر ولا مكروه.

فقه الحياة أو الأحكام :

يؤخذ من الآيات ما يأتي :

١ ـ إن الإصرار على الكفر سبب لعذاب الدنيا والآخرة ، فلما أصر كفار قريش على الكفر والجهل ، لم يبق علاج في حقهم إلا إنزال العذاب عليهم ، ولكن الله برحمته أراد إنذارهم أولا وتخويفكم هلاكا مثل هلاك عاد وثمود.

٢ ـ لم يترك الله سبيلا لثني كفار عاد وثمود عن كفرهم ، فأرسل إليهم كما أرسل إلى من قبلهم رسلا يدعونهم إلى عبادة الله وحده ، فتذرعوا بأن الرسول ينبغي أن يكون من الملائكة ، والله قادر على إنزال ملائكة بدل الرسل ، وأضافوا بأنهم كافرون بما جاء به الرسل من الإنذار والتبشير.

٣ ـ كان من جناية عاد أنهم تكبروا في الأرض على عباد الله : هود ومن آمن معه ، بغير حق ولا موجب للتكبر ، واغتروا بأجسامهم حين تهدّدهم هود عليه السلام بالعذاب. ولكنهم قوم حمقى فإن الله أقدر منهم وأقوى ، فلم يتفكروا في ذلك ، وكفروا بالمعجزات. وتضمن استكبارهم أمرين :

الأول ـ إظهار الكبر وعدم الالتفات إلى الغير.

والثاني ـ الاستعلاء على الغير.

٤ ـ تدل الآية على إثبات القدرة والقوة لله تعالى ، كما قال : ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ

﴿الرَّزَّاقُ ، ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات ٥١ / ٥٨] وقدرة العبد متناهية محدودة ، وقدرة الله لا نهاية لها وغير محدودة. فقوله تعالى : ﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ليس المراد به المفاضلة أو النسبة التفضيلية ، وإنما هو على منوال قولنا : (الله أكبر) فلا يراد بالتفضيل معناه المعروف ، فهو كما يقولون : ليس على بابه.

٥ ـ عذّب الله في الدنيا قبيلة عاد بإرسال ريح باردة شديدة البرد ، وشديدة الصوت والهبوب ، في مدى سبعة أيام مشؤومات متتابعات ، وسيكون عذابهم يوم القيامة في النار أشد وأعظم من عذاب الدنيا ، ولا يجدون ناصرا ينصرهم من العذاب.

٦ ـ لقد بيّن الحق تعالى لقبيلة ثمود الهدى والضلال ، فاختاروا الكفر على الإيمان ، والمعصية على الطاعة ، والضلالة على الرشد ، فأرسل الله عليهم قارعة صاعقة مدمرة محرقة هي الصيحة والرجفة والذل والهوان بسبب تكذيبهم صالحا عليه السلام وعقرهم الناقة.

٧ ـ جرت سنة الله عدلا وفضلا ورحمة على إنجاء المؤمنين ، فقد نجّى الله تعالى صالحا عليه السلام ومن آمن به ، وميّزهم عن الكفار ، فلم يحلّ بهم ما حلّ بالكفار ، وهذا كعادة القرآن في قرن الوعد بالوعيد.

والعبرة من إيراد قصة عاد وثمود : العظة والعبرة والتخويف والتحذير ، وتهديد مكذبي الرسل ، والإخبار بأنه تعالى يفعل بمؤمني قوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكفارهم ما فعل بعاد وثمود ، وكل ذلك بقصد التخويف للإقلاع عن موجبات العذاب. أما في الواقع فإن مثل ذلك العذاب لا يقع في أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، لقوله تعالى : ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال ٨ / ٣٣] وجاء في الأحاديث الصحيحة : أن الله تعالى رفع عن هذه الأمة هذه الأنواع من الآفات الشاملة.

كيفية عقوبة الكفار في الآخرة

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (٢٥)﴾

الإعراب :

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ .. يَوْمَ﴾ : منصوب بفعل دل عليه. ﴿يُوزَعُونَ﴾ وتقديره : يساق الناس يوم يحشر ، أو منصوب بتقدير : اذكر.

﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ أن وصلتها : في موضع نصب ، بتقدير حذف حرف الجر ، وتقديره : وما كنتم تستترون عن أن يشهد عليكم ، فحذف «عن» فاتصل الفعل به.

﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ ذلِكُمْ﴾ : مبتدأ ، و ﴿ظَنُّكُمُ﴾ : خبره ، و ﴿أَرْداكُمْ﴾ : خبر ثان.

البلاغة :

﴿ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ﴾ أي واذكر حين يجمع ، فعل مبني للمجهول أو للفاعل وهو الله تعالى ، وقرئ : (نحشر أعداء). ﴿يُوزَعُونَ﴾ يساقون بعد أن يحبس أولهم ليلحق آخرهم لئلا يتفرقوا ، من وزعته : كففته ، والمراد : كثرة أهل النار. ﴿حَتَّى إِذا ما حَتَّى﴾ غاية لقوله : ﴿يُوزَعُونَ﴾ و ﴿ما﴾ صلة زائدة لتأكيد ارتباط المجيء بشهادة الأعضاء ، واتصال الشهادة بالحضور. ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بأن ينطقها الله فعلا ، أو تظهر عليها آثار تدل على ما اقترف بها ، فتنطق بلسان الحال.

﴿وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا؟﴾ سؤال توبيخ أو تعجب ، والجلود : الجلود المعروفة ، وقيل : هي الجوارح أو الفروج. ﴿قالُوا : أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي ما نطقنا باختيارنا ، بل أنطقنا الله الذي أراد نطق كل شيء ، ولو كان النطق مؤوّلا بدلالة الحال ، بقي الشيء عاما في الموجودات الممكنة. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يحتمل أن يكون من تمام كلام الجلود ، وأن يكون استئنافا من كلام الله تعالى ، كالذي بعده. والمعنى : إن القادر على إنشائكم ابتداء ، وإعادتكم بعد الموت أحياء ، قادر على إنطاق جلودكم وأعضائكم.

﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ..﴾ أي ما كنتم تتسترون وتستخفون عند ارتكاب الفواحش من أن تشهد عليكم أعضاؤكم ، وما ظننتم أن أعضاءكم تشهد عليكم ، لأنكم لم توقنوا بالبعث. وفيه تنبيه على أن المؤمن ينبغي أن يشعر في كل حال بوجود رقيب عليه. ﴿وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ظننتم ألا يعلم الله بكم ، فلذلك اجترأتم على المعاصي. ﴿ذلِكُمْ﴾ إشارة إلى ظنهم هذا. ﴿أَرْداكُمْ﴾ أهلككم. ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ إذ جعلتم ما هو سبب للسعادة سببا للشقاوة.

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا﴾ على العذاب. ﴿فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ﴾ مأوى. ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾ يطلبوا العتبى ، أي الرضا. ﴿فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ المرضيين المجابين إلى ما يطلبون ، أي المقبولين عتابهم ، يقال : استعتبته فأعتبني ، أي استرضيته فأرضاني ، وأعتبني فلان : إذا عاد إلى مسرتي راجعا عن الإساءة. ﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ﴾ هيأنا لهم ويسرنا شياطين الإنس والجن ، يستولون عليهم. ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا واتباع الشهوات. ﴿وَما خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الآخرة ، بقولهم : لا بعث ولا حساب. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ ثبت ووجب عليهم القول بالعذاب ، وهو : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ..﴾ الآية [هود ١١ / ١١٩] وهو القضاء المحتم. ﴿فِي أُمَمٍ﴾ في جملة أمم. ﴿قَدْ

﴿خَلَتْ﴾ هلكت. ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ وهم الذين عملوا مثل عملهم. ﴿إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب.

سبب النزول :

نزول الآية (٢٢):

﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ : أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن ابن مسعود ﷺ قال : «كنت مستترا بأستار الكعبة ، فجاء ثلاثة نفر : قرشيّ وختناه [١] ثقفيّان . أو ثقفيّ وختناه قرشيان . كثير شحم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعه ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإذا لم نرفعه لم يسمعه ، فقال الآخر : إن سمع منه شيئا سمعه كلّه . قال . : فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ﴾ إلى قوله : ﴿مِنَ الْخاسِرِينَ﴾.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى كيفية عقوبة أولئك الكفار الجاحدين في الدنيا ، أردفه ببيان كيفية عقوبتهم في الآخرة ، ليكون ذلك أتم في الزجر والتحذير. ثم ذكر تعالى بقوله : ﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ ..﴾ سبب بقائهم في الكفر. قال الزمخشري : فإن قلت : كيف جاز أن يقيض لهم القرناء من الشياطين وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم؟ قلت : معناه : أنه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر ، فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين ، والدليل عليه : ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً ، فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٣٦] [٢].

---

(١) الختن : الصهر ، والثقفي : عبد ياليل ، وختناه : ربيعة وصفوان بن أمية.

(٢) الكشاف : ٣ / ٧٠

التفسير والبيان :

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللهِ إِلَى النَّارِ ، فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي واذكر أيها الرسول لقومك قريش حال الكفار يوم القيامة ليرتدعوا وينزجروا حين يساقون جميعا إلى النار بعنف ، بعد إيقاف أولهم ليلحق بهم آخرهم كيلا يتفرقوا ، وليتلاحقوا ويجتمعوا ، فتجمع الزبانية أولهم على آخرهم ، كما قال تعالى : ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ [مريم ١٩ / ٨٦].

وأعداء الله تعالى : كل من كذب رسله واستكبر عن عبادته. وفي الآية إشارة إلى جموع الكفار وكثرتهم وإهانتهم في سوقهم.

﴿حَتَّى إِذا ما جاؤُها ، شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي يوزعون إلى أن يصلوا إلى النار ويقفوا عليها ، فيسألون عما أجرموا ، فإذا أنكروا تشهد عليهم جوارحهم بما اقترفت من الشرك والمعاصي وما عملوا في الدنيا ، بأن ينطقها الله بما كتمت الألسن كما أنطق الشجرة ، بأن يخلق فيها كلاما ، والجلود : هي جلودهم المعروفة ، وقيل : المراد بالجلود : الجوارح (الأعضاء) وشهادة الجلود : بالملامسة للحرام وما أشبه ذلك مما يفضي إليها من المحرّمات. واقتصر من الحواس الخمس على ثلاث منها وهي السمع والبصر واللمس ، فإن آلة اللمس : هي الجلد ، باعتبارها وسائل قوية للعصيان. أما الذوق فهو داخل في اللمس ، وأما الشم فهو حسّ ضعيف في الإنسان ، وليس لله فيه تكليف ولا أمر ولا نهي. وقوله ﴿سَمْعُهُمْ﴾ مفرد مضاف فيعم ، ويصبح نظير جمع الأبصار والجلود.

فيحدث التعجب من الإنسان ، كما حكى تعالى :

﴿وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا : أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي يقول هؤلاء على جهة اللوم والمؤاخذة لأعضائهم وجلودهم حين شهدوا

عليهم : ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا﴾؟ فتجيبهم الأعضاء معتذرين : لقد أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء من مخلوقاته ، فإنه كما أنطق الألسن في الدنيا ، فكذلك أنطقنا في الآخرة ، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح ، كما قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ ، وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس ٣٦ / ٦٥].

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي من قدر على خلقكم وإنشائكم في ابتداء الأمر ، قدر على إعادتكم ورجوعكم إليه ، فإليه المصير بعد الموت ، فيحاسب ويجازي كل نفس بما كسبت. وهذا إما تتمة كلام الجلود ، أو من كلام الله تعالى.

أخرج مسلم في صحيحة والبزار وغيرهما عن أنس بن مالك ﷺ قال : «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فضحك ، فقال : هل تدرون ممّا أضحك؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : من مخاطبة العبد ربه ، يقول ـ أي العبد لربه ـ : ألم تجرني من الظلم [١]؟ قال : يقول : بلى ، قال : فيقول : فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني ، قال : يقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام الكاتبين شهودا ، قال : فيختم على فيه (فمه) فيقال لأركانه : انطقي ، فتنطق بأعماله ، قال : ثم يخلّى بينه وبين الكلام ، قال : فيقول : بعدا لكنّ وسحقا ، فعنكنّ كنت أناضل».

﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ﴾ هذا إما من كلام الجلود أو من كلام الله سبحانه كسابقه أو من كلام الملائكة ، أي ما كنتم تتسترون وتستخفون حين فعل الأعمال القبيحة ومباشرتكم الفواحش ، حذرا أو مخافة من شهادة الجوارح عليكم ، بل كنتم تجاهرون بالكفر والمعاصي.

---

(١) هذه رواية مسلم ، ورواية البزار : «يقول : أي ربي ، أليس وعدتني ألا تظلمني»؟.

ولما كان الإنسان لا يقدر على أن يستخفي من جوارحه عند مباشرة المعصية ، كان معنى الاستخفاء هنا ترك المعصية ، خوفا من هذه الشهادة.

﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي ولكنكم ظننتم ظنا مخطئا أن الله حال ارتكابكم المعاصي لا يعلم كثيرا مما تعملون من المعاصي ، فاجترأتم على فعلها.

وفي الآية إيماء إلى أنه ينبغي للمؤمن أن يفكر دائما بوجود رقيب عليه.

﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ ، فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ أي إن ظنكم بأن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ، وهو ظن فاسد ، جرّأكم على المعصية ، فتسارعتم فيها ، وذلك أهلككم وطرحكم في النار ، فصرتم من الخاسرين ، إذ جعلتم ما هو سبب للسعادة سببا للشقاوة.

أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه عن جابر بن عبد الله ﷺ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن ، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله ، فقال الله تعالى : ﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾.

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ ، وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أي فإن يصبروا لم ينفعهم الصبر ، أو لم يصبروا ، هم في النار ، لا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها ، فهي مأواهم ومحل استقرارهم ، وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذارا عن ذنوبهم ، فما لهم أعذار ، ولا يقبل منهم الاعتذار والاسترضاء ، لأنهم فارقوا الدنيا التي هي دار العمل والتكليف ، قال عليه الصلاة والسلام فيما ذكره ابن الأثير وغيره عن ابن عباس : «ولا بعد الموت من مستعتب» أي ليس بعد الموت من معذرة أو استرضاء ، لأن الآخرة دار جزاء ، لا دار عمل.

ثم أبان الله تعالى سبب بقائهم في الكفر ، فقال :

﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ ، فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ أي وسلّطنا عليهم قرناء من شياطين الإنس والجن ، فحسّنوا لهم أعمالهم في الماضي والمستقبل ، وزيّنوا لهم ما بين أيديهم من أمور الدنيا وشهواتها ، وأغروهم بالمعاصي ، وزينوا لهم ما خلفهم من أمور الآخرة ، فقالوا : لا بعث ولا حساب ، ولا جنة ولا نار ، فلم يروا أنفسهم إلا محسنين ، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ ، نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٣٦ ـ ٣٧].

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ﴾ أي وثبت لهم العذاب في جملة أمم كافرة مضت على الكفر قبلهم ، فعلوا كفعلهم من الجن والإنس ، فوجب لهم العذاب نفسه ، وإنهم كانوا وإياهم متساوين في الخسارة والدمار ، بتكذيبهم وسوء أفعالهم ، ولم يربحوا شيئا.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى الأحكام التالية :

١ ـ يجمع الكافرون جمعا واحدا يوم القيامة ، فيحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ، ثم يساقون ويدفعون جميعا إلى جهنم.

٢ ـ إذا جاؤوا إلى النار شهدت عليهم جوارحهم وأسماعهم وأبصارهم وجلودهم ، وهي الجلود المعروفة بأعيانها في قول أكثر المفسرين. وكيفية الشهادة : أنه تعالى يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها ، فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه ، وهذا هو الظاهر المناسب للآية بعدها ، وقيل : أن يظهر على تلك الأعضاء أمارات وأحوال تدل على صدور تلك الأعمال من الإنسان.

٣ ـ يتعجب الكفار من شهادة أعضائهم عليهم ، فيسألونهم : لم شهدتم علينا ، وإنما كنا نجادل عنكم؟ فيجيبون : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ،

فالذي قدر على إحيائكم في المرة الأولى في الدنيا ثم إعادتكم أحياء في الآخرة ، قادر على أن ينطق الجلود وغيرها من الأعضاء.

٤ ـ يجيبون أيضا : ما كنتم تستخفون من أنفسكم ، حذرا من شهادة الجوارح عليكم ، لأن الإنسان لا يمكنه أن يخفي من نفسه عمله ، فيكون الاستخفاء بمعنى ترك المعصية.

ولقد ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا من أعمالكم ، فجادلتم على ذلك ، حتى شهدت عليكم جوارحكم بأعمالكم. وكما تكون الشهادة بالشر والسوء تكون بالخير.

ذكر أبو نعيم الحافظ عن معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «ليس من يوم يأتي على ابن آدم إلا ينادى فيه : يا ابن آدم ، أنا خلق جديد ، وأنا فيما تعمل غدا عليك شهيد ، فاعمل فيّ خيرا أشهد لك به غدا ، فإني لو قد مضيت لم ترني أبدا ، ويقول الليل مثل ذلك».

٥ ـ وإن ظنكم أن الله لا يعلم كثيرا من أعمالكم هو الذي أهلككم ، فأرداكم النار ، قال قتادة : «الظن هنا بمعنى العلم» والظن هنا قبيح فاسد. والظن الفاسد : هو أن يظن بالله تعالى أنه يعزب عن علمه بعض هذه الأحوال.

وقال قتادة أيضا : الظن نوعان : ظن منج وظن مرد ، فالمنجي : قوله : ﴿**إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ**﴾ [الحاقة ٦٩ / ٢٠] وقوله : ﴿**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ**﴾ [البقرة ٢ / ٤٦]. وأما الظن المردي : فهو قوله : ﴿**وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ**﴾.

وقال العلماء : الظن قسمان :

أ ـ حسن : وهو أن يظن بالله عَزَّوَجَلَّ الرحمة والفضل والإحسان ، قال الله تعالى في الحديث القدسي فيما أخرجه مسلم والحاكم عن أنس : «أنا عند ظن عبدي بي».

ب ـ قبيح : وهو أن يظن أن الله لا يعلم بعض الأفعال.

وقال الحسن البصري : إن قوما ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة ، ويقول أحدهم : إني أحسن الظن بربي ، وقد كذب ، ولو أحسن الظن لأحسن العمل ، وتلا قول الله : ﴿وَذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ ، فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾.

٦ ـ سواء صبر الكفار على العذاب أم لم يصبروا ، فالنار مثواهم ومأواهم ومستقرّهم ، وإن أرادوا الاعتذار عن كفرهم واسترضاء ربهم ، لم يجابوا إلى طلبهم.

٧ ـ سلّط الله على الكفار قرناء من الجن والشياطين ، ومن الإنس أيضا ، فحسّنوا وزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروها على الآخرة ، وزينوا وحسنوا لهم ما بعد مماتهم ، ودعوهم إلى التكذيب بأمور الآخرة ، ووجب عليهم من العذاب ما وجب على الأمم الذين من قبلهم الذين كفروا ككفرهم ، وخسروا أعمالهم في الدنيا وأنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

وهذا يدل على أن الله تعالى يريد الكفر من الكافر ، لكن لم يأمره به ولم يرضه له ، وحذره منه ومن الإصرار عليه. والإرادة للدلالة على أنه لا يقع شيء في الكون من دون إرادة الله ، وإلا كان وقوع الشيء قهرا وعجزا ، والله لا يقهر ولا يغلب.

الصد عن سماع القرآن الكريم

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾

الإعراب :

﴿ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللهِ النَّارُ ذلِكَ جَزاءُ﴾ : مبتدأ وخبر ، و ﴿النَّارُ﴾ : إما بدل من ﴿جَزاءُ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف تقديره : هو النار ، وتكون هذه الجملة بيانا للجملة الأولى ، أو مبتدأ وخبره : ﴿لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ﴾.

﴿جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا جَزاءُ﴾ منصوب على المصدر بفعله ، أي يجازون جزاء.

المفردات اللغوية :

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إذا قرأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم القرآن. ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ عارضوه بالكلام اللغو الذي لا معنى له ، وارفعوا أصواتكم بذلك في زمن قراءته لتشوشوا على القارئ. وقرئ بضم الغين والمعنى واحد ، يقال : لغي يلغى ، ولغا يلغو وألغى : إذا هذى. ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ تغلبونه على قراءته ، فيسكت عن القراءة.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً﴾ المراد بهم هؤلاء القائلون وعامة الكفار. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لنجازينهم بسيئات أعمالهم أو أعمالهم السيئة ، أو المراد لنجازينهم بأقبح جزاء عملهم. ﴿ذلِكَ جَزاءُ ..﴾ أي ذلك العذاب الشديد وأسوأ الجزاء هو جزاء أعداء الله الذين كذبوا رسله واستكبروا عن عبادته. ﴿دارُ الْخُلْدِ﴾ دار الإقامة المستمرة التي لا انتقال فيها. ﴿بِآياتِنا﴾ القرآن. ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وهم في النار. ﴿رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ أي إبليس وقابيل اللذان منّا الكفر والقتل. ﴿نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا﴾ ندوسهما بالأقدام في النار انتقاما منهما. ﴿لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ الأذلين المهانين.

المناسبة :

بعد بيان الوعيد الشديد للكفار في الدنيا والآخرة ، وبيان سببه الذي أوقعهم في الكفر وأبقاهم فيه ، ذكر الله تعالى موقفا معاديا آخر لهم ، وهو صد الناس عن سماع القرآن والتشويش عند قراءته ، لينصرفوا عنه ، وهم أنفسهم عند الوقوع في العذاب الشديد يطلبون الانتقام ممن صيّرهم إلى هذا المصير المشؤوم.

التفسير والبيان :

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ ، وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي وقال بعض الكفار لبعض : لا تنصتو لسماع هذا القرآن عند تلاوته أو لا تطيعوه ولا تنقادوا لأوامره ، وعارضوه باللغو الذي لا معنى له ، من إنشاد الأشعار ، ورفع الأصوات والتصفيق والتصفير ، والتخليط بالخرافات ، حتى تشوشوا على القارئ ، ولكي تغلبوه على قراءته ، فيسكت.

وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في مكة يجهر بتلاوة القرآن لإسماعه الكفار لعلهم يؤمنون به ، فكانت قريش يوصي بعضهم بعضا بالتصفيق والتصفير وإنشاد الشعر. قال ابن عباس : قال أبو جهل إذا قرأ محمد ، فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول. وهذا دليل على تكذيب مشركي قريش بالقرآن وكفرهم ، مثل كفر قوم هود وصالح وغيرهم.

وبعد بيان ذلك هدّدهم الله تعالى بالعذاب الشديد ، فقال :

﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي فلنجازين جميع الكفار بعذاب شديد ، ومنهم كفار قريش في مقابلة معاداتهم لسماع القرآن ، ومحاولة صد الناس عن استماعه ، ولنجازينهم في الآخرة جزاء أقبح أعمالهم التي عملوها في الدنيا ، وهو الشرك ، ونهمل ما عملوا من

محاسن الأعمال ، كصلة الرحم ، وإكرام الضيف ، لأن ذلك باطل لا أجر لهم فيه مع حالة الكفر.

وهذا وعيد شديد لجميع الكفار ، وتعريض بمن لا يخشع ولا يتدبر حين سماع القرآن ، فقد أمر الله عباده المؤمنين بالاستماع للقرآن والإنصات له ، فقال : ﴿وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ ، فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٢٠٤].

ثم ذكر الله تعالى صفة ذلك العذاب قائلا :

﴿ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللهِ النَّارُ ، لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ ، جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ﴾ أي ذلك الجزاء لأقبح أعمال الكفار وهو دخول النار ، هو جزاء أعداء الله الذين كذبوا رسله ، واستكبروا عن عبادته ، لهم في النار دار الإقامة المستمرة التي لا انقطاع لها ، ويجزون ذلك جزاء بسبب جحدهم أن القرآن من عند الله تعالى ، وإنكارهم صحة آياته وسلامتها.

ثم بيّن الله تعالى ما يطلبه الكفار من الانتقام ممن أضلوهم عند الوقوع في العذاب الشديد ، فقال :

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا ، لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ أي طلب الكفار من ربهم أن يريهم من أضلهم من فريقي شياطين الجن والإنس الذين كانوا يزينون لهم الكفر والمعاصي ، لكي يدوسوهم بأقدامهم ، تشفيا وانتقاما منهم ، وليكون الفريقان من الأذلين المهانين ، في الدرك الأسفل من النار ، أشد عذابا منهم ، فأجابهم تعالى في موضع آخر : ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٣٨]. والشياطين: إما جني وإنسي ، قال تعالى : ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِ﴾ [الأنعام ٦ / ١١٢] وقال سبحانه : ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس ١١٤ / ٦].

وقيل : هما إبليس وقابيل ، لأنهما سنّا الكفر والقتل بغير حق ، ويشهد لهذا القول الحديث المرفوع عند الترمذي : «ما من مسلم يقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من ذنبه ، لأنه أول من سنّ القتل» وقال علي ﷺ : هما ابن آدم الذي قتل أخاه ، وإبليس ، أي لأنهما هما اللذان سنّا المعصية.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١ ـ لم يترك كفار قريش سبيلا لمعارضة القرآن بالباطل ، بعد أن عجزوا عن معارضته بالحق ، فلجئوا إلى الغوغائية والتخليط في الكلام والتصفيق والتصفير عند سماع القرآن ، وهذا شأن الجهلة والسفلة أمام صيحة الحق في كل زمان يستخدمون أسلوب اللغو في طمس الحقائق ، واللغو : ما لا يعلم له حقيقة ولا تحصيل.

٢ ـ كان جزاؤهم بسبب كفرهم وتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو أن يذوقوا في الآخرة العذاب الشديد الذي يتوالى فلا ينقطع ، ويحيط بهم في جميع أجزائهم ، وأن يجزوا في الآخرة جزاء أقبح أعمالهم التي عملوها في الدنيا ، وأسوأ الأعمال : الشرك.

٣ ـ ذلك العذاب الشديد وهو النار هو جزاء جميع الكفار أعداء الله الذين كذبوا الرسل واستكبروا عن عبادة الله تعالى.

٤ ـ طلب الكفار وهم في النار أن يريهم الله من أضلهم من الجن والإنس ، ليدوسوهم تحت أقدامهم في جهنم ، وليكونوا من الأذلين المهانين ، وفي الدرك الأسفل من النار ، تشفيا وانتقاما منهم ، ومرادهم أن يضعّف الله عذاب من كان سبب ضلالتهم من الجن والإنس. وهذا مطابق لما قضى به الله من مضاعفة عذاب

الرؤساء الذين يدعون إلى الضلال ، فيعطي كلا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال ، بحسب عمله وإفساده ، كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ ، بِما كانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل ١٦ / ٨٨].

ما وعد الله به أهل الاستقامة

﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢)﴾

الإعراب :

﴿أَلَّا تَخافُوا إِنَ﴾ : مفسرة بمعنى أي أو مخففة من الثقيلة ، وأصله : بأنه لا تخافوا ، والهاء: ضمير الشأن.

﴿وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ ، نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ما﴾ : اسم موصول ، وعائده محذوف تقديره : تدّعونه. و ﴿نُزُلاً﴾ : إما منصوب على المصدر ، وإما منصوب على الحال من الكاف واللام في ﴿وَلَكُمْ﴾. وهو جمع «نازل» كشارف وشرف ، وتقديره : ولكم فيها نازلين. والأظهر أن يكون ﴿نُزُلاً﴾ في هذه كقوله تعالى : ﴿هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة ٥٦ / ٥٦] لا جمع «نازل» أي ما أعدّ لهم من الجزاء ، وهو حال من ﴿ما تَدَّعُونَ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿قالُوا : رَبُّنَا اللهُ﴾ اعترافا بربوبيته وإقرارا بوحدانيته ﴿ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾ ثبتوا وداوموا على الاستقامة في العمل الصالح والإقرار بالوحدانية ومقتضياته. وما روي عن الخلفاء الراشدين في معنى

الاستقامة من الثبات على الإيمان ، وإخلاص العمل ، وأداء الفرائض فجزئياتها. وقوله ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي عن الإقرار بالربوبية في المرتبة والفضل ، من حيث إن الإيمان مبدأ الاستقامة ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾ بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن ، أو تتنزل بالبشرى في ثلاثة مواطن : عند الموت ، وفي القبر ، وإذا قاموا من قبورهم بألا تخافوا ولا تحزنوا ، لا تخافوا من الموت وما بعده ، ولا تحزنوا على ما خلّفتم من أهل وولد ، ونحن نخلفكم فيه ، والخوف: غم يطرأ على النفس لتوقع مكروه في المستقبل ، والحزن : غم يطرأ على النفس لفوات نفع في الماضي.

﴿أَوْلِياؤُكُمْ﴾ أعوانكم في شؤونكم ، نحفظكم ونوفقكم لما فيه الخير ، ونلهمكم الرشد والحق ﴿فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ بدل ما يفعل الشيطان بالكفرة ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بالشفاعة والكرامة حتى تدخلوا الجنة ، وحيثما تتعادى الكفرة وقرناؤهم ﴿وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ من اللذائذ ﴿وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ﴾ تتمنون وتطلبون ، مأخوذ من الدعاء بمعنى الطلب ، وهو أعم من الأول ﴿نُزُلاً﴾ ما أعدّ لهم من الجزاء الحسن ، وأصل النزل : الطعام المعدّ للضيف.

سبب النزول :

نزول الآية (٣٠):

﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ﴾ : قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وذلك أن المشركين قالوا : ربنا الله ، والملائكة بناته ، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فلم يستقيموا. وقال أبو بكر : ربنا الله وحده لا شريك له ، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم عبده ورسوله ، فاستقام.

وأخرج الترمذي والنسائي والبزار وغيرهم عن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا : رَبُّنَا اللهُ ، ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾ قال : «قد قال الناس ، ثم كفر أكثرهم ، فمن مات عليها ، فهو ممن استقام».

المناسبة :

هذه الآية شروع في بيان أحوال المؤمنين ومصيرهم ، بعد بيان أحوال المشركين وعاقبتهم ، ليتبين الفرق بين المؤمن والكافر ، وبين الطيب والخبيث.

فبعد أن أطنب الله تعالى في وعيد الكفار ، أردفه بهذا الوعد الشريف للمؤمنين ، كما هي سنة القرآن في إقران وإتباع أحدهما بالآخر ، مثل ﴿نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر ١٥ / ٤٩ . ٥٠].

التفسير والبيان :

﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا : رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾ أي إن الذين أقروا بربوبية الله وتوحيده ، فهو الله وحده لا شريك له ، ثم داموا على التوحيد ، فلم يلتفتوا إلى إله غير الله ، واستقاموا وثبتوا على أمر الله ، فعملوا بطاعته ، واجتنبوا معصيته ، حتى ماتوا ، وهذا يشمل التزام أحكام الشرع الحنيف في العقائد والعبادات والمعاملات والمحظورات قولا وفعلا ، لأن الاستقامة لفظ عام. وقد ذكر في حديث بعض مظاهرها ، أخرج أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله ، حدثني بأمر أعتصم به ، فقال : «قل : ربي الله ، ثم استقم» قلت : يا رسول الله ، ما أكثر ما تخاف علي؟! فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بطرف لسان نفسه ثم قال : «هذا».

وكذلك ورد عن الخلفاء الراشدين تفسير الاستقامة ببعض جزئياتها ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : استقاموا فعلا كما استقاموا قولا. وقال أيضا : ﴿ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾ : لم يشركوا بالله شيئا. وقال عمر رضي الله عنه وهو يخطب على المنبر : استقاموا والله على الطريقة لطاعته ، ثم لم يروغوا روغان الثعالب. وقال عثمان رضي الله عنه : ثم أخلصوا العمل لله. وقال علي رضي الله عنه : ثم أدّوا الفرائض.

وأقوال التابعين بمعنى ما ذكر.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ

﴿تُوعَدُونَ﴾ أي تتنزل عليهم الملائكة بما يشرح صدورهم ، ويدفع عنهم المخاوف والأحزان ، كالبشارة بالنجاة في مواطن ثلاثة : عند الموت ، وفي القبر ، وعند البعث ، وإزالة الخوف من أمور الآخرة ، وإذهاب الحزن عما فاتهم من أمور الدنيا من أهل ومال وولد. وإذا أزيلت مخاوف المستقبل وأحزان الماضي ، فقد زالت المضار والمتاعب بالكلية ، وحدثت الطمأنينة والسعادة.

وتقول لهم الملائكة : أبشروا بدخول الجنة التي وعدتم بها في الدنيا على ألسنة الرسل ، فإنكم واصلون إليها ، مستقرون بها ، خالدون في نعيمها.

ثم أخبر عما تقوله الملائكة للمؤمنين ، فقال تعالى :

﴿نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي نحن المتولون لحفظكم ومعونتكم في أمور الدنيا وأمور الآخرة ، نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله ، وكذلك نكون معكم في الآخرة ، نؤنسكم من وحشة القبور ، وعند النفخة في الصور ، ونؤمّنكم يوم البعث والنشور ، ونجاوز بكم الصراط المستقيم ، ونوصلكم إلى جنات النعيم. وهذا من قول الملائكة أو من قول الله تعالى ، وهو في مقابلة ما ذكر سابقا في وعيد الكفار حيث قال تعالى : ﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ﴾.

﴿وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ ، نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ أي ولكم في الجنة من جميع ما تختارونه من صنوف اللذات وأنواع الطيبات ، ومهما طلبتم وجدتم ، وكل ما تتمنون حصلتم عليه ، حال كونه معدا لكم ضيافة وعطاء وإنعاما ، من غفور لذنوبكم ، رحيم بكم ، رؤف بأحوالكم ، حيث غفر وستر ، ورحم ولطف. وقد تقدم أن قوله : ﴿وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ﴾ أعم مما سبقه.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت هذه الآيات دلالة قطعية على أن الجزاء منوط بالعمل ، فمن أقر بالربوبية والوحدانية والألوهية لله عَزَّوَجَلَّ ، واستقام على أوامر الله وطاعته ، واجتنب معاصيه وسخطه وغضبه ، له الجزاء المفضل في الدنيا والآخرة.

فتلهمه الملائكة ما تقرّ به نفسه وينشرح له صدره ، ويزيل مخاوفه ، ويبدد أحزانه ، وتقول له الملائكة الذين تتنزل بالبشارة : نحن قرناؤكم الذين كنا معكم في الدنيا ، نحفظكم ونلهمكم الحق ، وإذا كان يوم القيامة لا نفارقكم حتى ندخلكم الجنة. وهذا إما من قول الملائكة ، أو من قول الله تعالى ، والله ولي المؤمنين ومولاهم ، ومن كان الله وليه فاز بكل مطلب ، ونجا من كل مخافة.

ولكم في الآخرة كل ما تشتهيه أنفسكم من الملاذ ، ولكم كل ما تسألون وتتمنون ، رزقا طيبا ، وضيافة كريمة ، ونعمة عظيمة ، من الله الغفار الستّار لذنوب عباده التائبين ، الرحيم الرحمن الرؤوف بعباده في جميع الأحوال.

وقد دلت هذه الآية على أن كل هذه الأشياء المذكورة جارية مجرى النزل ، والكريم إذا أعطى النّزل ، فلا بد وأن يحقق السعادة للمعطي ، وتلك السعادة تحدث عند رؤية الله عَزَّوَجَلَّ والتجلي والكشف التام.

الدعوة إلى الله تعالى وآداب الدعاة

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَما يُلَقَّاها إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)﴾

الإعراب :

﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ الَّذِي﴾ : مبتدأ ، و ﴿كَأَنَّهُ﴾ : الخبر ، وإذا الفجائية : ظرف مكان لمعنى التشبيه ، والفاء للسببية. ﴿وَإِمَّا﴾ أدغمت نون «إن» الشرطية في «ما» الزائدة.

البلاغة :

﴿الْحَسَنَةُ﴾ و ﴿السَّيِّئَةُ﴾ بينهما طباق.

﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ تشبيه مرسل مجمل أي ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه.

المفردات اللغوية :

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً﴾ أي لا أحد أحسن قولا ﴿دَعا إِلَى اللهِ﴾ أي دعا إلى توحيده وعبادته ﴿وَعَمِلَ صالِحاً﴾ فيما بينه وبين ربه من إقامة الفرائض واجتناب المنكرات ﴿وَقالَ : إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال ذلك اعتزازا وتفاخرا باتخاذ الإسلام دينا ومذهبا ، وصرح أنه من المستسلمين لأمر الله ، المنقادين له ، قال أبو حيان : والظاهر العموم في كل داع إلى الله ، أي فهي عامة لمن استجمع تلك الصفات ، وقيل : نزلت في النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل : في المؤذنين.

﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ لا تستويان في الجزاء وحسن العاقبة ، و ﴿لا﴾ الثانية : مزيدة لتأكيد النفي ، و ﴿الْحَسَنَةُ﴾ ما ترضي الله ويتقبلها ، و ﴿السَّيِّئَةُ﴾ ما يكرهها الله ويعاقب عليها ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي ادفع وردّ السيئة حيث اعترضتك بالخصلة التي هي أحسن منها وهي الحسنة ، كمقابلة الغضب بالصبر ، والجهل بالحلم ، والإساءة بالعفو ، والمراد بالأحسن : الزائد مطلقا ، فيكون القصد منه : الحسنة التي وضع الأحسن موضعها.

﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ إذا فعلت ذلك صار عدوك كالصديق القريب في محبته ، فالحميم : الصديق ﴿وَما يُلَقَّاها﴾ ما يؤتى هذه السجية ويحتملها وهي مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ لأن الصبر يحبس النفس عن الانتقام ﴿وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي ما يؤتاها ويتقبلها إلا صاحب الحظ العظيم من الخير وكمال النفس.

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ﴾ أي إن يصرفك وسواس من الشيطان عن الخصلة الخيّرة فاستعذ ، وأصل النزغ : النخس ، شبه وسوسة الشيطان بالنخس ، لأنها بعث على ما لا ينبغي ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ التجئ إليه من شره ولا تطعه ، وجواب الأمر محذوف : أي يدفعه عنك ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك أو قولك ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنيتك وفعلك.

سبب النزول :

نزول الآية (٣٣):

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً ..﴾ : قال ابن عباس : هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، دعا إلى الإسلام ، وعمل صالحا فيما بينه وبين ربه ، وجعل الإسلام نحلة : وقال أيضا : هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقالت عائشة وعكرمة ومجاهد : نزلت في المؤذنين. قال أبو حيان : وينبغي أن يتأول قولهم على أنهم ـ أي المؤذنون ـ داخلون في الآية ، وإلا فالسورة بكاملها مكية بلا خلاف ، ولم يكن الأذان بمكة ، إنما شرع بالمدينة ، والدعاء إلى الله يكون بالدعاء إلى الإسلام وبجهاد الكفار وكف الظلمة.

نزول الآية (٣٤):

﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ ..﴾ : نزلت في أبي سفيان بن حرب ، وكان عدوّا مؤذيا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فصار وليا مصافيا.

وروي أيضا أنها نزلت في أبي جهل ، كان يؤذي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فأمر صلى الله عليه وآله وسلم بالعفو عنه ، وقيل له : ﴿فَإِذَا الَّذِي ..﴾[1].

المناسبة :

بعد بيان ما يفعله قرناء السوء من الدعوة إلى المعاصي ، ذكر الله تعالى حال أضدادهم الذين يدعون الناس إلى توحيد ربهم وطاعته ، وأبان آدابهم وأوصافهم من مقابلة السيئة بالحسنة ، والاستعاذة من شر الشيطان واللجوء إلى الله إذا حاول الشيطان صرف الإنسان عن حكم شرعه الله تعالى.

التفسير والبيان :

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللهِ ، وَعَمِلَ صالِحاً ، وَقالَ : إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي لا أحد أحسن ممن اتصف بالخصال الثلاث التالية :

١ ـ الدعوة إلى توحيد الله وطاعته وعبادته ، فذلك خير ما يقوله إنسان لإنسان. وهذا نص عام يشمل كل داعية مخلص إلى الله ، سواء الداعية الأول وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والمؤذنون ، والقائمون بالدعوة إلى الإسلام في كل زمان ومكان بالقول أو الخطابة أو الكتابة.

---

(١) أحكام القران لابن العربي : ٤ / ١٦٥١

٢ ـ العمل الصالح : وهو تأدية ما فرض الله على الإنسان ، مع اجتناب ما حرّمه عليه.

٣ ـ اتخاذ الإسلام دينا ومنهجا ومذهبا ، فلا شيء أحسن منه قولا ، ولا أصح منه عقيدة ، ولا أوضح منه طريقة ، ولا أكثر من عمله ثوابا.

وبعد بيان أصول الدعوة إلى الله وتوثيق العلاقة بين العبد وربه ، ذكر الله تعالى آداب الدعاة وتحسين العلاقة بين العباد بعضهم ببعض ، فقال : ﴿**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ أي لا تساوي بين الفعلة الحسنة التي يرضى الله بها ويثيب عليها ، وبين الفعلة السيئة التي يكرهها الله ويعاقب عليها ، والمداراة من الحسنة ، والغلظة من السيئة. ادفع أيها الداعية من أساء إليك بالإحسان إليه ، من الكلام الطيب ومقابلة الإساءة بالإحسان ، والذنب بالعفو ، والغضب بالصبر ، والإغضاء عن الهفوات ، واحتمال المكروهات. قال عمر رضي الله عنه : ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

ثم أبان الله تعالى نتيجة الإحسان وأثره البعيد ، فقال :

﴿**فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ أي إنك إن فعلت ذلك ، فقابلت الإساءة بالإحسان ، صار العدو كالصديق. وما أحسن هذه النتيجة أن يتحول الناس الأعداء أو الحساد إلى أصدقاء أو كالأقارب يستعان بهم عند المحنة ، بسبب الشفقة والإحسان.

﴿**وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ أي وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها ، ويؤتى القدرة على هذه الخصلة وهي دفع السيئة بالحسنة إلا الذين صبروا على كظم الغيظ ، واحتمال المكروه ، والصبر شاقّ

على النفوس ، وما يتقبلها ويحتملها إلا ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة ، وذو حظ في الثواب والخير.

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم ، كأنه ولي حميم.

ثم ذكر الله تعالى طريق علاج الوساوس والأهواء ونزعات الشيطان ، فقال :

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ ، فَاسْتَعِذْ بِاللهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي إن وسوس إليك الشيطان ، وحاول صرفك عن الدفع بالتي هي أحسن ، وزيّن لك أن تقابل السيئة بمثلها ، فاستعذ بالله من شره ، والتجئ إلى الله لكفه عنك ورد كيده ، فالله هو السميع لاستعاذتك منه ، والتجائك إليه ، العليم بوساوس الشيطان وبما يعزم عليه الإنسان وبصدق الطلب والرجاء.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قام إلى الصلاة يقول فيما رواه أحمد والترمذي عن أبي سعيد الخدري : «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه».

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿خُذِ الْعَفْوَ ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ. وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا ، فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٩٩ ـ ٢٠١].

فقه الحياة أو الأحكام :

يؤخذ من الآيات ما يأتي :

١ ـ لا كلام أحسن من القرآن ، والدعوة إلى توحيد الله وطاعته أحسن من

كل ما سواها ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الأنموذج الأول للدعاة ، والقدوة الحسنة لهم ، كان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله ، هذا حبيب الله ، هذا ولي الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا والله أحبّ أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه [١].

وقالت عائشة رضي الله عنها وعكرمة وقيس بن أبي حازم ومجاهد : نزلت في المؤذنين.

والحق أن هذه الآية كما تقدم وكما قال الحسن : عامة في كل من دعا إلى الله ، نزلت في كل مؤمن. والدعوة إلى الله : بإقامة الأدلة والبراهين القطعية على صحة العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية.

٢ ـ لا بد من أن يجمع الداعية بين العمل الصالح (وهو اجتناب المحارم ، وكثرة المندوبات ، وأداء الفرائض) وبين التصريح بالاعتقاد بالله في ذلك كله ، وإخلاص العمل لوجه الله تعالى.

وقوله تعالى : ﴿وَقالَ : إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ رد على من يقول : أنا مسلم إن شاء الله[٢].

٣ ـ هناك فرق عظيم بين الحسنة والسيئة وأثر كل منهما ، والحسنة : دعوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى دين الحق ، والصبر على جهالة الكفار ، وترك الانتقام ، وترك الالتفات إليهم. والسيئة : ما أظهره المشركون من الجلافة في قولهم المتقدم أوائل السورة : ﴿وَقالُوا : قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ﴾ وأمثلة الحسنة : قول لا إله إلا الله ، والطاعة لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، والمداراة ، والعفو ، والعلم ، وحبّ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٤ / ١٦٥٠

(٢) المرجع والمكان السابق.

آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ونحو ذلك. وأمثلة السيئة أضداد ذلك كالشرك ، والغلظة ، والانتقام ، والفحش ، وبغض آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

٤ ـ الحكمة والسياسة في الأخلاق الاجتماعية : دفع السيئة بالإحسان ، كالكلمة الطيبة والمصافحة ، جاء في الأثر الذي رواه ابن عدي عن ابن عمر ، وهو ضعيف : «تصافحوا يذهب الغلّ» فإذا أحسنت إلى من أساء إليك ، قادته تلك الحسنة إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه ولي حميم ، أي قريب إليك ، من الشفقة عليك ، والإحسان إليك. قال ابن عباس ـ كما تقدم ـ : أمره (أمر نبيه) الله تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم.

وقيل : كان هذا قبل الأمر بالقتال ، ثم نسخ به ، والظاهر دوام العمل بهذه الآية ، فهي تقرر أمرا خلقيا محمودا وفضيلة سامية ، بدليل قوله بعدها : ﴿**وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا** ..﴾ الآية.

٥ ـ لا يتخلق بهذه الفضيلة إلا من صبر على الإساءة بكظم الغيظ واحتمال الأذى ، وذو النصيب الوافر من الخير ، فهذا أسلوب دفع الغضب والانتقام وترك الخصومة.

ويضم إليه أسلوب آخر في الوقاية من الشر قبل حدوثه : وهو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، والالتجاء إلى الله من كيده وشره ووساوسه ، والله حتما سميع للاستعاذة ، عليم بصير بالأفعال والأقوال.

الأدلة الدالة على وجود الله وتوحيده وقدرته وحكمته

﴿وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾

الإعراب :

﴿وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ .. اللَّيْلُ﴾ : مبتدأ ، ﴿وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ : عطف عليه. ﴿وَمِنْ آياتِهِ﴾ : الخبر. وقوله : ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَ﴾ الهاء والنون في ﴿خَلَقَهُنَ﴾ تعود على الآيات ، ولا تعود على الشمس والقمر والليل والنهار ، لأن المذكر والمؤنث إذا اجتمعا غلّب جانب المذكر على جانب المؤنث.

﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً ..﴾ : أن وما عملت فيه : في موضع رفع بالظرف ، على مذهب سيبويه والأخفش ، لأن «أن» المصدرية إذا وقعت بعد الظرف ارتفعت به ، كما يرفع الظرف إذا وقع خبرا لمبتدأ ، أو صفة لموصوف ، أو صلة لموصول ، أو حالا لذي حال ، أو معتمد على همزة الاستفهام أو حرف النفي ، فالخبر مثل ﴿فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ﴾ فجزاء : مرفوع بالظرف ، والصفة مثل : مررت برجل في الدار أبوه ، والصلة مثل : ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾ [الرعد ١٣ / ٤٣] والحال مثل ﴿وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ﴾ [المائدة ٥ / ٤٦] فهدى : مرفوع بالظرف ، لأنه حال من الإنجيل ، والمعتمد على همزة الاستفهام مثل ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم ١٤ / ١٠] وحرف النفي مثل : ما في الدار أحد. و ﴿خاشِعَةً﴾ : حال من ﴿الْأَرْضَ﴾ لأن ﴿تَرَى﴾ من رؤية العين. ﴿وَرَبَتْ﴾ : أصله ربوت ، فتحركت الواو وانفتح ما قبلها ، فقلبت ألفا ، وحذفت الألف لسكونها وسكون تاء التأنيث. وقرئ : «ربأت» أي ارتفعت.

البلاغة :

﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً ..﴾ هذه الآية في قمة البلاغة والبيان وجمال الأسلوب والتناسق الفني في التعبير والأداء ، فكأن الحركة ولمس معالم القدرة الإلهية وبعث الحياة تتمثل في جنباتها.

المفردات اللغوية :

﴿وَمِنْ آياتِهِ﴾ جمع آية : وهي البرهان والحجة الدالة على وحدانية الله وقدرته ﴿الَّذِي خَلَقَهُنَ﴾ أي خلق الآيات الأربع وسواها ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أمر بالسجود ثم ذكر العبادة ، لأن السجود أخص العبادات ، وهو موضع سجدة التلاوة عند الشافعية ، لاقتران الأمر به ، وعند أبي حنيفة : آخر الآية الأخرى ، لأنه تمام المعنى.

﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن الامتثال أو السجود لله وحده ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ يصلون له دائما ، لقوله تعالى : ﴿وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ لا يملّون.

﴿خاشِعَةً﴾ جامدة يابسة لا نبات فيها ، وأصل الخشوع : التذلل ، أستعير لحال الأرض الجدبة اليابسة ﴿اهْتَزَّتْ﴾ تحركت ﴿وَرَبَتْ﴾ انتفخت وعلت بالنبات ﴿إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الإحياء والإماتة.

المناسبة :

بعد بيان أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى ، ذكر الله تعالى الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته ، كمادة للدعوة إلى الله ، وتنبيها على أن الدعوة إليه تعالى هي تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته. وقد ذكر هنا الدلائل الكونية الفلكية الأربعة وهي الليل والنهار والشمس والقمر ، ثم أتبعها بآية أرضية في مرأى العين ، وهي إنبات النباتات بالمطر في الأرض.

التفسير والبيان :

﴿وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي ومن العلامات الدالة على قدرة الله وعظمته وحكمته وجود الليل والنهار وتعاقبهما ، وخلق الشمس المضيئة والقمر المنير ، وتقدير منازلهما في فلكيهما ، واختلاف سيرهما في مداريهما في السماء ، ليعرف بذلك مقادير الليل والنهار والأسابيع والشهور والأعوام ، وتعرف أوقات العبادة وآجال الحقوق والديون والمعاملات.

ولما كانت الشمس والقمر أنفع وأحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي ، نبّه الله تعالى إلى أنهما مخلوقان خاضعان لسلطان الله وتسخيره ، فلا يعظمان وإنما يعظم خالقهما ، فقال تعالى :

﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ ، وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي إياكم من السجود للشمس والقمر ، لأنهما مخلوقان من مخلوقات الله ، فلا يصح أن تكونا شريكين له في ربوبيته ، ولا تصح عبادتهما فهي لا تنفع مع عبادة الله ، وتكون عبادتهما شركا.

وإنما الواجب السجود لمن خلق هذه الآيات الأربع وغيرها ، إن كنتم تريدون العبادة الصحيحة الخالصة لله تعالى.

وآخر الآية رد على الصابئة الذين عبدوا الكواكب ، وعبدة الشمس في عصرنا ، الذين زعموا أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله ، فنهوا عن ذلك وأمروا ألا يسجدوا إلا لله الذي خلق هذه الأشياء.

وموضع سجود التلاوة في مذهب الشافعي رضي الله عنه كما تقدم هو قوله : ﴿تَعْبُدُونَ﴾ لأن قوله : ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ متصل به. وعند أبي حنيفة رضي الله عنه هو قوله : ﴿وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ الآتي ، لأن الكلام إنما يتم عنده.

وبعد أن أمر الله تعالى بالسجود له ، قال بعده :

﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ ، وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ أي فإن تكبر هؤلاء المشركون عبدة الكواكب عن الامتثال وإفراد العبادة لله ، وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره ، فلا يهم أمرهم ، فالملائكة عند ربك الذين هم خير منهم ـ عندية مكان لا قرب مكان ـ لا يستكبرون عن عبادته تعالى ، بل يواظبون على تسبيح الله سبحانه بالليل والنهار ، وهم لا يملون ولا يفترون ، كقوله عزّ وجلّ : ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ ، فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ﴾ [الأنعام ٦ / ٨٩]. وهذه الآية : ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا ..﴾ تدل على أن الملائكة أفضل من البشر.

وبعد ذكر الدلائل الفلكية ، ذكر تعالى الدلائل الأرضية ، فقال :

﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً ، فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى ، إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي ومن دلائل قدرته تعالى على البعث وإعادة الموتى أحياء أنك ترى الأرض هامدة لا نبات فيها ، بل هي ميتة ، فإذا أنزل الله عليها المطر تحركت بالنبات ، وانتفخت وعلت ، وأخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار.

إن الذي أحيا هذه الأرض الجدبة بالنبات والزرع ، قادر على أن يحيي الأموات ، فإنه الرب القدير الذي لا يعجزه شيء كائنا ما كان.

وقوله تعالى : ﴿أَنَّكَ تَرَى﴾ الخطاب لكل عاقل.

وهذا دليل حسي متكرر في القرآن يقرب للأذهان صورة الإحياء بعد الإماتة ، والمعول عليه هو قدرة الله الخالق ابتداء وانتهاء وكل وقت.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ من الآيات الواضحة والعلامات الظاهرة على وحدانية الله وقدرته خلق الليل والنهار والشمس والقمر.

٢ ـ هذه المخلوقات ذات المنافع الكثيرة لا تستحق العبادة مع الله ، وإنما المستحق للعبادة هو موجدها ، لأنه تعالى هو الخالق ، ولو شاء لأعدم الشمس والقمر ، أو طمس نورهما ، فهما مخلوقان يدلان على وجود الإله ، والسجدة التي هي نهاية التعظيم لا تليق إلا بمن كان أشرف الموجودات.

٣ ـ إن الله غني عن عباده ، فلا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، وإذا أحجم الناس عن عبادته ، وأعرض الكفار عن السجود لله ، فهناك خلق آخر وهم الملائكة مواظبون على التسبيح ، لا ينفكون عنه لحظة واحدة ، ولا يملّون عبادته ، ولا يشتغلون بأمر آخر سوى العبادة.

٤ ـ لا خلاف في أن آية ﴿**لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ ..**﴾ آية سجدة ، وإنما الخلاف كما تقدم في موضع السجود ، فقال لجمهور : موضعه : ﴿**إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ لأنه متصل بالأمر : ﴿**اسْجُدُوا**﴾. وقال أبو حنيفة : موضعه : ﴿**وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ**﴾ لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال.

٥ ـ تضمنت هذه الآية صلاة كسوف القمر والشمس ، لأن العرب كانت تقول : إن الشمس والقمر لا يكسفان إلا لموت عظيم ، فصلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلاة الكسوف ، وهي ثابتة في صحاح البخاري ومسلم وغيرهما.

٦ ـ ومن الآيات الدالة على قدرة الله وإحياء الموتى والبعث : إحياء الأرض

اليابسة التي لا زرع فيها ولا نبات بنزول الغيث عليها ، فإن القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو القادر على إحياء هذه الأجساد بعد موتها.

وقد تكرر هذا الدليل مرارا في القرآن ، والدليل الأصلي هو قوله : ﴿إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وتقديره كما ذكر الرازي : أي عودة التأليف والتركيب إلى تلك الأجزاء المتفرقة ممكن لذاته ، وعود الحياة والعقل والقدرة إلى تلك الأجزاء بعد اجتماعها أيضا أمر ممكن لذاته ، والله تعالى قادر على الممكنات ، فوجب أن يكون قادرا على إعادة التركيب والتأليف والحياة والقدرة والعقل والفهم إلى تلك الأجزاء ، مما يدل دلالة واضحة على أن حشر الأجساد ممكن لا امتناع فيه [١].

تهديد الملحدين في آيات الله تعالى وتنزيه القرآن العظيم

عن الطعن فيه

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ما يُقالُ لَكَ إِلاَّ ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ (٤٣)﴾

---

(١) تفسير الرازي : ٢٧ / ١٣٠

الإعراب :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ ..﴾ خبر ﴿إِنَ﴾ فيه وجهان : إما أنه محذوف ، وتقديره : إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم يعذبون أو نجازيهم. وإما قوله تعالى : ﴿أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ [الآية : ٤٤] قال الرازي : والأول أصوب. وجملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ : بدل من قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ ..﴾.

﴿ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ .. ما قَدْ قِيلَ﴾ : في تأويل مصدر ، نائب فاعل ل ﴿يُقالُ﴾.

البلاغة :

﴿أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ بينهما مقابلة ، والمراد بالهمزة هنا التي هي للاستفهام : الإقرار بأن الملحدين يلقون في النار ، وأن المؤمنين يأتون آمنين.

﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ﴾ أمر يراد به التهديد والوعيد ..

﴿مَغْفِرَةٍ﴾ و ﴿عِقابٍ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿يُلْحِدُونَ﴾ يميلون عن الحق والاستقامة ، أي يؤولون الآيات تأويلا باطلا ، ويطعنون فيها ويحرّفونها عن مواضعها ﴿فِي آياتِنا﴾ آيات القرآن والدلائل الدالة على قدرة الله وحكمته ﴿لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا﴾ أي فنجازيهم على إلحادهم ﴿أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً﴾؟ قابل الإلقاء في النار بالإتيان آمنا ، مبالغة في الإشادة بحال المؤمنين ﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ﴾ تهديد شديد ﴿إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيد بالمجازاة.

﴿بِالذِّكْرِ﴾ القرآن ﴿وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ﴾ منيع لا يتأتى إبطاله وتحريفه ﴿لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ لا يتطرق إليه الباطل من جميع جهاته سواء الأخبار الماضية أو الأحكام التشريعية ﴿حَكِيمٍ﴾ في جميع أفعاله ، يضع الأمور في نصابها الصحيح ﴿حَمِيدٍ﴾ يحمده جميع خلقه بما أنعم من النعم الكثيرة عليهم.

﴿ما يُقالُ لَكَ﴾ أي ما يقول لك كفار قومك من تكذيب ﴿إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ

﴿قَبْلِكَ﴾ أي إلا مثل ما قال لهم كفار قومهم ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ للمؤمنين ﴿وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم للكافرين أعداء الله والمؤمنين.

سبب النزول :

نزول الآية (٤٠):

﴿أَفَمَنْ يُلْقى ..﴾ : أخرج ابن المنذر عن بشير بن فتح قال : نزلت هذه الآية في أبي جهل وعمار بن ياسر : ﴿أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾؟

المناسبة :

بعد الأمر بالدعوة إلى دين الله تعالى ، وبيان أسلوب الدعوة بذكر دلائل التوحيد والعدل وصحة البعث والقيامة ، هدد الله تعالى من ينازع في تلك الآيات والدلائل ، ويحاول إلقاء الشبهات فيها. ثم نوّه بوصف القرآن ، وسلّى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على آلامه من تكذيب قومه ، وأمره بأن يصبر على أذاهم ، وألا يضيق قلبه بإعراضهم عن رسالته ، فتلك عادة الأمم مع الأنبياء والرسل.

التفسير والبيان :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا﴾ أي إن الذين يميلون عن الحق ، فيضعون الكلام في غير موضعه ، ويحرّفون كلام الله تعالى وآياته الدالة على قدرته وحكمته ، لا يخفون علينا ، بل نحن نعلمهم ، فنجازيهم بما يعملون بالعقوبة والنكال.

وفي هذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، يقتضي الحذر والخوف.

ونوع الجزاء هو :

﴿أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾؟ أي هل يستوي من يلقى في النار قسرا وقهرا لإلحاده بالآيات وتكذيبه للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن يكون آمنا يوم القيامة من العذاب؟ وهذا استفهام بمعنى التقرير ، والمراد أن الملحدين في الآيات يلقون في النار ، وأن المؤمنين بها يأتون يوم القيامة ، فاحكموا أيها العقلاء أيّ الحالين أفضل؟!

ثم أكد التهديد للكفرة بقوله تعالى :

﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ ، إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ اعملوا أي شيء تريدون فعله من خير أو شر ، فإن الله عالم بكم ، وبصير بأعمالكم ، ومجازيكم بحسب ما تعملون ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وهذا وعيد وتهديد ، صرف فيه الأمر إلى التهديد ، قال الزجاج : لفظ ﴿اعْمَلُوا﴾ لفظ الأمر ، ومعناه الوعيد.

ثم أبان صفة أولئك الملحدين وجزاءهم فقال وهو أيضا تهديد :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ﴾ أي إن الذين كفروا بالقرآن لما جاءهم ، وكذبوا به ، معذبون هالكون يجازون بكفرهم.

ثم أشاد بأوصاف ثلاثة للقرآن تنبيها للأنظار والعقول ، فقال :

﴿وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ ، لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي وإن القرآن الذي يلحدون فيه عزيز عن المعارضة أو الطعن ، منيع عن كل عيب ، لا يتأتى لأحد أن يأتي بمثله ، وليس لأحد أن يبطله من جميع جوانبه ، ولا يكذبه كتاب سابق قبله ، ولا لاحق بعده ، محفوظ من النقص والزيادة ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ، وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ [الحجر ١٥ / ٩] ، وإنه تنزيل من حكيم في أقواله وأفعاله ، محمود في

جميع ما يأمر به وينهى عنه ، مشكور من جميع خلقه على كثرة نعمه وأفضاله ، وأجلها بحق : تنزيل هذا الكتاب ، فهو النعمة العظمى والرحمة الكبرى ، الذي بيّن للناس طريق الهداية ، وعرفهم محذرا سبيل الغواية والضلالة.

ثم سلّى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم على ما يناله من أذى المشركين وطعنهم في كتابه وتكذيبهم لرسالته ، وأمره بالصبر والثبات على دعوته ، فقال :

﴿ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ﴾

أي ما يقال لك من هؤلاء الكفار المشركين من وصفك بالسحر والكذب والجنون إلا مثل ما قيل للرسل من قبلك ، فإن قومهم كانوا يقولون لهم مثلما يقول لك هؤلاء ، فكما كذبت كذّبوا ، وكما صبروا على أذى قومهم لهم ، فاصبر أنت على أذى قومك لك ، وإن ربك لغفار لمن تاب إليه ، ومعاقب بعقاب مؤلم لمن استمر على كفره ، وأصر على طغيانه وعناده ، ومات كافرا ولم يتب.

ونظير الآية كثير مثل : ﴿كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا : ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات ٥١ / ٣٩].

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيّب قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «لو لا عفو الله وتجاوزه ما هنا أحدا العيش ، ولو لا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد».

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ أورد تعالى تهديدات أربعة متعاقبة في هذه الآيات ، فقال : ﴿إِنَ

الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا .. أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ .. اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ ..﴾.

٢ ـ هدد الله تعالى أولا الملحد في آيات القرآن ، وهو المنحرف عن الحق إلى الباطل فقال : ليس القرآن من عند الله ، أو هو شعر أو سحر ، وحاول الصد عن سماعه بالتصفيق والتصفير واللغو والغناء ، وبدّل الكلام ووضعه في غير موضعه. موضعه.

٣ ـ الغرض من قوله : ﴿**أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ ..**﴾ التنبيه على أن الذين يلحدون في آيات الله ، يلقون في النار ، والذين يؤمنون بآيات الله يأتون آمنين يوم القيامة. وهذا هو التهديد الثاني.

٤ ـ والتهديد الثالث : ﴿**اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ**﴾ أي بعد ما علمتم أن الملحد الكافر والمؤمن لا يستويان ، فلا بد لكم من الجزاء ، فمن اختار لنفسه طريق الكفر عوقب بالنار ، ومن اختار منهج الإيمان جوزي بالجنة.

٥ ـ والتهديد الرابع : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ ..**﴾ أي إن الذين جحدوا بالقرآن وكونه منزلا من عند الله تعالى يجازون بكفرهم ، لأن القرآن اشتمل على جميع ما يحتاج إليه الناس من العقائد الصحيحة ، والشرائع المحكمة ، والأحكام الصالحة لكل زمان ومكان.

٦ ـ ذكر الله تعالى هنا للقرآن الكريم أوصافا ثلاثة هي :

أولا ـ إنه كتاب عزيز منيع الجانب ، لا نظير له ، ولا يطعن فيه ، ولا يعارضه أحد ، كريم على الله تعالى ، محفوظ من الله سبحانه.

ثانيا ـ لا يكذبه شيء مما أنزل الله من قبل من الكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل والزبور ، ولا يجيء كتاب من بعده يكذبه ، ولا يستطيع أحد أن يزيد

فيه أو ينقص منه ، ولا باطل فيما أخبر عنه في الماضي والمستقبل ، وما حكم بكونه حقا لا يصير باطلا ، وما حكم بكونه باطلا لا يصير حقا.

ثالثا ـ تنزيل من حكيم في جميع أحواله وأفعاله ، حميد أي محمود على ما أسدى لجميع خلقه بسبب كثرة نعمه.

٧ ـ ما يتعرض له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الأذى والتكذيب ، تعرض له الأنبياء والرسل السابقون عليه ، فلا بد من الصبر على الأذى ، وألا يضيق القلب بسبب الإعراض عن رسالته.

٨ ـ إن الله تعالى تام العدل ، فهو ذو مغفرة للمؤمنين التائبين ، وذو عقاب مؤلم وجيع لأعدائه الكفار الذين كذبوا رسله.

التأكيد على عروبة القرآن الكريم

﴿وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ‌ءَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦)﴾

الإعراب :

﴿وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ الَّذِينَ﴾ : اسم موصول مبتدأ ، وصلته ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾ وخبره جملة : ﴿فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ﴾ و ﴿وَقْرٌ﴾ : مبتدأ ، و ﴿فِي آذانِهِمْ﴾ خبره ، والجملة من المبتدأ والخبر خبر المبتدأ الأول.

البلاغة :

﴿ءَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ بينهما طباق. والاستفهام : استفهام إنكار.

﴿أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ استعارة ، شبّه حالهم في إعراضهم عن سماع القرآن وقبوله بحال من ينادى من مكان بعيد ، بجامع عدم السماع وعدم الفهم في كل منهما.

المفردات اللغوية :

﴿وَلَوْ جَعَلْناهُ﴾ أي القرآن ـ الذّكر. ﴿أَعْجَمِيًّا﴾ أي كلاما لا يفهم ، سواء بلغة العرب أو العجم. ﴿لَوْ لا﴾ هلا. ﴿فُصِّلَتْ آياتُهُ﴾ بينت آياته بلغتنا ، حتى نفهمها. ﴿ءَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ أكلام أعجمي ومخاطب عربي؟ والمقصود : الدلالة على أنهم لا ينفكون عن التعنت في الآيات كيف جاءت. ﴿هُدىً﴾ من الضلالة إلى الحق. ﴿وَشِفاءٌ﴾ من الجهل والشك والشبهة. ﴿وَقْرٌ﴾ ثقل ، فلا يسمعون. ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ معمّى فلا يفهمونه ، لتعاميهم عما يريهم من الآيات.﴿أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ هذا تمثيل لحالهم في عدم قبولهم واستماعهم له بحال من يصيح بهم من مسافة بعيدة ، أي فهم كالمنادى من مكان بعيد لا يسمع ولا يفهم ما ينادى به.

﴿آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ﴾ التوراة. ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ بالتصديق والتكذيب كما اختلف في القرآن. ﴿وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتأخير الحساب والجزاء للخلائق إلى يوم القيامة. ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا فيما اختلفوا فيه. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي وإن المكذبين به وهم اليهود أو الذين لا يؤمنون. ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ من التوراة والقرآن. ﴿مُرِيبٍ﴾ موجب للاضطراب موقع في الريبة.

﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ﴾ أي يعود نفع عمله لنفسه. ﴿وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها﴾ أي يعود ضرر إساءته على نفسه. ﴿وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي بذي ظلم ، فيفعل بهم ما ليس له أن يفعله ، لقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء ٤ / ٤٠].

سبب النزول :

نزول الآية (٤٤):

﴿لَقالُوا : لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ﴾ : أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : قالت قريش : لو لا أنزل هذا القرآن أعجميا وعربيا؟ فأنزل الله : ﴿لَقالُوا : لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ﴾ الآية. والمراد أن نزول هذه الآية بسبب تعنت الكفار.

المناسبة :

الواقع أن سبب النزول هذا لا يقبل ، لأنه ـ كما ذكر الرازي ـ يقتضي ورود آيات لا تعلق للبعض فيها بالبعض ، مما قد يؤدي إلى الطعن في عدم انتظام القرآن ، فضلا عن ادعاء كونه معجزا. والحق أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد ، على ما حكى الله تعالى عنهم من قولهم : ﴿وَقالُوا : قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ ، وَفِي آذانِنا وَقْرٌ﴾ وهذا الكلام متعلق به ، وجواب له.

والتقدير : أنا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم ، لكان لهم أن يقولوا : كيف أرسلت الكلام العجمي إلى القوم العرب؟ ويصح لهم أن يقولوا : ﴿قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ﴾ أي من هذا الكلام. ﴿وَفِي آذانِنا وَقْرٌ﴾ منه ، لأنا لا نفهم ولا نحيط بمعناه.

والمراد تأكيد عروبة القرآن ، إذ لو فرض نزوله بلغة أعجمية لحق للعرب أن يقولوا : لا نفهم ، أما وإنه نزل بلغتهم وبألفاظهم ، فلم يبق لهم عذر في الإعراض عنه ، وقولهم : ﴿قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ﴾ من هذه اللغة. ﴿وَفِي آذانِنا وَقْرٌ﴾ من تلك اللغة [١]

---

(١) تفسير الرازي : ٢٧ / ١٣٣

التفسير والبيان

﴿وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا : لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ؟﴾ أي لو فرض أن جعلنا هذا القرآن بغير لغة العرب أي بلغة العجم ، لقال كفار قريش : هلا بينت آياته بلغتنا حتى نفهمه ، فإنا عرب لا نفهم لغة العجم؟ وقالوا أيضا : أكلام أعجمي ومرسل إليه عربي؟

والمقصود أن القرآن عربي فلم لا يفهمونه ولا يعملون به؟! ولو نزل بلسان أعجمي لأنكروا ذلك ، وقالوا : هلا بينت آياته باللغة التي نفهمها؟ وقالوا أيضا : أكلام أعجمي والمرسل إليهم عرب؟ أي كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه؟!

ولما كان جميع القرآن عربيا في لفظه ومعناه ، ومع هذا لم يؤمن به المشركون ، دل على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت ، كما قال عزّ وجلّ : ﴿وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ، ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ١٩٨].

ثم أبان الله تعالى هدف القرآن الكريم وغايته ، فقال :

﴿قُلْ : هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين : ﴿قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ﴾ : إن هذا القرآن هداية لقلب من آمن به ، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والرّيب ، كما قال تعالى : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء ١٧ / ٨٢].

ثم أوضح موقف المشركين من القرآن الكريم ، فقال :

﴿وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي والذين لا يصدقون بالله ورسوله ورسالته : في آذانهم صمم عن سماعه وفهم معانيه ، فهم

لا يفهمون ما فيه ، ولهذا تواصوا باللغو فيه ، وهو عليهم معمّى ، لا يهتدون إلى ما فيه من البيان ، ولا يبصرون ما اشتمل عليه من براهين ومواعظ. وهذا كقوله تعالى : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَنِداءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ، فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة ٢ / ١٧١].

ثم أكد الله تعالى عدم استعدادهم لفهم القرآن ، فقال :

﴿أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ أي إن حالهم كحال من ينادى من مسافة بعيدة ، يسمع صوت من يناديه منها ، ولا يفهم أو لا يفقه ما يقال له ، لأنهم أعرضوا ولم يريدوا سماع القرآن.

ثم أوضح تعالى أن التكذيب بكتاب الله عادة قديمة في الأمم ، فقال :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي لا تستغرب يا محمد ، فتلك عادة الأمم مع أنبيائهم ، فإنهم يختلفون في الكتب المنزلة عليهم ، والمثال على ذلك : أننا أرسلنا موسى وآتيناه التوراة ، فاختلفوا فيها بين مصدّق ومكذب ، وكذّب موسى وأوذي ، فلا تأس على فعل قومك ، واصبر على الأذى ، واستعن بالله ولا تعجز ، كما قال تعالى : ﴿فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٣٥].

ثم بيّن الله تعالى سبب تأخير العذاب عنهم فقال :

﴿وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ولو لا ما سبق من حكم الله بتأخير العذاب والحساب عن المكذبين من أمتك إلى يوم المعاد ، لعجل لهم العذاب ، كما فعل بالأمم المكذبة ، وكما قال تعالى : ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ [الكهف ١٨ / ٥٨] وقال سبحانه : ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ، ما تَرَكَ عَلى

﴿ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ ، وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ..﴾ [فاطر ٣٥ / ٤٥].

ووردت آيات أخرى في تأخير العذاب مثل : ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر ٥٤ / ٤٦] ومثل : ﴿وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [النحل ١٦ / ٦١].

وموجب الهلاك قائم فيهم ، فقال تعالى :

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي وإن كفار قومك لفي شك من القرآن ، موقع في الريبة والقلق ، فما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا : بل كانوا شاكين فيما قالوه ، غير متحققين لشيء كانوا فيه.

ثم حدد الله تعالى قانون الجزاء ، فقال :

﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ، وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي من عمل عملا صالحا في الدنيا ، فائتمر بأمر الله ، وانتهى عما نهى الله عنه ، فإنما يعود نفع ذلك على نفسه ، ويجازى على وفق عمله ، ومن أساء فعصى الله ، فإنما يرجع وبال ذلك عليه ، ويعاقب على جرمه ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾ [النجم ٥٣ / ٣٩]. وعليه ، فإن آمنوا فنفع إيمانهم يعود عليهم ، وإن كفروا فضرر كفرهم يعود إليهم.

والجزاء للفريقين حق وعدل مطلق ، فلا ينقص المحسن شيئا من ثوابه ، ولا يعاقب أحدا من الناس إلا بذنبه ، ولا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول إليه.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ إن القرآن عربي ، نزل بلغة العرب ، وليس أعجميا ، فإذا ترجم إلى لغة أخرى ، لم يكن قرآنا.

٢ ـ إن نزول القرآن بلغة العرب كان بقصد التحدي ليتقرر به الإعجاز ، إذ العرب هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظما ونثرا ، وإذا عجزوا عن معارضته ، كان من أدل الأدلة على أنه من عند الله تعالى ، ولو كان بلسان العجم لقالوا : لا علم لنا بهذا اللسان ، وإذا كان كلامه بلسانهم ولغتهم ، لا بلغة أجنبية ، فلا يعذرون بعدم الإيمان به ، ولا يصح لهم أن يقولوا : إن قلوبنا في أكنة منه ، بسبب جهلنا بهذه اللغة.

٣ ـ وهذا أمر منطقي ، لأن فهم الخطاب التشريعي أساس التكليف ، ولا يعقل كما قال تعالى. ﴿ءَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ؟﴾ أن يكون القرآن أعجميا ، والأمة المخاطبة به عربية. والعجمي : الذي ليس من العرب ، كان فصيحا أو غير فصيح. والأعجمي : الذي لا يفصح ، كان من العرب أو من العجم.

٤ ـ إن القرآن هدى للناس من الضلالة ، وشفاء لكل من آمن به من الشك والريب والأوجاع ، وكونه هدى ، لأنه دليل على الخيرات ، مرشد إلى كل السعادات ، وكونه شفاء ، لأنه إذا حصل الاهتداء تحقق الشفاء من مرض الكفر والجهل.

٥ ـ لكن غير المؤمنين بالقرآن في آذانهم صمم عن سماع القرآن ، ولهذا تواصوا باللغو فيه ، وهو عليهم عمى لا يفهمونه ولا يدركون مقاصده ، فهم أو كل واحد منهم كالمنادى له من موضع بعيد ، فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه ، فلا خير فيه.

٦ ـ إن تكذيب الأمم للرسل عادة قديمة غير جديدة في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فلقد أنزل الله التوراة على موسى عليه السلام ، وسمع نخبة من قومه كلام الله له ، فمنهم من آمن به ، ومنهم من كذب به ، فلا يحزنك يا محمد اختلاف قومك في كتابك ، فقد اختلف من قبلهم في كتابهم.

وقبل بعضهم هذا الكتاب ، وهم أصحابك ، ورده الآخرون ، وهم يقولون : ﴿**قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ**﴾.

٧ ـ لو لا قضاء الله القديم المحكم ، وحكمه المبرم في إمهال الكفار وتأخير عذاب الاستئصال عنهم إلى يوم القيامة ، لقضي بينهم بتعجيل العذاب ، لأنهم في شك من القرآن شديد الريبة. قال الكلبي في هذه الآية : لو لا أن الله أخر عذاب هذه الأمة إلى يوم القيامة ، لأتاهم العذاب كما فعل بغيرهم من الأمم.

٨ ـ إن الجزاء من جنس العمل ، فمن أطاع الله فالثواب له ، والله عزوجل مستغن عن طاعة العباد ، ومن أساء فالعقاب عليه.

٩ ـ نفى الله تعالى الظلم عن نفسه ، قليله وكثيره ، فقال هنا : ﴿**وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾ وقال سبحانه : ﴿**إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً**﴾ [يونس ١٠ / ٤٤] وجاء في الحديث القدسي الثابت الذي أخرجه مسلم عن أبي ذر الغفاري : «يا عبادي ، إني حرّمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرّما ، فلا تظالموا».

وأيضا فالله تعالى هو الحكيم المالك ، وما يفعله المالك في ملكه لا اعتراض عليه ، إذ له التصرف في ملكه بما يريد.

آمنت بالله

فهرس

الجزء الرابع والعشرين

الموضوع الصفحة

وعيد المكذبين ووعد المصدقين ١

تزييف طريقة عبدة الأصنام وتهديدهم ١٢

مظاهر القدرة التامة والعلم الكامل لله عَزَّوَجَلَّ ١٧

واختلف العلماء في النفس والروح ٢٢

دعاء الإنسان عند الضر وجحوده عند النعمة وإعلامه بأن الرزق بيد الله ٢٩

مغفرة الذنوب بالتوبة وإخلاص العمل ٣٤

حال المشركين المكذبين وحال المتقين يوم القيامة ٤٢

دلائل الألوهية والتوحيد ٤٥

نفختا الصور والفصل في الخصومات وإيفاء كل واحد حقه ٥٢

أحوال أهل العقاب وأهل الثواب ٥٨

سورة غافر ٥٨

تسميتها ومناسبتها لما قبلها ٦٨

مشتملاتها ٦٩

مصدر تنزيل القرآن وحال المجادلين في آياته ٧١

محبة الملائكة حملة العرش للمؤمنين ونصرتهم ٧٩

اعتراف الكفار بذنوبهم وباستحقاقهم العقاب الأخروي والتذكير بقدرة ٨٥
الله وفضله

أوصاف أخرى هائلة رهيبة ليوم القيامة ٩٦

قصة موسى عليه السلام مع فرعون وهامان ١٠٢

١ ـ تعذيب بني إسرائيل والتهديد بقتل موسى ١٠٢

٢ ـ قصة مؤمن آل فرعون ودفاعه عن موسى عليه السلام ١٠٩
٣ ـ بحث فرعون عن إله موسى استهزاء به وإنكارا لرسالته ١٢١
٤ ـ متابعة الرجل المؤمن نصحة لقومه ١٢٥
المناظرة بين الرؤساء والأتباع في النار ١٣٥
نصر الرسل على أعدائهم في الدنيا والآخرة ١٤٠
من دلائل وجود الله وقدرته وحكمته ١٤٦
النهي عن عبادة غير الله وسبب النهي ١٥٦
جزاء المجادلين بالباطل في آيات الله ١٦٠
الصبر والنصر ١٦٥
دلائل أخرى كثيرة على وجود الله ووحدانيته ١٦٩
تهديد المكذبين المجادلين في آيات الله وتركهم الشرك حين رؤية العذاب ١٧٢
سورة فصّلت ١٧٩
مناسبتها لما قبلها ١٧٩
مشتملاتها ١٨٠
فضلها ١٨١
القرآن الكريم وإعراض المشركين عنه وبشرية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ١٨٣
دليل وجود الله تعالى وكمال قدرته وحكمته ١٩١
تهديد المشركين بمثل صاعقة عاد وثمود ٢٠٠
كيفية عقوبة الكفار في الآخرة ٢٠٨
الصد عن سماع القرآن الكريم ٢١٧
ما وعد الله به أهل الاستقامة ٢٢١
الدعوة إلى الله تعالى وآداب الدعاة ٢٢٦
الأدلة الدالة على وجود الله وتوحيده وقدرته وحكمته ٢٣٣
تهديد الملحدين في آيات الله تعالى وتنزيه القرآن العظيم عن الطعن فيه ٢٣٨
التأكيد على كون القرآن عربياً ٢٤٤